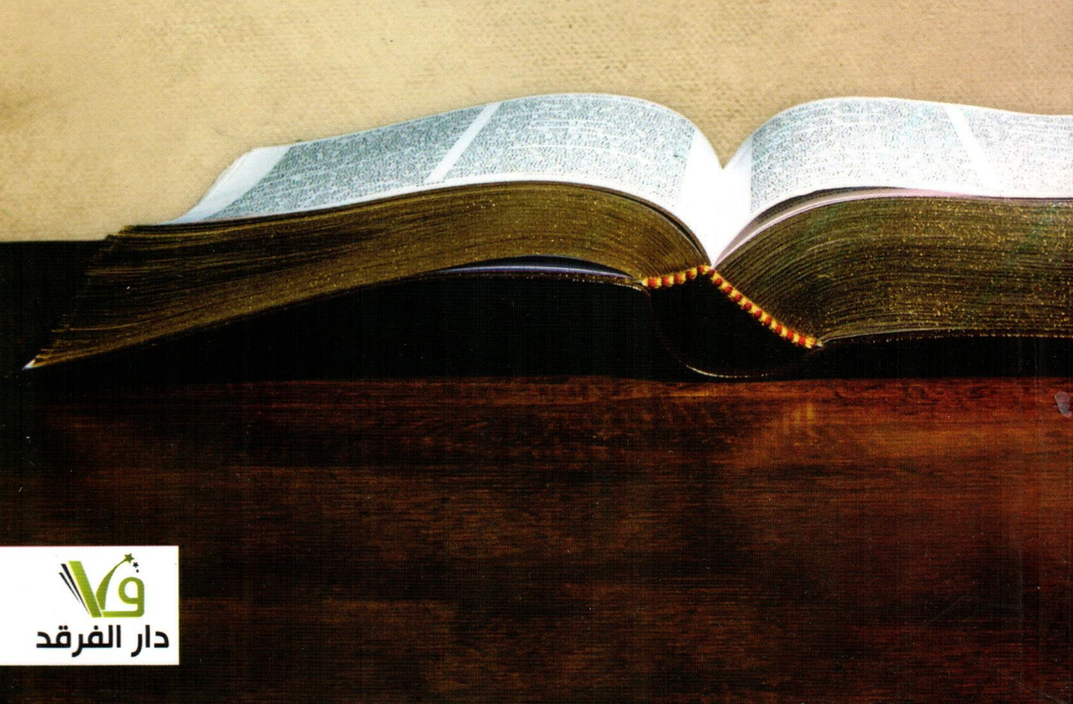
غابرييل رانجليه

إنجيل مفكّر حرّ

نقله إلى العربية

فاروق الحميد



إنجيل مفكّرٍ حر

عنـــوان الكتـــاب : إنجيل مفكّر حر

L'EVANGILE D'UN LIBRE PENSEUR

الكاتـــــــــب : غابرييل رانجليه
Gabriel ringlet

نقلـــه إلى العربيـــة : فاروق الحميد

الناشـــــــــر : دار الفرقد

الطبعـــة الأولى : 2020م

التنفيـذ والإشـراف : دار الفرقد

الإخـــراج الفـــني : وفاء الساطي

تصـــميم الغـــلاف : 255 STUDIO www.255studio.co

دار الفرقد

للنشر والتوزيع

دمشق ـ سورية

ص . ب : 34312

هاتف : 00963-11- 6618303 - 6660915

فاكس : 00963-11- 6660915

Email: info@daralfarqad.com

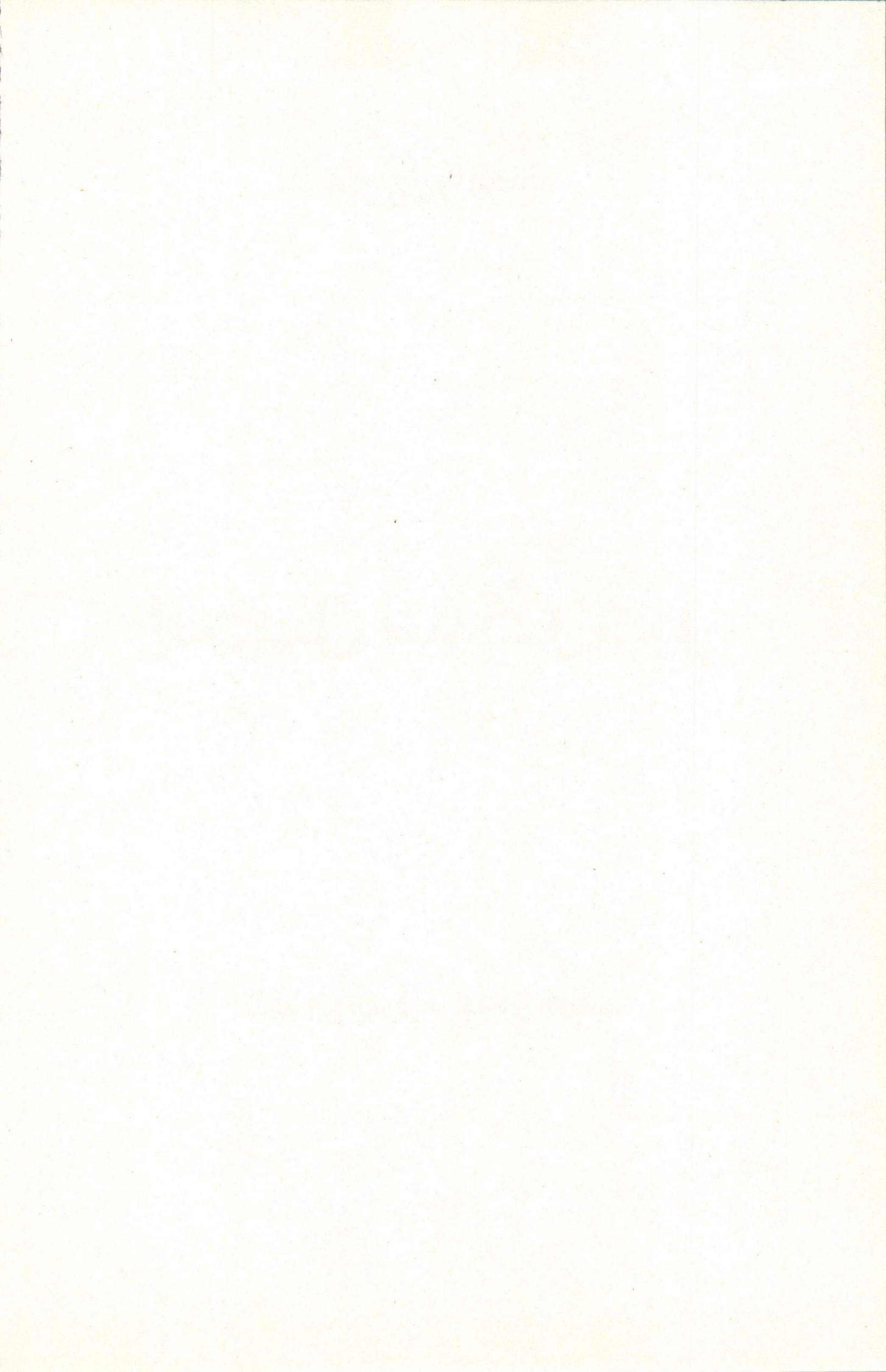
alfarqad70@gmail.com

www.daralfarqad.com

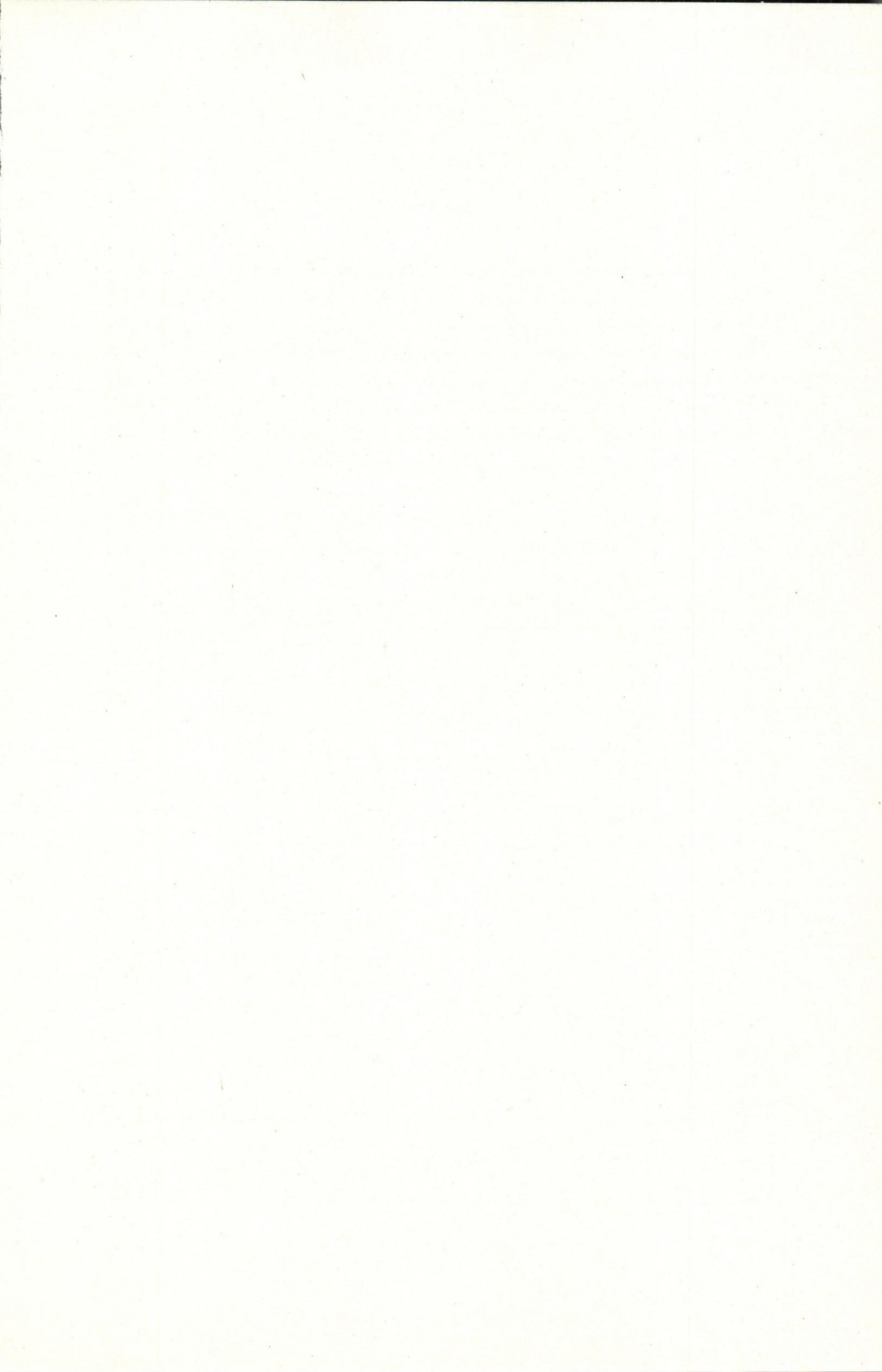
غابرييل رانجليه

إنجيـل مفكِّر حـر

نقله إلى العربية: فاروق الحميد

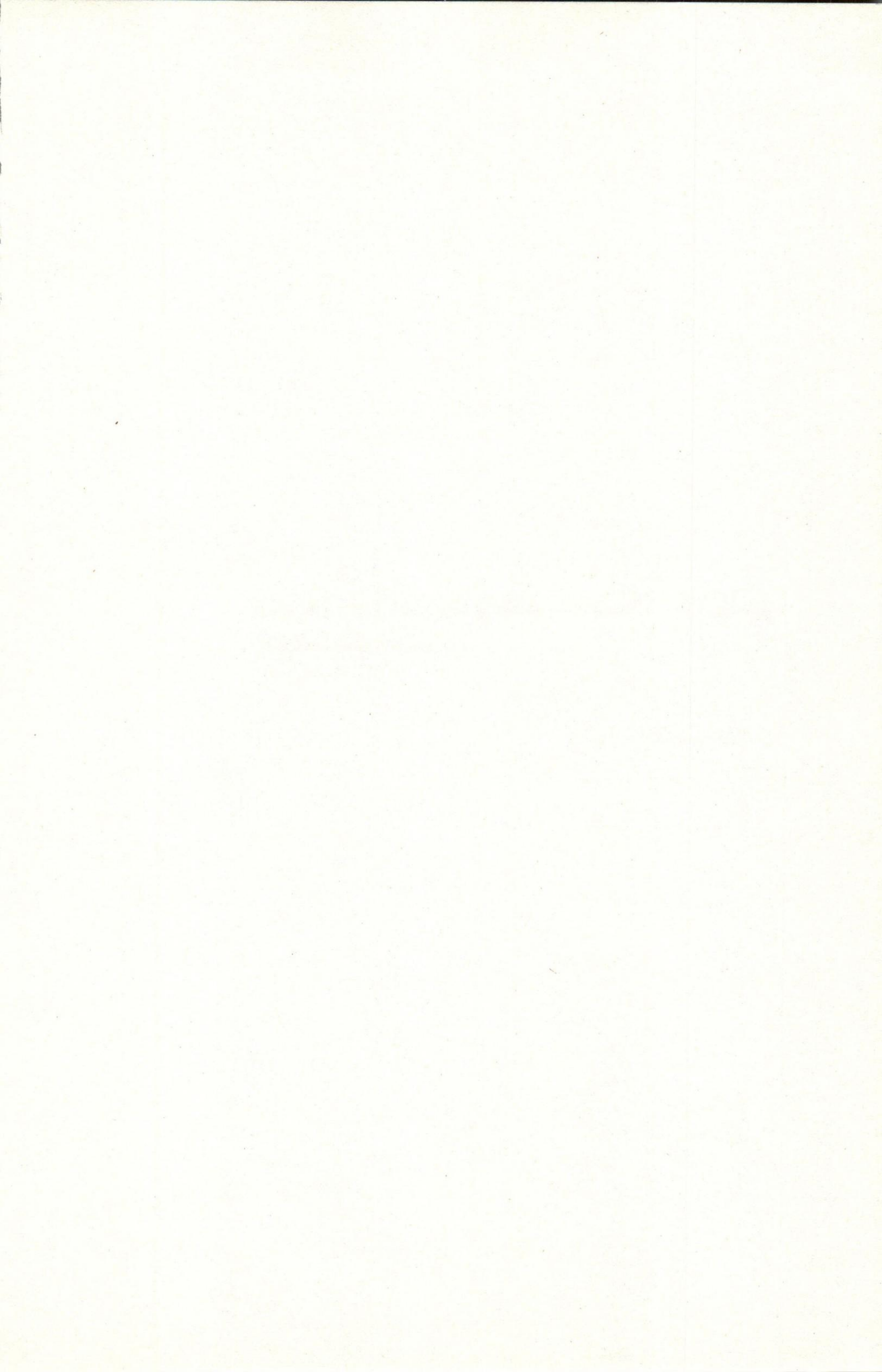


المحتوى



- « لم نعد نطيق وجودنا كقطع ميتة في المتحف بسبب كنيسة لا تفعل شيئاً سوى الكلام منذ العصور الوسطى »!

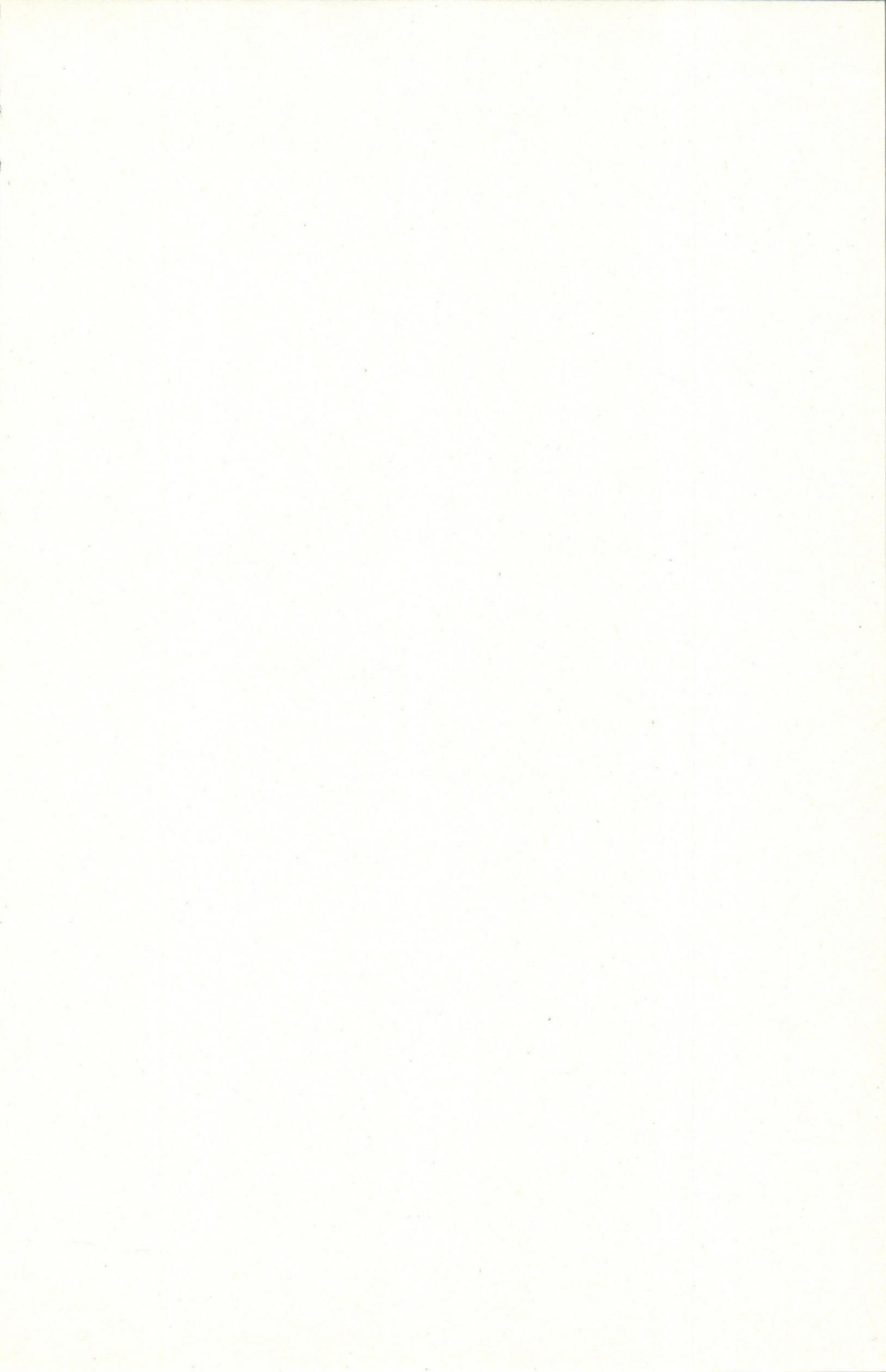
غابرييل مارك س



إلى جامعتي،

الملتزمة هي أيضاً

على طريق الفكر الحرِّ!



لا معنى للعالم إلاَّ في صيغة الجمع كالحبِّ

- جان كلود رونار -

في العمق وحده

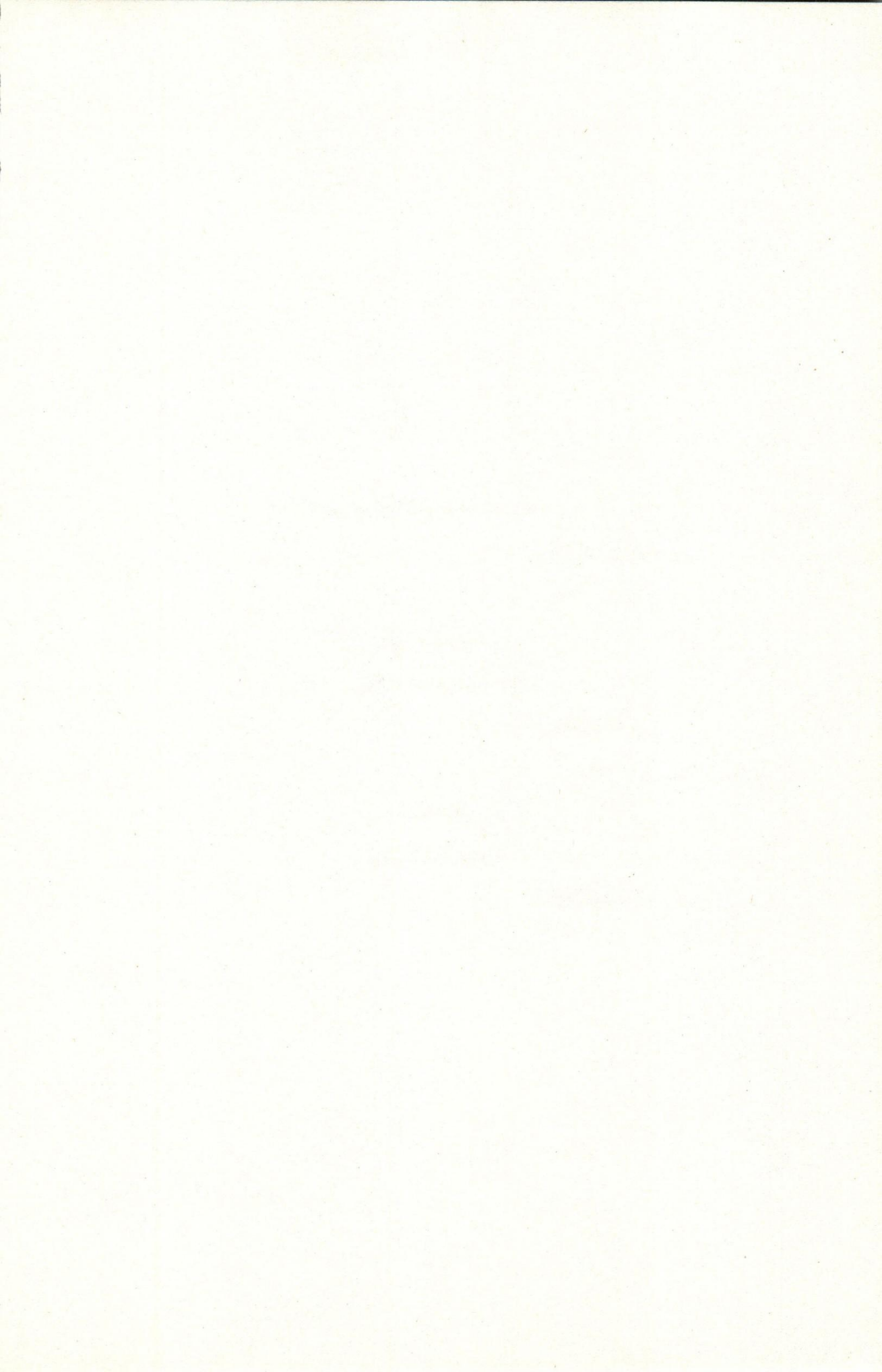
يمكن اختصار المسافات

- بول ريكير -

كمسيحيين

يمكن أن نفكِّر بحريَّة

- جان سيليفان -



دعوة

مهما قلتم عني، لن أكون مرتداً عن ديني!

لم يكن هناك من ضوء ينير لي الطريق، لا، ولا أعمدة راسخة تسندني، أو هزَّة أرضيَّة تزعزع كياني، لذا فأنا آسفٌ حقّاً!

لم أر «الله» جهرةً إلاّ وهو يدير ظهره لي! ولكنَّني التقيت ذات يوم بشعراء وروائيين، وفهمت حينها أنَّ رؤية «الله»، وهو يدير ظهره، حلوة أيضاً. لقد بدا لي بمظهره الطبيعيِّ أكثر ألفة، وأدركت أيضاً أنَّ الكلمات سوف لن تتخلّى عنِّي أبداً.

الآن، أعود أدراجي، ولسوف أستمر طالما يترتَّب عليَّ أن أحيط بمسألة صعبة، وأن أهيئ بحثاً حولها، وأن أواجه وضعاً معاصراً... لهذا أجدني بحاجة إلى أن ألتجئ منذ البداية إلى خالق من صنع الخيال!

كنت قد أنهيت دراستي الثانوية، ولمعرفة والديَّ بشغفي بالكتب والصحافة والراديو فقد ألحقوني بمدرسة للصحافة، ولكنَّني صرَّحت لهما بأنَّني أرغب بدراسة «اللّاهوت»، ونيَّتي الالتحاق بإحدى الجامعات التي تدرِّسه. ها آنذا وجدتني في قاعة الدرس أتلقّى المحاضرة الأولى.

ولكن المسؤولين آنذاك سرعان ما أرسلوني، بعد خمسة عشر يوماً فقط، إلى الجامعة لدراسة «الفيلولوجيا الرومانيَّة» أي مبحث تكوُّن الأنسال وتطوُّرها.

الغريب حقّاً هو أنّني بمرور الوقت، وجدت نفسي قريباً من الصحافة عن طريق الآداب الفرنسيَّة، واللّاهوت والعبريّة، وخاصّة تأويل «الكتاب المقدَّس» وأكثر قرباً للكتابة عن طريق «الفيلولوجيا» الآنفة الذكر.

قرأت الكثير من الكتب، وتلقّيت الكثير من المعلومات. ولشدَّ ما أثار حماستي وشغفي هو دراستي لما أحبُّ، ولكنّني كان يجب أن أخفّف من وطأة هذه الدراسة. إنَّ عشرين عاماً من الأخبار الدينيَّة والوقائع في جريدة يوميَّة [شعبيَّة وعلمانيَّة بآن واحد] سوف تعلّمني ألاَّ أحتقر «الأحاسيس» وأن أهتمَّ بالأخبار المختلفة، وأن أتَّصل بالآخرين عن قرب، وأنْ أفهم أنَّ كلمة «رعوي[1]» لم تكن مفهومة من القرّاء..

اليوم، وأنا في الجامعة، أحمد «الله» على أنّني كنت على الدوام أقف في الوسط، بين «الإنجيل» والحياة المعاصرة، بين البحث النظريِّ والتعميم العلميِّ، بين الكهنوت والخيال، أخيراً بين المسيحيَّة والعلمانيَّة!

هي ذي إذن التربة التي نما فيها كتابي «إنجيل مفكّر حر».

وحين اقترحت على نفسي هذا العنوان شعرت بالرضا بشكل عفوي لأنّه بدا لي عنواناً يعبِّر عن نفسه، وهو يشير إلى الجهة التي أقصدها.

ولكنّني بمرور أسابيع على اختياري لهذا العنوان، شعرت بشيء من الخوف والفزع يتسرَّب إلى قلبي: أهو عنوان مثير للقلق والجدل في تأويله المزدوج؟

---

(1) رعاية الكاهن لأبناء أبرشيتّه ـ المترجم ـ.

أم أنَّه عنوان مُدَعٍ بصورة خاصَّة؟

ولكن الحريَّة عمل فنيٌّ هي أيضاً! ومن ذا الذي يستطيع أن يعلن أنَّه إنسان حر، حتَّى ولو كان على مستوى الفكر؟!

ومع هذا، بدا لي أنَّ على هاتين الكلمتين [الإنجيل، مفكِّر حر] أن يلتقيا، كأبوين قريبين افترقا منذ زمن بعيد!

بدا لي أنَّ على هاتين المفردتين أن يلتقيا لأنَّني وجدتهما متَّحدتين في صداقة قديمة، ولم أعرف كيف أنَّ تاريخاً مؤلماً استبسل ضدَّ هذه الصداقة واستطاع أن يجعل الواحد منهما عدوَّاً للآخر، في الوقت الذي يدعو كلاهما إلى الهدف الواحد نفسه:

تشجيع الإنسان على أن يتنفس بعمق!

إذن، اسمحوا لي أن «أفتح» لكم هاتين الكلمتين المغلقتين، وذلك دون أيِّة نيَّة عندي لاستعادة، أو تملُّك إحداهما لأنَّ الفكر الحرَّ بالنسبة لي هو البشارة السعيدة، كما أنَّ «الإنجيل» هو داعٍ للحريَّة.. كما أعتقد!

منذ عدَّة سنوات، وأنا أجد نفسي مدعوَّاً للصراع، في العالم المسيحيِّ والعلمانيِّ على السواء!

الآن أجد اللَّحظة المناسبة كي أقوم بالخطوة التالية، وأن أتوسَّع في النقاش الذي أواجهه بكلِّ عزم، وأن أزيل بعض الغموض، وسوء الفهم حول موقفي بتقديمي هذا الكتاب لكم، وهو كتاب يأمل أن يمدَّ الجسور، وأن يشجع العبور نحو «الآخر»، ويحاول أن يدفع المسيحيين للتقدُّم في أراضي العلمانيَّة، وأن يقنع العلمانيين بالذهاب إلى الأرض التي تقرأ فيها «الإنجيل» بصوت عال. إنَّ التجارب أقرب بكثير ممَّا نتصور وراء الكلمات التي طالما استُخْدِمت في تعبيرنا عن

أفكارنا، لذا علينا أن نتعلّم كيف نتلقّى الآخرين، وأن نتعرّف على «اللّه» فيما وراء «اللّه» نفسه!

أتوجّه بهذا النداء إلى قلب المؤسّسة التي أعمل بها، لا إلى عامّة الناس فقط، لأنّني كنت أعمل فيها منذ ثمانية وعشرين عاماً، وأشغل منصب معاون مدير في الجامعة الكاثوليكيّة، ما يجعلني أتكلّم وأنا أتفهّم المخاطر التي تعترضني، وأقيس حدودها جيداً، مع التأكيد على أنّ الضرورة الحيويّة تقتضي التنقّل الذي لا بدّ منه أحياناً من موقع لآخر، لأنّني أعتقد أنّه آن الأوان للتقريب بين المفكرين الأحرار والمؤمنين الذين يؤمنون بالحريّة، كمقدّمة أولى للحوار!

افتتاحيَّة

النعجتان الضائعتان



دوار

شاعت في زمن «العهد الجديد» أسماء لمهن شتّى آنذاك، يمكن أن نذكر أربعاً منها أساسيَّة، وردت فيها مهنة «الراعي» مرتين مع عمل «الحمَّار»، وهو الذي يربي ويشرف على الحمير، و«الجمَّال» الذي يهتمُّ بالجِمال، و«الحلاَّق، والجزَّار» الذي يبيع اللَّحم، هذا بالإضافة إلى مهن أخرى مثل البائع «الجوَّال وجابي الضرائب» ومن يعمل في «الطبابة».. الخ!

لا أتجرأ على تعداد جميع المهن خشية أن يطالبني القرَّاء بذكر مهن أخرى، ومع ذلك أستطيع أن أشير إلى بعض منها «كمربي الحمام» ومنظّم مسابقاتها، «ولاعبي النرد»، وهي أعمال مُحْتَقَرة!

في هذا السياق كان لا بدَّ لحاخام يهودي أن يمتلك بعض الشجاعة كي يدافع عن الرعاة كما أشارت لنا الشهادات والدلائل الموثوقة.

في الواقع لقد كانت الشريعة تعمل إلى جانبه، ولا حاجة للبحث في مكان آخر، أو في الآداب الشرقيَّة لتوضيح معنى الراعي الجيد.

حين نفتح سفر «حزقيال»، الفصل الرابع والثلاثين منه نجد القصَّة المثيرة للنعجة الضائعة! هي ذي القصَّة تتراءى لنا من جديد، منذ أن قام باحثون «اسكتلنديُّون» باستنتاخ نعجة راشدة، بيد أنَّها لم تكن واحدة، بل كانت نعجتان اثنتان ابتعدتا عن القطيع.

الآن أقترح قراءة ما ورد في «إنجيل لوقا»، في الطبعة الجديدة «للكتاب المقدّس»:

- «وكان جميع العشّارين يدنون منه ليسمعوه، فتذمّر الفريسيُّون والكتبة قائلين هذا يقبل خطاة ويأكل معهم.

فكلّمهم بهذا المثل قائلاً، أيُّ إنسان منكم له مئة خروف وأضاع واحداً منها ألاّ يترك التسعة والتسعين في البريَّة ويذهب لأجل الضالِّ حتَّى يجده، وإذا وجده يضعه على منكبيه فرحاً، ويأتي إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران قائلاً لهم افرحوا معي لأنِّي وجدت خروفي الضالَّ؟» [لوقا، 15، 4].

يشبه إرثنا الوراثيُّ كتاباً كبيراً، ولقد حان الوقت الذي يترتَّب على كلِّ واحد منَّا أن يعرف كلَّ كلمة فيه، وأن يفهم معناها. في هذه الحالة سيكون لدينا جميعاً اصطلاح شخصي، والطبُّ المسمَّى «طب إرشادي» يستطيع، قبل ولادة الطفل تقدير ما سيحدث له من مشاكل صحيَّة، ومعرفة الحالة النفسيَّة والذهنيَّة والثقافيَّة لهذا الطفل أيضاً.

لقد ازدادت معارفنا بسرعة مذهلة أصبحنا فيها نشعر «بالدوار»، وفي مواجهة هذه السرعة التي ظلَّت فيها قدرتنا على اتِّخاذ القرار محدودة جدَّاً. إنَّ المسألة الأخلاقيَّة الحقيقيَّة التي تواجهنا اليوم هي في المعرفة أكثر منها في العمل: ما الذي نستطيع أن نفعله بمعرفتنا هذه؟ وما الذي ننقله من هذه المعارف لأجيالنا الآتية؟

كان الفلاح ليلة البارحة يترك لأطفاله بقعة أرض وأحجاراً، وهو إرث يثقل كاهلهم، بل عليهم أن يوسِّعوه ويطوِّره هم أيضاً!

غداً، و«غد» أصبح بيننا الآن سيكون الإرث الحقيقيُّ الذي يتركه الفلاح لأبنائه إرثاً رمزيَّاً، أخلاقيَّاً، يتعلّق بعلم البيئة والوراثة، كما يصرُّ «جيروم باندي»، وهو يحذِّرنا بقوله:

- «إنْ لم نتصرَّف بالسرعة اللّازمة، سوف لن يكون لدينا الوقت للتصرف أبداً فيما بعد!(1)»

لا يتعلّق الأمر هنا بوقف البحث، فما من قانون يستطيع أن يحدِّد المعرفة، ولكنَّني، مثل المدير العام لليونسكو «فريدريكومايور» مقتنع بأنَّ السيَّارة يجب أن تزيد من قوَّة الضوء عندها كلّما أسرعت!

أفكِّر بنعجة «دولي»، وبقصَّة النعجتين الضائعتين. لقد ولدت «دولي الحلوة» بشهر [شباط ـ 1997] على إثر [277] انتقال جنيني. هي ابنة وأخت لأمِّها! وإنَّني لأتساءل ما إذا كان عليَّ أن أغيِّر مجدَّداً قصَّة المثل الذي ضربه لنا «المخلِّص»، في اليوم الذي سيكون فيه عرضة للاستنساخ بدوره، هو الآخر!

سوف تقف الثقافة والأخلاق والسياسة، وبالتالي الديموقراطيَّة نفسها في معارضة «مافيا» الاستنساخ الاحتماليِّ، وهذا ما يجب أن يحدث، لأنَّ هذا المشروع يتعلّق بالبشريَّة كلّها، ويضعها في خطر داهم!

إنَّ المجتمع لن يكون مجتمعاً حيويَّاً إن لم يكن تعدُّديَّاً يقبل الاختلاف. هنا يكمن التطابق التام والديكتاتوريَّة والعنف والفوضى التي سوف لن تكون بعيدة أبداً.

---

(1) Jérome Bindé, «Pour une éthique du futur», dans Le Figaro, 8 décembre 1997. Jérome Bindé est directeur de l'unité d' analyse et de prevision à I'Unesco.

جيروم باندي: «من أخلاقيَّة للمستقبل» ـ في جريدة «الفيغارو» بتاريخ [8 كانون الأول 1997]. وجيروم باندي هو مدير وحدة التحليل والرصد في «اليونسكو».

إنَّ «دوار المزدوج» على حدِّ تعبير «دومينيك كينيو» القويِّ يدخلنا بسهولة في أزمة الحدود، ويضع القناعة الأساسيَّة بتفرُّد كلِّ إنسان موضع التساؤل.

هذه الرغبة بمعرفة الذات أكثر فأكثر هي ما تتطلَّبه اللَّحظة الراهنة. أتجرأ بصعوبة أن أسميِّها اللَّحظة «الروحيَّة»، لأنَّني أقيس غموض الكلمة، وما تحمله من مخاطر وهميَّة على المفهوم الدينيِّ الشديد الضيق! هنا أريد أن أشير إلى بعض الأشياء الأكثر اتِّساعاً، وهي أشياء تشبه العطش لمعرفة الـ «فيما وراء»، وهي أشياء أيضاً تطالب بما هو «سام» يتجاوز ما حوله، ويهدم، وإلى الأبد، الجدار القائم بين المؤمنين والَّلا مؤمنين، بين الديانات والعلمانيَّات على اختلاف أشكالها.

هي الحرب إذن! ونحن نعلم هذا جيداً! هي حرب صامتة، غير مرئيَّة، معقَّمة. حرب كان الخيال نفسه قد تحوَّل فيها إلى بضاعة. وهي حرب أيضاً ألقت بالملايين في البؤس والألم والكوارث، حرب قادها بشر دونما وجوه، وأهداف مجهولة! كتب «موريس بيلّلي» بهذا الصدد يقول:

- «لا نستطيع اليوم الحكم على ما حدث فعلاً، ولكنَّ الحصيلة لا تقبل الشكَّ والريبة، وهي ما تعانيه البشريَّة اليوم من مآسي البارحة وجرائمها التي لا تُحصى[1]».

هذا المجتمع الذي جعل كلَّ شيء حوله تعبيراً عن «الاقتصاد» وانعكاساً له لا ينتظر شيئاً من المسيحية، ولا من العلمانية أيضاً.

(1) Mourice Bellet, L'Europe au- delà d'elle-même, Paris, 1996, p. 49.
موريس بيلّلي: «أوروبا خلف ذاتها». ـ باريس 1996 ـ ص49.

لنكن واضحين حول هذه النقطة. إنّه مجتمع معقّد ونصفي، وهو يتقدّم إلى الأمام، وما توازنه سوى السير دون توقُّف، إنَّ توقُّفه يعني سقوطه بكلٍّ بساطة.

نعم، نحن نهين أنفسنا، وننادي على الأخلاق كي تنقذنا وتخرجنا من الهوّة التي وقعنا فيها، وكي تدلّنا على الحدود التي يجب ألاّ نتجاوزها.

ولكنَّ الأخلاق لا تستطيع فعل الكثير لنا إذا لم تذهب حتّى النهاية، أعني إلى ما هو «مقدّس»، وإلى الطريقة نفسها التي نوجد فيها، وإذا لم نطالب بحزم بالعنصر الأكثر ضعفاً وهشاشة في الكائن البشريّ. هنا يجب أن نتكلّم عن الروحانيّة، وعن «المسيرة البيضاء» التي جرت في «بروكسل» بتاريخ [20 شباط من عام 1996]، وهي المسيرة التي كادت أن تُنسى، ومع ذلك فقد ظلّت ماثلة في أذهاننا إلى اليوم.

يجب أن ننظر أحياناً إلى اليأس والكآبة في عيون البشر الذين اختاروا الوقوف والانزواء جانباً، وهو انزواء علينا ألاّ نستهين به، لأنَّ العاطفة، على الرغم من التردُّد والغموض، تؤكّد على الحاجة المرعبة لما أسميه «الكلام»!

لقد ذهب الروائيُّ «جان سيليفان» إلى حدِّ القول بأنّها حاجة مرعبة «للقصيدة» إذا ما أردنا أن نفهم من خلال قوله لا الشعر فحسب، بل النفس والتوجُّه، أن نفهم أيضاً الحلم والصحو والأسطورة.. باختصار، أن نفهم الزاد الذي لا غنى عنه في الساعة التي ننوي فيها العبور، لأنّنا مبحرون.

كما يردِّد «بيلّي» على الدوام، وكما كتب أدولف جيسشي: ـ «إذا لم نكن قادرين على أن نبعث الحياة في «أوروبا» والعالم، ما الذي نفعله في هذه الساعة؟ هناك غيرنا من يريد فعل ذلك. إنَّ الاندماج مع الوجوه المختلفة، مع العلم، والبهرجة الدينيَّة، أخذ لنفسه المكان الذي طالما أعلنتم أنَّه بلا جدوى، بل أنَّه مكان مستحيل الوصول إليه[1]».

في الواقع إنَّ هذا «الكلام» يعني الكثير للذين يبحثون عن طرق الهروب، والعبور إلى عالم آخر، غير هذا العالم البائس، التائه، الذي يدعو للقرف والغثيان..!

(1) Adolphe Gesché, «Eloge de la théologie», dans Revue théologique de Louvain, 27, 1996, pp. 166-167.
أدولف جيسشي: «إطراء اللّاهوت»، في المجلة اللّاهوتيَّة لمدينة «الوفان» ـ عام 1996، ص166 – 167.

موقفان مفرطان في التطرُّف

ألا تشعرون بأنَّنا في هذه اللَّحظة على الحدود الفاصلة بين موقفين مفرطين في التطرُّف، أحدهما يدعو إلى الإيمان المطلق دونما تساؤل، والآخر يرفض دون نقاش كلَّ ما هو دينيٍّ دون استثناء مذهب أو طائفة؟

- لِمَ هذا العنف الذي نشهده الآن؟ وهو عنف ليس اقتصاديّاً أو سياسيّاً فحسب، بل هو عنف ديني بامتياز!

هو عنف ليس بعيداً عنّا، إنَّه ليس في إفريقيا أو الشرق الأدنى أو كشمير، لا، هو في بلادنا نحن، نحن الذين نقتل بعضنا باسم «الله»!!

من السهولة بمكان استنتاج تأويلات وتفاسير ذات طبيعة اجتماعيَّة - سياسيَّة أو تاريخيَّة لما يحدث، ومن الطبيعيِّ أن نفهم أنَّ هذه التأويلات والتفاسير تلعب دورها الكبير في فهم الاضطهاد والقمع والاستعمار كعوامل رئيسيَّة للعنف! ولكن «الله»، «الله» الذي نحبُّه، ما الذي يفعله في هذه القضيَّة؟

ما الذي «ورَّطه» في حرب لا علاقة له بها أبداً؟

أيمكن أن يكون هو أيضاً إلهاً متعصِّباً؟ لا أعتقد أنه يمكن أن يكون كذلك! ولكنَّ «فكرة الله»، والكلام الذي يدور حوله، والأفكار التي تتناقض وتتزاحم على بوَّابة السماء يمكن أن تكون كذلك، كما يمكن لها أن تدعو للقتل والجريمة!

هنا يخطر لي ملاحظة نبّه إليها الأستاذ «جيسشي» بقوله:

- يقبع داخل كلٍّ واحد منّا إله مظلم، قادم من الجحيم، يخبئ في أعماقه عنفاً عريقاً، ضارباً في القدم، وهو إله علينا أن نقهره، وأن نقاتله كما نقاتل تنّيناً يريد أن يفرض علينا دينه: هذا الدين هو الذي يزرع الأرض ببذور الخوف والرعب والهلع في اللّا وعيِّ البشريِّ، ويضع البشر في مواجهة بعضهم عبر عداء لا ينتهي إلاّ بالقتل والدم[1].

إنَّ الحرب المقدَّسة ليست وليدة اليوم، وإله الجحيم هذا ليس من صنع الحاضر. كم من إله للحرب يطلُّ علينا بوجهه البشع من صفحات الكتاب المقدَّس وهو يقود الجنود لحرب لا معنى لها؟ كم من فصول تدعو للحرب والقتال وسحق «الكفّار» في هذا الكتاب؟

حتّى «الإنجيل» لم يخل من كلمات قاسية عندما ينشد الصلوات المؤلمة، ويتلو اللّعنات على أعداء «الله». إنَّ الشكل الأدبيَّ الذي جاءت به صفحات «الإنجيل» لا تبرِّر الدعوة لهذه اللّعنات، إذ نجد في قلب الديانات، وخاصَّة الديانات التي تدعو لوحدانيَّة «الله» عدائيَّة مرعبة، وغروراً يبعث على القشعريرة والخوف.

ما الذي يعنيه حصر «ملكية الله» بيد طائفة أو جماعة، على امتداد تاريخ طويل للدين مرَّت به البشرية؟

يجيب على هذا السؤال رعاة الدين وأعمدته بأنّه سؤال يدعو إلى الانحراف والخروج من دائرة الإيمان، وهو شكل من أشكال الخيانة، وطمس «الحقائق» التي يعمل الدين على كشفها!

أيَّة «حقائق» تلك التي يعمل الدين على كشفها؟

---

(1) المصدر نفسه.

ألا يتوجب علينا أن نبحث في أعماق الدين عن شروح لكلٍّ ما حدث ويحدث بسبب هذه «الحقائق»؟

ألا نعترف مع «بول ريكير» بأنَّ في الديانات نفسها، وداخل جوهرها العميق، وفي الرسائل التي جاءت بها هناك كلام يتجاوز الحقائق وأشباهها، وادِّعاءات متغطرسة تفرض نفسها بالقوَّة على البشر[1].

ولكنَّ هذا الكلام لم يقل كلَّ شيء حول الديانات: لم ينظر إليها سوى من زواياها المظلمة، دون أن يفتح النافذة على الجانب الآخر لتلك «الحقائق» التي جاءت بها، وهو جانب يكشف السعادة الداخلية للفرد، والغبطة التي تشعر بها الجماعة من خلال إيمانها.

لم يشر هذا القول إلى العدالة والجمال والإحسان وهي مفردات تضيء في الكتب المقدَّسة عبر التاريخ. لم يتحدَّث «ريكير» عن البطولة التي تصل إلى حدِّ القداسة من خلال الإيمان..

علينا أن نجيب على هذه التساؤلات، وأن نتعلَّم كيف ننطق الكلام القاسي بلهجة لطيفة سمحة.

علينا أن نتعلَّم كيف نتعامل بصفاء ومحبَّة، مع الكلام الذي نسمعه وهو يحطِّم زجاج الغرفة التي نجلس فيها عندما نريد أن نتداول مسائلنا الروحيَّة!

---

(1) Paul Ricoeur, dans un entretien avec Hans Kung, diffuse sur Arte le 5 avril 1996.

«بول ريكير»: في حوار مع «هانغ كينغ، أذيع في برنامج «فن» بتاريخ [5 نيسان ـ عام 1996].»

علينا أن نتفاهم مع الكلام الذي يأتي إلينا من البعيد، وهو كلام ليس كالذي نسمعه في السلوى والعزاء! ذلك لأنَّ الدين لم يأت كي يقدِّم لنا راحة الضمير، ولا أن يشفينا من القلق والاضطراب ـ: «إنَّ للدين رسالة واضحة، وهي أن يضع الإنسان في «حيرة» من أمره، بالمعنى الرائع لكلمة «حيرة»، وأن يساعده في الوقوف على قدميه، يقظاً، منفتحاً على العالم، وهي «رسالة تعمل ضدَّ نفسها» على حدِّ تعبير «ريكير»، وتناضل ضدَّ مبادئها الجوهريَّة! هي ذي الدعوة والرهان: أن نحذر من الحشد والتعبئة ضدَّ بعضنا والابتعاد عن الإيمان المطلق دونما تساؤل، ورفض كلِّ ما هو ديني بآن واحد، والبحث في إيماننا الخاصِّ بنا، في أعماق قناعاتنا الذاتيَّة ما يمكن أن يكسر لحظة العنف لهذه القناعات[1].

تمثِّل القناعة المطلقة عنفاً صامتاً يهدِّد كلَّ من حوله، ولكنَّ القناعة النسبيَّة، هي الأخرى، شكل من أشكال الغموض والإبهام.

في مواجهة ما يبدو رفضاً عامَّاً «للاعتقاد» يظلُّ التردُّد قاسماً مشتركاً بين الأوضاع التي تتساوى، والتي لا نأخذ فيها موقفاً محدَّداً.

لنستمع إذن إلى المشعوذين في سوق الإيمان الجديد. إنَّه المهدئ لجميع اختلاطات الأيديولوجيات الكونيَّة في هذا السوق الذي أصبحت فيه عقائدنا قابلة للتبادل، وأصبحنا ننظر بعين الريبة والشكِّ لكلِّ من لا يجدِّد حكمته الغرائبيَّة... إنني أحبُّ أن أسمع بهذا الصدد

---

(1) Daniéle Hervieu-Léger, «Situation du christianisme dans le nouveau context socio-culturel en France», dans Documents épiscopat n4, mars 1990, p. 3.

«دانييل إيرفيو ليجير»: وضع المسيحيَّة في السياق الجديد الاجتماعيِّ الثقافيِّ في «فرنسا» ـ وثائق الأسقفية رقم [4]. [آذار 1990]، ص3.

الصيغة الصادمة التي أعلنها اللّاهوتيُّ الأرثوذوكسيُّ «أوليفيه كليمو» بقوله:

- «لا يمكن للإنسان أن ينقذ نفسه بالتفسُّخ والانحلال»!

لا أخفي أنَّ هذه المحاولة للتوفيقيَّة وإصلاح ذات البين تقلقني مثلها مثل التعصُّب، لأنَّها تقود إلى اللّا مبالاة في نهاية الأمر، أعني اللّامبالاة تِّجاه الآخر.

أأكون قاسياً مع «السواحة الروحيَّة»[1] التي طالما شهدناها تأخذ أشكالاً مختلفة في التطبيق والممارسة؟

ألا يكون من الأفضل أن نحاول فهماً أشمل لمن يرفض الانتماء إلى دوائرنا الدينيَّة، في الوقت الذي يمكن أن يكون فيه «لاعباً» هامّاً في سوق تجارة الدين؟

قد يهمس أحد علماء الدين الاجتماعيين في أذنيَّ أنَّه من أجل إعادة تركيب الفهم الدينيِّ، ومن أجل إيجاد وتلاحم جديد، ووحدة داخلية في عالم تسوده الظلمة وسراب الخيال، ألا يكون من الأفضل لنا أن نختار المعنى الذي يلائمنا من بين مئات المعاني المطروحة أمامنا؟

إنَّ اختزال الحقل الدينيِّ المعاصر في المواجهة بين موقفين مفرطين للغاية لا يأخذ بالاعتبار الحقيقة الأكثر تعقيداً وتنوُّعاً في الفكر البشريِّ، ذلك لأنَّنا إذا اعتبرنا أنَّ بإمكان هذين الاتِّجاهين الأساسين أن يغطيا تقارباً يدعو للقلق بين الطائفيَّة، والتعصُّب العقائديِّ،

---

(1) أقول «السواحة» غير فصيحة لا السياحة لأنَّني أعتقد أنَّ الكاتب يريد أن يشير إلى حالة الصوفيَّة وهم «يسيحيون» في الأرض كما ورد عنهم في الكتب والأسفار - المترجم -.

والنزعات المختلفة لكلِّ ما يُطْرحُ، سوف يظلُّ الكثير ممَّا يجب الإشارة إليه، لأنَّ عصرنا هذا عرف البحث الروحيَّ ذا النوعية النادرة، في الوقت الذي بدأ فيه الإنجيل يتراجع أمام العمق الروحيِّ الذي لم نر له مثيلاً من قبل.

ولكي أتشبَّث بالروحانيَّة المسيحيَّة، وبالديانات الأخرى أيضاً، أي بالروحانيَّة الكونيَّة في أعماق البشر التي تنبض في قلوبهم، مثلها مثل العلمانيَّة، كان لي أن أرى كيف أنَّها بدأت تعيد مجراها إلى ينابيعها الحيَّة، خاصَّة إلى «الكتابات»، وذلك في إقطاعيَّة المجمع الدينيِّ «للفاتيكان».

هل يمكن لنا أن نقيس الدرجة التي استطاع فيها المسيحيُّون، في بضع سنوات، تعميق الذاكرة والحياة الداخلية، والعمل على إرساء قواعد الأخوَّة والمحبَّة: تعميق الذاكرة كاستثمار للنصوص المؤسِّسة وقراءة للوجود! الحياة الداخليَّة كاكتشاف جديد للبعد الروحيِّ، بعيداً عن الهبَّة اللَّدنيَّة! أمَّا إرساء قواعد الأخوَّة والمحبَّة فكانت مثل همَّ الالتزام، والإرادة في تغيير العلاقات الاجتماعيَّة، بمعنى آخر كما قال «كلود فليبو» حول التجربة الثلاثيَّة تجربةً [للكلمة، والفكر، والمشاركة[1]]!

(1) Claude Flipo, «Un nouveau climat spirituel», dans Christus n 174, pp. 5 – 8.

«كلود فليبو»: وسط روحي جديد، مجلة «كريستيس» العدد رقم 174 ـ الصفحة 5 – 8.

المواعيد الثلاثة

التحدّي الكبير الذي يواجه كلّ واحد منّا هو أن يتجاوز نفسه، وأن يذهب إلى أبعد منها!

هذا يعني أن يستقبل السماء التي تسكنه، وأن يعيش مرّة أخرى الحريّة التي تلتهب بين ضلوعه، وأن يقف بكلّ شموخ الإنسان أمام التحدّيات، والآلام التي يكتظ العالم بها! يعني أن يجد المنزل الذي لا يمكن لأحد أن يجتاحه، أو أن يدخله دون موافقة ورضى ساكنيه!

هذا ما أقترحه على المسيحيين والعلمانيين، وهذا ما عليهم أن يفعلوه عبر لقاءات روحيَّة، يحتفظ كلُّ واحد منهم بذاكرته وتقليده الخاص.

يبدو لي من الضروريّ في لحظة ما أن يعود البشر إلى المؤسَّسات، بما فيها الكنائس، للبحث عن معنى لوجودهم، والحوار مجدَّداً معها! ولكنَّني أعتقد أنَّه لا فائدة من كلِّ هذا إذا لم يقرِّر الأفراد والجماعات أن يفرضوا الحداثة على هذه المؤسَّسات بالدرجة الأولى. لقد قدَّمت الحداثة لنا الشيء الكثير، ومن سوء النيَّة أن ننكر هذه الحقيقة: هل نستطيع فعلاً أن نلغي العلم، وأن نمحو الديمقراطية من قاموس السياسة، أن نندم على ما حقَّقته البشريَّة من تقدُّم وازدهار؟

أيمكن أن نتجاهل صوت الحريَّة المدوّي، وأن نغضَّ الطرف عن حقوق الإنسان، والكفاح المستمرِّ إلى اليوم ضدَّ ظلاميَّة وانغلاق «الإكليروس»؟

هذه الحداثة المُكتَسبة ثمرة جهد طويل قام به الإنسان منذ أن رأى النور، وهي عمل مبارك وسعيد!

بيد أنَّها اليوم تبدو وكأنَّها بدأت تشيخ وتهرم، وبدأت علامات التعب والضنى تظهر على وجهها الجميل، ولا بدَّ في هذه الحالة من عمل شيء، أي أن اللَّحظة المناسبة اليوم تستلزم منَّا أن نذهب بها إلى مكان أبعد، وأن نعيد النظر فيها من داخلها، وهنا أتجرأ أن أتكلَّم عن «الروحانيَّة»، وهي روحانيَّة في [قلب الـ...]، لا خارجها!

أعتقد جازماً أنَّ المسألة الروحيَّة هي التي سوف تشغلنا في القرن الحادي والعشرين الذي بدأ للتوِّ، ولكنَّها ليست الروحيَّة بمعناها التقليديِّ الذي شهدناه من قبل، ولا بمعنى «العودة» إلى الدين بشكله الذي يضجرنا بتكرار أقواله، ومحاولته البائسة بإخفاء الحقيقة الناصعة التي يريد أن يطمسها، وهي أنَّ موكب العلمانيَّة قد مرَّ من هنا، وأنَّه شاهده بأم عينيه اللَّتين يريد أن يغمضهما دونما جدوى!

إنَّ الرهان لا يتعلَّق الآن بإعادة تدشين نظام أخلاقي، أو استعادة إرث قديم. وإذا ما فكر أحد بهذا فهو على طريق التيه والضلالة. إنَّني أعرف، ويا للأسف، ما يتضمَّنه الدين اليوم للإنسان أكثر من ذي قبل، ولكن «العملة» السيئة تطرد العملة السليمة، فالحداثة العديمة الفائدة تقود البشر المُتعبين، وحتَّى «العلماء الحقيقيين» منهم لتغيير مسارهم، والعودة بهم إلى طوائف خطرة تقودهم إلى جغرافيا الظلام.

- أيحدث هذا عن طريق الصدفة، حيث ينقلب الإيمان على الوعيِ في معركة تردُّ الاعتبار والأهليَّة للذكاء، وبالتالي يأخذ الذكاء شكل العقيدة؟

لا أتكلّم هنا عن ذكاء خاص بالمثقّفين، لأنّني لم أتّخذ يوماً هذا الموقف المزيَّف المُفتعل بين ذكاء المثقّفين وذكاء العمّال، إذ أنَّ الأمر في الحالتين يتعلّق بالعمل، والقراءة من الداخل!

نحن بحاجة إلى جميع أنواع الذكاء كي نستطيع من جديد أن نستفيد من النقاش القديم حول ذكاء كان يدور بين الوعيِّ والقوى الغيبيَّة الساميَّة في العقل البشريِّ، نقاش لا نقوم به في غرف مغلقة أو عبر حوارات تجريديَّة غير مفهومة، بل نقاش يدور حول المسائل الأساسيَّة في حياتنا كالثقافة والتضامن والمسؤوليَّة، ذلك لأنَّه من خلال هذه النقاشات حول المدارس، وتوجُّه العلم، واحترام البيئة والضمان الاجتماعيِّ، وعمل المؤسَّسات.. الخ، سوف لن يتوقَّف السؤال الرئيس عن الترداد في كلِّ مناسبة:

- ما الذي سأكونه، سأصير إليه في هذا المجتمع، الذي ينتج الآن ثلاثة أضعاف مَا كان ينتج منذ عدَّة سنوات، هذا مع توفير30٪ من اليد العاملة؟!

هناك مواعيد كثيرة تنتظر على بوابَّة القرن الجديد: التبادل الذي سيتمُّ بين المسيحيين أنفسهم، واللّقاء بين الديانات المختلفة.. وربما يمكن أن نضيف الجدل قد ينفجر داخل العائلة العلمانيَّة.

هذه الحوارات ستكون بطيئة مختلفة، ولكنَّها أكيدة! وإنّني لأعتقد، بكلِّ صدق وأمانة، أنّه لن يكون هناك سلام في العالم إذا لم يحلّ السلام بين الديانات هذه أولاً. ولكنّني أضيف أيضاً بأنَّ السلام بين الديانات يتطلَّب المؤازرة والعون الفعَّال من هؤلاء الذين لا دين لهم، أعني أنَّ النقاش الذي يدور بين المسيحيين يجب ألاَّ يهمل الآخر: اليهوديَّ والمسلم والشرقيَّ، وأنَّ الحوار الدائر بين المؤمنين من مختلف الديانات يجب ألاَّ يلغي الآخر أيضاً: من لا يؤمن بالدين عامَّة!

لا أحبُّ استخدام أداة الاستثناء «بلا» في الكتابة، لأنَّها تلغي ما بعدها، وهي تعبِّر عن الغياب والحرمان والاستبعاد أيضاً: نقول مثلاً «بلا» قلب، بلا عمل، بلا ضمير، بلا دين.. إنَّني لست متحمِّساً أكثر لاستخدام المفردة «دون»، كأن أقول دون دين مثلاً، ولكن كيف لي أن أعبِّر بكلمة واحدة، كلمة إيجابيَّة واحدة عن إيمان الذين اختاروا طريقاً آخر لحياتهم الروحيَّة؟

إنَّ القناعة التي تسكن هذا الكتاب يمكن لها أن تُصَاغ بالطريقة التالية: التبادل الفكريُّ بين العقائد المسيحيَّة والديانات ستظلُّ، مهما كانت غنيَّة ونشطة، مجرَّد تصفُّح ومرور بسيط إذا لم يتبعها موعد آخر يتقاسم فيه الذين يؤمنون بالسماء المجاورة، والذين لا يؤمنون سوى بأنفسهم خبز القناعات والتطلُّعات الروحيَّة!

في هذه الحوارات القائمة بين المسيحيين والعلمانيين، وخاصَّة الحوارات حول وعيِّ التاريخ والذاكرة المشْتَركة هناك محاولة جادَّة للانفتاح نحو الآخر، ومحاولة مُشْتَركة أيضاً لابتكار معنى جديد للتشظي الذي سوف يحدث في هذه الحوارات، وهو معنى تنفرد به العقول النيِّرة من كلا الجانبين يضفي على المستقبل عنواناً جديداً يتصدَّر الصحف اليوميَّة..

المعابر الثلاثة

أؤمن تماماً أنّني أثير هنا قضيَّة أحبولة، وأسير في طريق ملأى بالنجاح والمكائد!

بلى، هي طريق تمثّل لي الاختيار والحجَّة، وتضفي في موقع عليَّ أن أجيب فيه كشاهد، على أسئلة لا نهاية لها، خاصَّة حين أسمع شعاراً يردِّده علماني بقوله «إنَّ المؤمن لا يمكن أن يكون مؤمناً إذا لم يكن متعصباً لإيمانه بشكل مطلق»!

هي صيغة رائعة بحدِّ ذاتها! ولكنَّها صيغة مضرَّة، وقد تسيء كثيراً لمن حولها في الوقت نفسه!

كنت قد اكتشفت ضرر هذه الصيغة ذات يوم، في تصريح رئيس أساقفة «بولونيا»، الكاردينال «بيفّي» حين يقول خلال مؤتمر حول العلاقات بين المؤمنين وغيرهم:

- «يشبه حواركم هذا ما يقوم به أعمى منذ الولادة مع آخر يرى بكلِّ وضوح الألوان الزاهية جميعها أمامه»! يقول هذا بكلِّ ارتياح وسخريَّة!

لا تسألوني إذن أن أختار بين «كاردينال والتون» وعلماني قصير النظر، بليد الذهن، إذ أنّكم تعرفون سلفاً أنّه اختيار لن يذهب أبعد من باب الصالة التي تمَّ فيها هذا المؤتمر العتيد!

إنَّ المسيرة التي أقترحها عليكم في الصفحات القادمة ستكون معتدلة، متحفِّظة بطرحها في الفصل الأول، مع سرعة في هذا الطرح الذي يحاول أن يجتاز «مغامرة» النقاش، لإيماني بأنَّ النموَّ الطبيعيَّ لفهم الآخر يرتكز على محاولة العبور من خلال الكلمات للوصول إلى الهدف من الحوار نفسه.

في الفصل الثاني سوف أدعو الجميع إلى مائدة «العلمانيَّة» وهي دعوة لا تدِّعي أنَّها ذاتيَّة بما فيه الكفاية في الطرح، ومع هذا فهي اكتشاف مسيحي ينتظر موكب الفضائل العلمانيَّة هذه، ويطالب بحريَّته الخاصَّة في التفكير.

هناك مخاطرة أنبِّه إليها في الفصل الثالث، وهي قراءة «الإنجيل» مرَّة ثانية، وعبور المسيحيَّة من خلال الكلمات، وقول ما هو أساس، وذلك باتِّباع الطرق الشائكة، دون أن ننسى التأكيد على قناعة ثابتة: يترتَّب على «الأناجيل» التي تتكلَّم باسم «المسيح» أن تظهر للعيان بصورة منفردة هذه المرَّة.

لا يتضمَّن الفصل الرابع أطروحات مستحيلة، بل إيماناً بمستقبل «اليوتوبيا»، أعني بتغيير المكان، وهو يضع المسيحيين والعلمانيين معاً في صف واحد أمام البحر، يضعهم جنباً إلى جنب مع بعضهم، لا الواحد في مواجهة الآخر، ويقترح عليهم أن يلقوا بأنفسهم في الماء، ذلك مع اعتقادي أنَّ رجال السياسة سوف يبحثون عن مخرج لهم، ويلتمسون درباً ضيِّقاً للروحانيَّة التي يفهمونها، والتي تتناسب مع مصالحهم الخاصَّة.

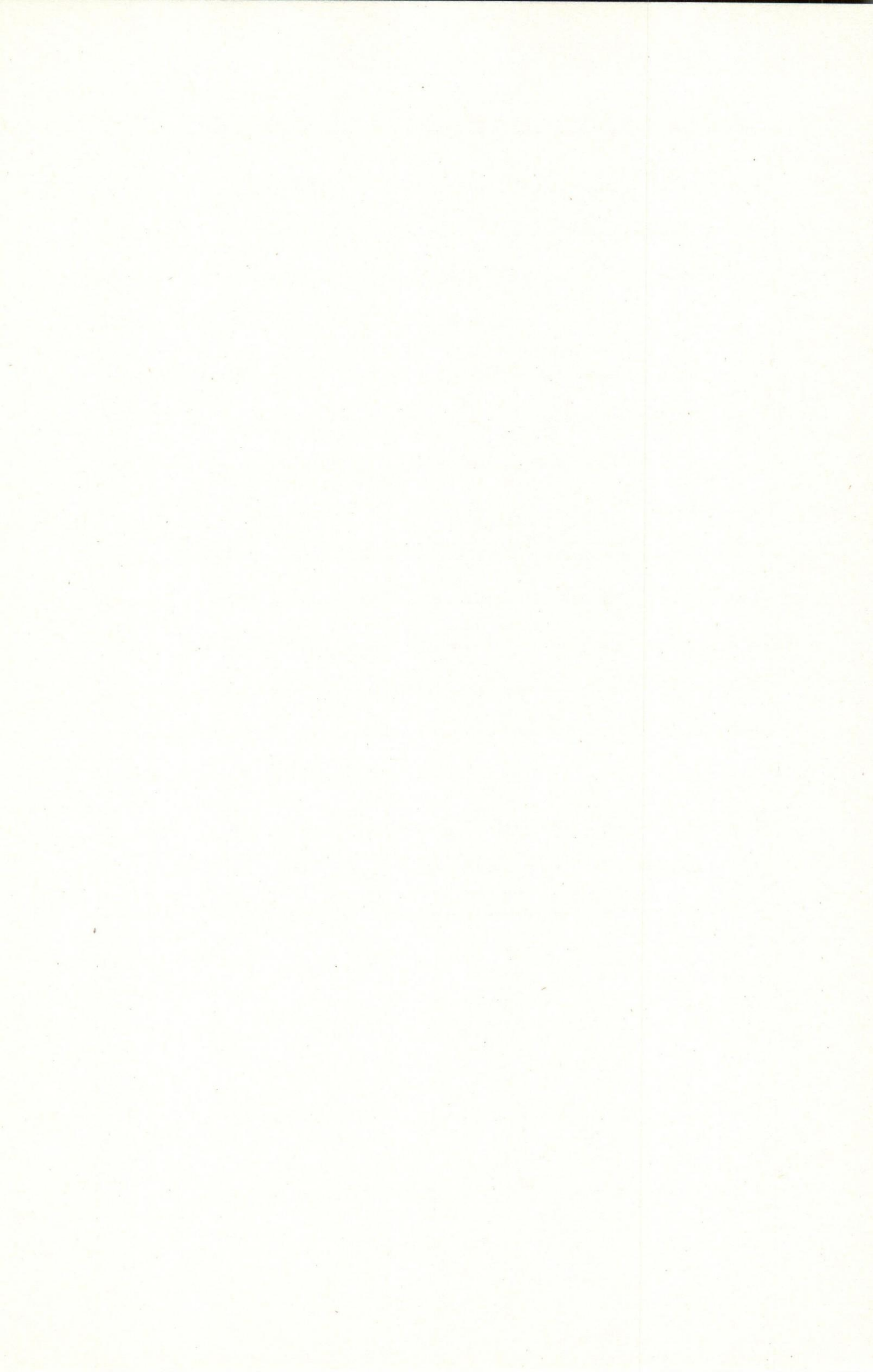
في الفصل الأخير، أعني في خاتمة الكتاب لا أطرح حلاًّ للمسائل المعقَّدة، بل أشير إلى الحاجة والعوز والفاقة، إذ أنَّ هذا الكتاب،

بطريقة أو بأخرى، يدعو إلى نزع «ملكية الله» من جميع الذين يدّعون أنّهم حرّاس الدين وبوّابات السماء: إنّ الإنسان كائن كبير بذاته، والوعيُّ الذي يمتلكه وعي رائع يستطيع به أن يستدلّ على طريقه عبر قناعاته الحارّة، المشوبة بكلِّ أنواع الإيمان.

هذا ما يتعلّق بترتيب الكتاب! ولكنّه ليس الأساس في الموضوع! إنّ الأساسيّ هو في قراءة ما بين السطور، في بياض النصِّ الذي نراه على الصفحات، والدعوة إلى عبورها بتمهُّل وحذر.

أخيراً، لا يعد الكتاب هذا بدخول آمن للأرض الموعودة، ولا يضمن العودة إلى الجنّة الضائعة، بل يقترح علينا كسر الحواجز الجامدة للمنطق، وتجاوز الذهنيّة السياسيّة التي تختبئ في زوايا العقل المظلمة. إذن، هو كتاب يتطلّب انفتاحاً لا أتردّد بتسميته «انفتاح يدعو للدوار» بيد أنّني مقتنع بأنّنا لا نملك الخيار في هذه المسألة، فهي تتعلّق بمستقبلنا جميعاً، نحن المسكونون بأفكار خارجة عنّا، وهي تتحكّم بنا دون أن نفعل شيئاً إزاءها.

لقد آن الأوان كي نقف متّحدين أمام أسوار الفكر الجامد في جميع أشكاله، والعمل على دكّها وهدمها إلى الأبد، كي نبني قلعة جديدة للإنسان الجديد، وهو يحمل بيده راية الحريّة في الفكر والعمل والعقيدة!

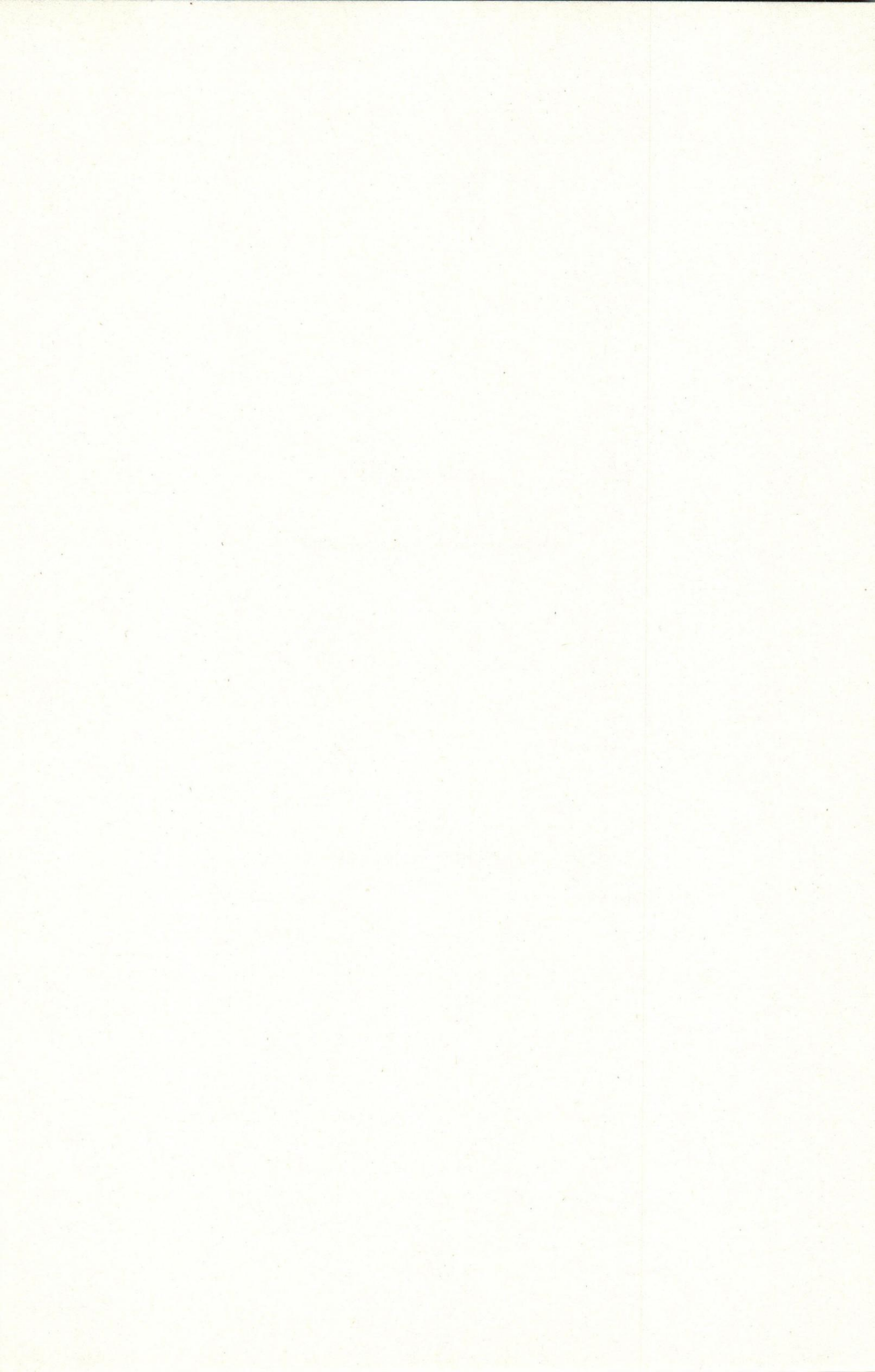


الفصل الأول

تجـــاوز الكلمـــات

لا. أنا لست هو، أنا صوته الصارخ في البريَّة -

يوحنَّا المعمدان



1 ـ بسرعة، اصنع الحلوى!

على بعد ثلاثة أمتار تقريباً في الشمال الشرقي لـ «جبرون» تقع «ممرا»، وهي عبارة عن حرم يُعْدّ من أهمِّ معابد «فلسطين».

في نهاية القرن الرابع كتب «سوزومين» المولود في «بيتليا» القريبة من «غزة» أنَّه كان يأتي في كلِّ صيف مجموعات من البشر على مختلف أعراقهم [فلسطينيُّون، فينيقيُّون، عرب، يهود، وثنيُّون، مسيحيون..] كي يحييوا أعيادهم تحت شجرة البلُّوط، حيث تراءى ابن الله «لابراهام» آنذاك!

يأتي «اليهود» كي يمجِّدوا «إبراهيم»، أب الشعب اليهوديِّ، ويأتي الوثنيُّون كي يباركوا الملائكة الذين ظهروا في هذه البقعة من الأرض، بينما يأتي المسيحيُّون لأنَّ المنقذ المخلِّص الفادي ظهر على الأرض!

يروي سفر التكوين أنَّه بالقرب من سنديان «مامبريه» كان «أبراهام» جالساً أمام خيمته حين مثل أمامه ثلاثة رجال واقفين!

ـ أهو يحلم؟

ـ أفي هذه الساعة من القيظ يأتي الزوَّار، وكيف؟ ولكنَّه سرعان ما نهض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد على الأرض وقال:

ـ «يا سيِّد إنْ كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك لِيُؤْخذ قليل من الماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة فآخذ

كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون، لأنَّكم قد مررتم على عبدكم فقالوا هكذا تفعل كما تكلّمت.

فأسرع «إبراهيم» إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميداً اعجني واصنعي خبز ملّة ثم ركض «إبراهيم» إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيّداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثمَّ أخذ زبداً ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدَّامهم وإذ كان واقفاً لديهم تحت الشجرة وأكلوا وقالوا له أين سارة امرأتك، فقال ها هي في الخيمة، فقال إنّي أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون «لسارة» امرأتك ابن، وكانت «سارة» سامعة في باب الخيمة وهو وراءه، وكان «إبراهيم» و«سارة» شيخين متقدمين في الأيام، وقد انقطع أن يكون «لسارة» عادة كالنساء، فضحكت سارة في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعُّم وسيِّدي قد شاخ فقال الربُّ «لإبراهيم» لماذا ضحكت «سارة» قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت، هل يستحيل على الربِّ شيء في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون «لسارة» ابن فأنكرت «سارة» قائلة لم أضحك. لأنَّها خافت. فقال لا بل ضحكت[1].

- «فقالوا هكذا تفعل كما قلت»!

جملة ردَّدها الثلاثة الرجال الواقفين بصوت واحد، ذلك لأنَّ النصَّ يتنقل بخفَّة من المتكلّم بصوت المفرد إلى صوت الجماعة. إذن، كيف يمكن أنْ نفهم «إبراهيم» يحيِّي واحداً منهم فقط، وهو يتحدَّث مع الثلاثة الرجال الواقفين أمامه؟

(1) سفر التكوين 15 ـ 18.

هناك بعض المفسِّرين «اليهود» أشاروا إلى الملائكة «ميكائيل»، [هو كإله بينهم]، و«جبريل» [الله القويُّ]، و«رافائيل» [الله الشافي]، وأنَّ لكلٍّ واحد منهم مهمَّة تتوافق مع معنى اسمه: «ميكائيل» يقوم بمهمَّة إعلان ولادة «إسحق» لسارة، و«جبريل» جاء كي يدمِّر «سدوم»، أمَّا «رافائيل» فعمله يتلخَّص بشفاء «إبراهيم» من عملية «الختان» التي أجريت له. إنَّ «ميكائيل»، رئيس الملائكة هؤلاء كان واقفاً وسطهم، وإليه كان «إبراهيم» من حيث المبدأ يتوجَّه بالكلام والدعوة إلى الطعام.

من جهته لم يقف التقليد المسيحيُّ عند حدِّه، محروماً من الإلهام الذي رآه في زيارة هؤلاء الثلاثة، وهي الزيارة التي مثّلت له صورة جديدة حجبت فيها الشخصيَّة المركزيَّة الرجُلَيْن الآخَرَيْن، أو كما نظر إليها «أمبرواز دوميلاند» في كتابه شعائر المسيحيَّة، بأنَّها صورة لثلاثة نعبدهم كواحد فقط!

بعد عشرة أعوام أي سنة [1425] طرح الراهب «أندريه روبليف» حدساً غريباً، وهو تساؤل يدعو إلى التساؤل:

- كيف نصوِّر مادياً الثلاثيَّ المقدَّس في حين أنَّ تقليده يمنع رسم صورة الأب على أيقونة نرى فيها الملائكة الثلاثة الزائرين بالقرب من شجرة البلُّوط؟

إنَّ المساواة المثاليَّة بين الملائكة تبدو واضحة بكلِّ قوَّة، كما يؤكِّد اللاَّهوتيُّ «بول إفدوكيموف»، حيث لا نجد قاعدة يمكن أن تحدِّد الشخصية الإلهيَّة الماثلة في صورة كلِّ ملاك منهم».

في الوقت الذي اتَّجه فيه «أبراهام» إلى خيمته كي يقول «لسارة»:

- «اسرعي، وخذي ثلاثة مكاييل من الدقيق، واصنعي حلواك»، وجاء إلى الرجال الثلاثة بعجل حنيذ.. الخ. نشهد نصَّاً أدبيَّاً رائعاً،

وضيافة لا مثيل لها عند البدو. نقرأ في جملة واحدة كلَّ ما يلزمنا: الماء، الراحة، الخبز، الحليب، العجل الحنيذ، والسرعة أيضاً في تقديم الطعام للضيوف! اقرأوا جيداً هذا السفر، وستجدون أنَّ فعل ركض تردَّد خمس مرَّات في سبع من الآيات، وفعل «أسرعْ» ورد خمس مرَّات على لسان «إبراهيم»، وكأنَّ الضيافة عنده حاجة ماسَّة عليه أن يقوم بها دون تردُّد!

هذه الحاجة الماسَّة ما زالت قائمة إلى اليوم. هي حاجة للضيافة المُبْتكرة، وهي حاجة للحوار أيضاً. ولكن أيُّ حوار نقصده؟ إنَّ جميع الناس اليوم يدعون للحوار ويؤكِّدون على رغبتهم به، وهم يعلنون بصراحة ميلهم للانفتاح، وقدرتهم على الاستماع للآخر.

يكفي أن نفتح برامج التلفزيون مثلاً كي نشاهد آلاف الحلقات التي يناقش فيها البعض بعضهم، من أحزاب وحومات ومثقَّفين وعلماء.. الخ! وإنَّنا لنسمع الجميع يردِّدون بحماسة وشغف:

- ألسنا هنا كي نتحاور؟

إنَّني جاهز كي أسمعك وأتفهَّم موقفك!

اسمعني جيداً وستفهم أنَّني على حقٍّ حين أقول بأنَّ... والويل كلُّ الويل لمن «يرتدُّ» عن دين الحوار هذا!

لا أتكلَّم عن هذا الشكل من الحوار. لا بسبب احتقاري له، ولكن كي لا أخلط بين الرهان والمجازفة في الحوار مع الخطط التي عليَّ أن أنفِّذها من خلاله!

ربما أنَّه من الواضح أنَّ الحوار ليس نقاشاً بسيطاً. لا، ولا هو رفض للنقاش أيضاً، إذ أنَّه من المفيد حقَّاً أن نناقش، وأن نختلف، وأن نبرهن أنَّ النقاش قد يقودنا إلى حالة لا نخلط فيها الأشياء كما يفعلون في عالم السياسة مثلاً. إنَّ الحوار لا يقتصر على «منهجيَّة

الطرح» بل يتجاوزها إلى التربيَّة بالمعنى الذي نتكلَّم فيه عن المنهج نفسه، أو عن الحوار السقراطيِّ، المفيد جداًّ، والذي يساعد، بكل تأكيد، العالم كي يكتشف قوانين الفكر والعمل. ومع ذلك، يظلُّ هذا الحوار غير الحوار الذي نعنيه، والذي نريد أن نثيره في سياق الذهنيَّة التي تمَّ فيها بالقرب من شجرة البلُّوط في «ممرا»!

يقول «فولتير» في قاموسه الفلسفيِّ بأنَّ كلمة «اللُّوغوس» تعني في اللُّغة الإغريقيَّة «الكلام»، كما تعني أيضاً «الوعيُّ»!

وحين نتقدَّم قليلاً في فهمها نلتقي بـ «آلان» في كتابه «الهوى والحكمة» الذي يلاحظ فيه أنَّ اليونان معلِّمينا الأوائل، سمُّوا الحوار بـ «اللُّوغوس»، وأطلقوا عليه اسم «إدراك الإدراك». وحين جاء «يوحنَّا المعمدان» في فاتحته «بالكلمة» التي هي في البدء أصبحنا نقرأ مع الشاعر «جان كروسجان»: في البدء كانت اللُّغة[1].

بلى، إنَّ اللغة هي التي تصنع الإنسان، وهي تعيش معنا على الدوام.

إذن، يترتَّب علينا أن نتصرَّف بسرعة، أن نعبر الإدراك إلى الإدراك، وعندها سنجد أنفسنا بعيدين عن تقنية وحوار وتفاوض له شكل الصداقة في شكلها اللَّامبالي. إنَّ الحوار في هذه الروح التي نطرحها يفترض البداوة، والمنهج، والتوقُف، والاستقبال.. كلُّ ذلك كي يترك الكلام الحيُّ فسحة فيه لعبور كلام آخر، وهو ما سيقودنا حتماً إلى سنديان «مامبريه»، ويعلِّمنا كيف نقرأ مجدَّداً قوانين الضيافة.

---

(1)L'Evangile selon Jean. Nouvelle traduction de Jean Grosjean, Paris, 1988, pp. 11 – 12.

الإنجيل حسب «يوحنَّا» ترجمة جديدة ـ جان كروسجان ـ باريس 1988 ـ ص11 -12.

2ـ ضيافة خطرة:

كانت الضيافة في «اليونان» القديمة تشكّل نظاماً حقيقيّاً يستوجب تأمين السكن والطعام للضيوف أينما حلُّوا، هذا بالإضافة إلى الحماية التي على المُضِيْف أن يؤمِّنها للغرباء الأضياف.

كانت هذه الضيافة تتمُّ بين المدن والعائلات والأفراد على السواء، ولم يكن أحد يفكّر باختراق قوانينها، كما فعل «باريس» عندما اختطف «هيلين»، زوجة مضيفه الطروادي، وأخ ملك اليونان «آغا ممنون» وهي الحادثة التي أدّت إلى غزو «طروادة»، والقضاء عليها في مشهد من أروع تاريخ الشعر العالميِّ الذي سطره «هوميروس» في «الإلياذة والأوديسة» الخالدتين.

كانت الضيافة تتماشى مع الحياة اليوميّة للشعب، كتقليد يعكس طبيعته وطرق عيشه، وهو تقليد نسبي بين الأفراد الذين يختلفون في طبائعهم من حيث الكرم والمروءة، وهذه خاصّة تنطبق على الأفراد كما تنطبق على الشعوب أيضاً.

وحين جاءت الديانات أكّدت على روح الضيافة، ووسّعت من مفهومها العام، وأعطّته بعداً جديداً تمثّل في القصّة المصريّة المثيرة في القرن الرابع للميلاد!

على مدخل كهفه، كان الناسك يمسك بمزماره يتعبّد إله «أدونيس»، حين دخلت عليه فجأة امرأة بدويّة تشعُّ بالجمال والصبا.

وقفت أمامه، ولكنَّها تقدَّمت ثلاث خطوات منه دونما وجل أو اضطراب.

ولكنَّ الناسك الزاهد استمرَّ في مزموره خوفاً من غضب «الإله» عليه، عندها أزالت الشابَّة الخمار عن وجهها، وحلَّت الحزام، ورفعت ثوبها.. عندها صاح الناسك المتعبِّد:

- «توقَّفي»!

ولكن الفتاة بدت وكأنَّها لم تسمع شيئاً، وهي تنظر إليه بعينين سوداوين جامدتين، ثمَّ أنَّها أحاطت الناسك بذراعيها، فابتعد عنها، وزجرها قائلاً:

- «اجلسي»!

جلست الفتاة خجلة، فسألها الزاهد:

- أأنت مسيحيَّة؟ أجابته: «أجل، أنا مسيحيَّة»! حينئذ جاء صوت الناسك أشدَّ قسوة وهو يقول:

- ألا تعلمين إذن أنَّ ما تقومين به إحدى الخطايا التي توجب العقاب! أجابت الفتاة: «بلى أعلم ذلك»!

- إذن، استطرد الناسك: لِمَ تفعلين ذلك وأنت تعلمين أنَّه شر ماحق؟

أطرقت الفتاة برأسها إلى الأرض خجلة مرتبكة، ولكنَّها نظرت إليه نظرة استجداء قائلة:

- إنَّني جائعة!

كان لجوابها وقع مثير على نفس الناسك المتعبِّد، إذ شعر بالمرارة والحزن نحوها، فمدَّ يده إليها وقال بصوت حزين خافت:

- «اجلسي، لديَّ بعض الطعام!» ثمَّ أنَّه قدَّم لها تينة وتمرات كانت بحوزته سرعان ما التقطتها الفتاة وأخذت تأكل بشراهة ولهفة، لأنَّها لم تأكل منذ أيام، قال لها الناسك بعد أن انتهت من الأكل:

- «بدل أن تقومي بفعل ما قمت به، تعالي إليَّ يوميًّا وسأقدِّم لك ما عندي من طعام»!

ومن ذلك الحين كان الناسك المسكين يقتسم كلَّ ما لديه من طعام مع هذه البدويَّة طيلة الوقت الذي ظلَّت فيه بالقرب من كهفه!

فرض القدِّيس «بنوا» في كتابه الرائع «قواعد للمبتدئين» أشكالاً مختلفة للضيافة على البشريَّة أن تلتزم بها.

حين نقرأ هذه القواعد الشهيرة[1] نكتشف دقَّة المقياس الذي أصبحت فيه الضيافة تمثِّل مهمَّة يترتَّب القيام بها وإتمامها دون تردُّد، كما أنَّها أصبحت كذلك رمزاً للمشاركة والتضامن بين بني البشر، إذ نجد في جميع الأزمنة والثقافات أنَّ للضيافة قوانينها كما قلنا، وهنا لا بدَّ لنا من أن نتذكَّر تقسيم «بيير فرانسوا دوبيتين» لبعض أشكال الضيافة التي تنطبق على الحوار بين الأديان[2].

لتأثُّري بتحليله الخصب أردت أن أرى في كتاباته ما إذا كان الحوار بين «المسيحيين» والعلمانيين يمكن أن ينهل من ينابيع الضيافة

---

(1) Sur la rêgle de saint Benoit.

حول قاعدة «القدِّيس بنوا».

(2) Pierre-Francois de Béthune, Par la foi et l'hospitalité, Publications de Saint – André, Cahiers de Clerlande n 4.

«بيير فرانسوا دوبيتين»: من خلال الإيمان والضيافة، منشورات سان أندريه ـ مذكّرات «دوكليرلاند» رقم [4].

هـذه. هنـا أريـد أن أطمـئن أصـدقائي «العلمـانيين» بـأنّني لا أنـوي أن «أتنسّـك» أو أن أرى في الضـيافة، كمـا فعـل «القـدّيس بنـوا» صـورة لملكـوت «الله»، بـل أن أرى فيهـا إطـاراً، أو سـياقاً، أو أمـلاً يسـهّل الحوار بيننا، ويقدّم للتفاهم حظّاً أوفر للنجاح والازدهار.

ومع ذلك علينا ألاّ نبالغ، أو نكوّن رؤية رومنطيقيّة للضيافة، لأنّ هذه الكلمة نفسها تدعو للخيال وتثير الحلم في النفوس! إنّ التطبيق يقودنا إلى واقعيّة أكثر وضوحاً: لقد تساءل «إبراهيم» في نفسه: من ذا الذي يقترب من خيمتي؟ أهو صديق أم عدو يا ترى؟ وحين سأقترب منه ألا أكون قد وضعت نفسي في خطر داهم؟

كذلك سوف يتساءل الضيف في الوقت نفسه: هل سيستقبلني صاحب الدار كضيف، أم كعدو؟

هل سيأخذني رهينة عنده.. الخ، إنّ الضيافة إذن لها صورة خطرة في ذهن الضيف والمضيف معاً، وعلى الضيف أن يشعر بحاجة ملحّة كي يطرق باب مضيفه.

تلـك هـي القاعـدة الأولى للحـوار بـين «المسـيحيين والعلمـانيين»: الشعور الحقيقيُّ بالجوع والعطش لطلب الضيافة، مـع معرفة المضيف أنّ سعادته بالعطاء أكبر مـن خسـارته الماديّة، كمـا ذُكِر في كتّاب الأعمال:

- هناك حاجة ملحّة للطلب أكبر من تقبُّل العطاء[1].

لـنكن واضـحين: إنّ هـذا الموقـف للقابليـة الداخليّـة دون أفكـار مُسْبَقة، ودون اهتمـام برسـالة أو حـوار هـو عـودة إلى العـالم المسيحيّ، وذلك ما أوضحه التـاريخ علـى الـدوام بـأنّ «الآخر» القـادم مـن المجهول

---

(1) نفس المصدر، ص88.

شخص علينا أن ننقذه، وهذا الموقف هو موقف علماني يجهل نفسه!

لا مزيد من التلقيح كما يقول «روبيرت سميث»، أو العمل على إنجاب أشياء جديدة، هي ساعة للاّهوت المانع للحمل تلك التي ترفض حظّ الاختلاف وولادة الأصالة. إنَّ «الآخر» يهمُّني في جزء ما، وهو الجزء الذي يلتحق باختياري ويريحني في مسيرتي الحياتيَّة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، هو ينتمي إلى العائلة ولكن بطريقة مختلفة، أي على طريقة أخوَّة في «الله»! هذا كما لو أنَّ «الله» له أطفال طبيعيُّون، غير مُصَرَّح بهم، يعيشون مع أطفاله الشرعيين والذين أنا واحد منهم[1].

إنَّ خلق جوٍّ للحوار هو العكس من ذلك تماماً:

الاعتراف بالنقص والحاجة، وحسب تعبير «سان أوغسطين»:

- «الشعور بأنَّنا مسافرون، حتَّى في منازلنا»!

من المهمِّ تفحُّص الطريقة التي استقبل بها «إبراهيم» أضيافه، وافتتح مشهد الضيافة.

ما أن أبصر هؤلاء الضيوف الأغراب حتى أسرع لاستقبالهم، و«سجد» أمامهم، ربما لا يستطيع «العلمانيُّون» تفهُّم هذه العملية [عملية السجود]، لأنَّها خارج سياق النصِّ الثقافيِّ، وبمعزل عن معناها الدينيِّ لا تعني شيئاً لهم، بينما هي في واقع الأمر تعبِّر بقوَّة عن التواضع في بلاد الشرق، وعن طبيعة لا مثيل لها عندهم.

لم يبدأ «إبراهيم» الكلام، ولم يمدَّ يده. لم يسألهم عن هويَّتهم،

---

(1) Robert Smet, dans un texte a paraitre.

روبرت سميت - نص سوف يظهر فيما بعد.

بل إنَّ كلَّ ما قام به هو أن انحنى، ودعا! أمَّا الحوار فسيجد مكانه في وقت لاحق، إنَّ الكلام في هذه الحالة ليس سوى خادم أمين عنده، إنَّه يجامل، ويبدي الاحترام، وينظِّم: اشربوا قليلاً من الماء، واستريحوا، وهذا الخبر أقدِّمه لكم.. الخ!

هذه القصة التي وردت في بداية «سفر التكوين» تؤكِّد على حقيقة بسيطة، وهي أنَّه يترتَّب على الداعي والمدعوين قبل كلِّ شيء، أي قبل دخول المنزل، والكلام، وقبل «فهم الفهم» أن يجلسوا، أن يستريحوا، وأن يأكلوا..

لا أريد أن أُخْضِعُ الجميع لطقس أو عادة معيَّنة عبر الحوار قبل أن يباشروه، ولكنَّني أترك البقية التي ستشرح بما فيه الكفاية بأنَّ على العاطفة ألاَّ تعيق الموعد المحدَّد.

أعتقد أنَّه في جوٍّ مناسب يحيط بالمائدة نستطيع أن نتبادل الأحاديث والمناظرات الخطابيَّة، دون أن ننتظر ما سمَّاه «ريكير» بدعوة القناعات!

3 ـ هويَّة تصدح بالغناء:

ـ «يا سيِّد إنْ كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك، ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، فأخذ كسرة خبز تسند قلوبكم ثم تجتازون»!

يا لها من دعوة رصينة معتدلة! لكم كنت أتمنَّى أن أكون مدعوّاً لهذه الدعوة أنا كذلك!

ومع ذلك كان هناك إحساس بالقلق والتردُّد.. لأنَّه لا يكفي أن يكون المضيف مهيَّئاً ومستعدّاً للاستقبال، بل على الضيف أن يشعر هو الآخر، بالراحة والطمأنينة لها.

ليس هناك من حوار دون تأصيل ورسوخ، ولا احترام للآخر دون احترام للذات نفسها، ولكي نذهب إلى أيِّ مكان علينا أن ننتمي.

لقد ولدت في مكان ما، وإنَّني لأسمع «أدولف جيسشي» يهمس في أذنيَّ بأنَّني محظوظ بهذه الولادة، لأنَّنا نكتشف اليوم أنَّ تمثُّل المرء لهويته يفترض أن يولد في مكان، وما الإنسان في نهاية أمره سوى كائن مولود[1].

---

(1) Adalphe Gesché, pour quoi Je crais en dieu, 1980, p 17.
«أدولف جيسشي»: لِمَ أؤمن «بالله» ـ 1980، ص17.

أشعر بتفوُّقي لأنّني ولدت في أرض خاصَّة، أرض مفتوحة على الجهات الأربع، وهي أرض شهدت الكثير من الأجيال التي عبرتها، والكثير من اللُّغات واللَّهجات التي تداولها الجميع، وظلَّ السؤال المحيِّر نفسه يتردَّد في ذهني وأذهان الآخرين:

ـ كيف نطرح هويَّة تصدح بالغناء؟

أجدني في بعض الأحيان قلقاً من «الهوية» وتلك حقيقة لا أستطيع نكرانها، فالإرهاب يعتمد على التطابق والتماثل في طبيعته، كخصوصيَّة عدوانيَّة بانتمائها إلى إحدى الطوائف أو الأقليَّات، إنَّ الإرهاب هو شهادة على هويَّة! وهنا لا أتكلَّم عن هويَّة أخرى أكثر عمقاً وخصوصيَّة تترك مكاناً لخصوصيَّات أخرى. وهنا أيضاً يسألنا «لوسيان كيسار» بقوله:

ـ «ما الذي تستطيعون أن تقولوه من كلام يسمعه الجميع؟[1]» هو ذا الرهان الأكثر صعوبة الذي نواجهه، وهو رهان لا يتعلَّق بتعداد الإشارات المميِّزة لكلِّ واحد منَّا، نحن الذين ندافع بشكل سيء عن «قيمنا الخاصَّة كمسيحيين» وننسى أنَّنا لسنا أكثر تجربة إنسانيَّة من «العلمانيين» الذين يواجهوننا، والذين لا يدَّعون بأنَّهم الوحيدون الذين يدافعون عن حقوق الإنسان: إنَّ المسألة هنا تعكس الطريقة التي نقرأ فيها الكلمة، لا الكلمة نفسها، وذلك تبعاً لجذور كلِّ واحد منَّا، وتاريخه، وطريقة عيشه...

ثمَّ هل هناك من ضرورة للفظ هذه الكلمة التي تؤدِّي إلى الاختلاف، وهو اختلاف ناجم عن الحساسيَّة في فهمها واستخدامها

(1) Lucien Guissard, Le Temps d'être home, Paris, 1990, p. 185.

«لوسيان كيسار»: زمن الكائن البشريِّ ـ باريس 1990، ص185.

أيضاً. لقد لاحظ بهذا الصدد «إلوالو كليرك» وجود جماعة شبّان «مسيحيين» يعيشون في القلق والاضطراب حالة «الانفتاح» على الآخرين تحت إشراف معلّم روحي!

لطالما نسمعهم يقولون لنا: «ذات يوم شعرنا قليلاً أنَّ الزمن قد تجاوزنا، وكنَّا قد وضعنا أنفسنا تحت قيادة المشرف علينا، وقلنا له: لقد رأينا الكثير من البشر والأمكنة في الآونة الأخيرة، كما التقينا بمجموعات مختلفة من [الصوفيين والبوذيين والهندوسيين]، وتوصَّلنا إلى أنَّنا لا نعرف الكثير حول أنفسنا. حينئذ عانقنا المشرف وهو يضحك قائلاً: ما الذي يعنيكم معرفة أنفسكم؟ ولم تطرحون مثل هذه الأسئلة التي لا معنى لها؟ اسمعوا، إذا ما التقيتم بأحد يعلّمكم أن تحبُّوا بصورة أفضل اتَّبعوه دون تردُّد، ودون أن تشغلوا أنفسكم بهويَّته وأصله[1]».

كان الجواب مغرياً، ولكنَّه غير كاف، ذلك لأنَّنا في نهاية الأمر نرى أنَّ معرفة الذات تستدعي معرفة الهويَّة، وأنَّه لكي نحبَّ بصورة أفضل علينا أن نعرف أنفسنا!

بيد أنَّ مكان الولادة لا يعني الكثير بالنسبة لهويَّة الفرد، لأنَّها تتشكَّل، ولحسن الحظِّ، خارج حدود المكان الذي وقعت فيه حادثة الولادة:

- من أنتَ؟

يثير هذا السؤال اهتمام الكثيرين: أأنت يهودي؟ مسلم؟ علماني؟ مسيحي؟...

(1) Eloi Leclerc, Dieu plus grand, Paris, Desclée de Brouwer, 1990, p. 9.
«إلوا لوكليرك، الله أكبر، باريس، ديسكلي دوبروير، 1990، ص9»

ـ ما الذي تتفرَّد به دون الآخرين؟

ـ ما الذي يجعلك تتقبَّل الحياة؟

هذه الأسئلة تتجاوز الأناجيل!

ـ من هي أمي؟ من هم إخوتي؟ من أقربائي؟ وأنت يا «يوحنَّا»، يسأل رسل «أورشليم»، من أنت؟ أأنت «إيليَّا»؟ يجيبهم: لا، لست هو! يسألونه ثانية: أأنت النبيُّ؟ يقول لهم لا، لست أنا النبيُّ! إذن، من أنت؟ قل لنا من أنت؟

عندها يجيبهم بصوت كالرعد قائلاً:

ـ «أنا صوته الصارخ في البريَّة»!

صوته؟ بلى، هو ذا الجواب الفاحم!

الصوت الصارخ. الصوت الذي يفتح جميع الأبواب وهو ينادي، ويعبر حدود الإنجيل الرابع حيث يتردَّد فعل «استمع» خمسين مرَّة في عدَّة مناسبات.

أحترقُ من أجل أن أتقاسمَ معكم قصَّة أخرى لهذا الصوت الصارخ في البريَّة!

قد يبدو لكم أنَّه صوت غريب، ولكنَّني لا أسمعه كذلك، ولا أعتقد أنَّه بعيد عن تأمُّل الهويَّة.

أسمعتم يوماً حواريَّات الحمام الزاجل، أسمعتموها حقّاً؟ يا لها من حواريَّات رائعة، حين تحمل لنا في أيام الآحاد الأخبار السارَّة، إذ نسمعها ونحن نكاد أن نصحو في السابعة صباحاً من كلِّ يوم، حيث الضباب يلفُّ المدينة النائمة، والهدوء يسدل ستاره على الشوارع العارية، وصوت المذياع يأتي خفيفاً، ودوداً وهو يقرأ الأشعار ويتلو

الصلوات، أتذكر أنّني سألت السيِّدة «آن ريتير»، وهي مذيعة برامج إخبارية حول الحمام الزاجل. أجابتني ضاحكة: يا لها من مهنة رائعة يقوم بها الحمام الزاجل! وحدَّثتني طويلاً عن هذه المهمَّة الخاصَّة للحمام منذ قرون عدَّة.

ظلّت ذكرى هذا اللّقاء تلاحقني لسنوات كظلٍّ مجازي للحياة نفسها، وهي حياتي اليوميَّة التي يقدِّمها برنامج حواريَّات الحمام الزاجل بكلِّ حماسها وأسرارها البعيدة.

أنهتمُّ كثيراً بالصوت الذي نسمعه، أو بالأصوات التي تتراكم في آذاننا؟ أنهتمُّ كثيراً باختلاط الحبوب مع بعضها، وتمازج الألوان؟

أعتقد أنَّ سماعنا للصوت يجعلنا نحلم بما وراء ما نراه، وأؤمن بأنَّ سحر الصوت يدخلنا في بوَّابة الخيال المفتوح على امتداد الآفاق.

أنهتمُّ كثيراً بالصوت حين نتكلّم عن هويَّة المتحدِّث؟ إنَّ هويَّة «المعمدان» تكمن في صوته! وهنا نشهد إعجاب الشاعر «جورج ألداس» بمهمَّته الإنسانيَّة التي تعلن عن قدوم المخلّص: ـ «إنَّ هويَّتنا الحقيقيَّة تتجلّى بما نقدِّمه للعالم[1]».

تلك حقيقة نعرفها جيداً، ولدينا التجربة الكافية التي أثبتتها لنا: عندما يكلِّمنا أحد سوف يبحث في أعماقه عن صرخة للحقيقة حتَّى دون أن يفهمها.

---

(1) Georges Aaldas, Marie de Magdala, Montrouge, Nouvelle Cité (Coll. «Regard»), 1997, p.11.

«جورج ألداس»: مريم المجدليَّة، مونتروج، المدينة الجديدة (مجموعة «نظرة») 1997، ص11.

وحين نسمعه يتكلّم بهذه الطريقة نتعرّف على هويّته، وربما على هويّتنا نحن بالذات!

ـ ما الذي نحمله للعالم؟

ما المؤونة التي جاء بها الأضياف الثلاثة الذين وقفوا على باب خيمة «أبراهام»؟

ـ ما الصوت الذي تكلّموا به؟

يترتّب علينا إذن أن «نثقّف» أصواتنا! أجل، أن نجعلها أصواتاً تعبِّر عن هويتنا الحيَّة، هويتنا المشتركة، المبدعة، الحساسة!

أن «نثقّف» الهويَّة كي نوسِّع الآفاق أمامنا، وأن نشجِّع الحريَّة أكثر فأكثر لكي تأخذ النزعة الكونيَّة أبعادها اللّامتناهيَّة. أن «نثقّف» الهويَّة كي نعزّز الحوار فيما بيننا:

ـ الهوية تعني كثافة حضورنا في هذا العالم!

4ـ نزال محبّة:

يتعلّق الأمر ههنا بالخروج، إذ إنّ الحوار يدفع نحو الخارج. إذن، يظلُّ التعلُّم، وتهيئة الطريق، ومعرفة الآخر، أي معرفة تاريخه وقراءة ماضيه وما سمعنا عنه.

أولى مبادئ الحوار يتمثّل في الاستقامة وحدّة الفكر، فالحوار يتطلّب الصرامة والنزاهة والفضول أيضاً.

كما أنّ الحوار يستلزم النضوج والثقافة والأمانة الفكريّة الصارمة، كما أنّه ليس حكراً لأحد دون الآخر، أي إنّه لا يتوقّف عند فئة «مختارة» من البشر.

بيد أنّنا قد نتجاوز الحقيقة إذا لم نلتزم بقواعد ثابتة في الحوار، إذ علينا أن نمتلك الأدلّة والبراهين لما نطرح من أفكار، حيث لا مكان للتهذيب الزائف أو لتبسيط الأشياء، أو غضّ النظر عن المشاكل والعقبات، حتّى لو كان هناك أسباب مقنعة تستدعي أن «نغضّ النظر» عنها.

لقد رأينا كيف أنّ البحث السهل عن الموافقة والإجماع وما يوحّد الآراء المتناقضة [وهو هوس مسيحي]، ومحاولة جعل المثلّث دائريّاً بالقوّة، أدّى بنا كلّ هذا إلى عدم احترامنا لأنفسنا وللآخرين معاً!

المغامرة في الحوار تستجوب احتكار الحقيقة التي لا تعود ملكيتها لأحد. إنّ طريقنا ليس واحداً هذه المرّة، وأجوبتنا ليس مصرّح

بها، وهي لا تملك ترخيصاً مطلقاً بالعبور، كما أنَّ قناعاتنا تسكن في الوقت المؤقّت لها.

ها نحن ذا قد دخلنا بسرعة مدهشة في تجربة صعبة تضع قناعاتنا وآراءنا تحت إشارة استفهام، أشدَّ وطأة ممَّا نتصوَّر، وهي إشارة قد تخلع عنَّا أثوابنا الروحيَّة!

أجدني في هذه اللَّحظة مضطراً لأن أطرح السؤال الآتي:

- أليست هذه مخاطرة رائعة نقوم بها من أجل الحقيقة؟

هي مخاطرة تدعونا إلى تفحُّص أنفسنا ومراجعتها وهي مخاطرة أيضاً نحاول من خلالها اكتشاف تاريخنا وتجديد ما ذبل من شبابنا، وهي مخاطرة كذلك لإعادة قراءة الحاضر الراهن أمامنا!

إذن، لِمَ نتحاور إذا لم نكن مستعدين لمواجهة ما هو مفاجئ، غير منتظر؟ وما معنى حقيقة لا تتقبَّل أن تتعرَّض لجرح من حقيقة أخرى؟

الحوار لهذه الدرجة من الحقيقة هي طريق تبدو مثاليَّة للكثيرين، إذإنَّه من الصعب تغيير أفكار البشر:

- ما الذي أستطيع أن أقوله، حين أصطدم في حوار جدِّي نزيه بما يخصُّ الغِيْرِيَّة العميقة للآخر، ذلك لأنَّه علينا أن نحترم المسافة التي تفصلنا عن بعض.

قد يحدث أنَّ هذه المسافة تقع في دائرة المستحيل كأن نتقدَّم خطوة أخرى إلى الأمام، إذ إنَّ الأمر يعني بالنسبة للآخر تغييراً في وجوده بالذات. من الطبيعيِّ إذن أنَّ الآخر هذا سوف يقاوم ويرفض حتَّى القاسم المُشْترك الذي قد يوجد بيننا. يقول «ريكير»، بهذا الصدد:

«علينا أن نتلاعب بالمعضلة»! وكما يصرُّ «كارل جاسبير» على أن نقوم بما يشبه «نزال المحبَّة[1]».

في هذا النزال لا يتعلَّق الأمر بإفراغ قناعتي الخاصَّة، أو مسخ وإضعاف الطاقة الخلاَّقة لديَّ، ولكنَّ هذا النزال يعني أن أذهب في الحوار إلى نهايته، إلى ما يفصلنا عن بعض، وأن أكون جريئاً كي أحدِّد هذا الفصل، ليس في قناعاتنا الأخلاقيَّة التي نحترمها، ولكن في طريق كلِّ واحد منَّا في تقليده نحو ما هو «مُشْتَرَك» بيننا!

(1) Le dialogue, déjà cite, entre Paul Ricoeur et Hans Kung.
حوار تمَّ بين «بول ريكير» و«هانز كينغ»، وقد أشير إليه سابقاً.

5 ـ صمت مسكون:

يحمل الحوار الشفّاف الأعزل الكثير للذي يتقبّل المغامرة والسير على هذه الطريق التي نادراً ما سار عليها أحد من قبل، والذي سيكتشف أنّه قادر على استقبال قناعة مزدوجة في ذاته:

قناعته الخاصّة به، وقناعة الآخر، الماثل أمامه!

كثيراً ما نرى أنّه في الحوار قد يبتعد القريب، ويقترب البعيد! «يصبح الأخ الأكثر بعداً وغرابة ممّا نعتقد، ويصير الغريب أكثر أخوّة لنا ممّا نظنّ[1]».

بيد أنّ الحوار يظلّ تجربة صعبة، إذ قد يحدث أنّ البحر يبدو مستحيل العبور تقريباً رغم الحرارة والكياسة، وحتّى رغم الأخوّة بين المتحاورين، في هذه اللّحظة يتوجّب على المتحاورين أن يعيشوا التجربة بعمق لأنّها تشكل جزءاً من الغنى الذي يحمله اللّقاء معه.

إنّ اتّخاذ موقف الصمت لفترة طويلة أحياناً ما هو إلاّ طريقة أخرى للحوار، شريطة أن يتعلّق الأمر باستحالة حيّة، بما لا يقال، بصمت مسكون لا يمكن سبر أغواره العميقة!

ـ ألا يكمن هذا «اللّا يقال» في قلب جميع الديانات والعقائد؟

يعرف اللّاهوتيّون هذا جيداً، إذ إنّهم اخترعوا في العصور الوسطى علماً للاّهوت سمّوه «اللّاهوت السلبيّ»، أو «لاهوت

---

(1) Pierre- Francois de Béthune, p. 46.

«بيير فرانسوا دوبيتين»، ص46.

الحكمة» ، وذلك لكي يؤكّدوا على أنّه من غير الممكن الاقتراب من معرفة «الله» من خلال التوكيدات، بل يمكن ذلك من خلال نفيٍ هذه المعرفة ، «فالله» (لا يُرَى، ولا يمكن تسميته.. الخ)!

هناك مجموعة أيضاً من المتصوِّفة والنسّاك والبوذيين يعتقدون أنّه من المستحيل كشف «الغيب» ، لأنّهم يؤمنون بأنّ الحقيقة النهائيّة عصيّة على الفهم.

وسّع «ريكير» هذه الفكرة بتساؤله فيما إذا كان بإمكاننا أن نجد «أساساً» أو شكلاً لهذه الحقيقة النهائيّة لا يمكن التعبير عنها ، أو تحديدها بصيغ دوغمائيّة ، ولكنّها مع ذلك تظلُّ حقيقة نهائيّة لكلِّ واحد فينا مهما كانت فلسفته أو دينه:

ـ «علينا جميعاً أن نصمت إزاء ما لا يمكن أن يحيط الكلام به[1]» ، ذلك لأنّ كلّ واحد منّا ، سواء أكان مؤمناً أم لا ، مسيحيّاً أو علمانيّاً مدعو إلى أن يجد في ذاته القناعة الخاصّة به في نهاية الأمر.

بهذا المعنى سيكون هناك في نهاية الحوار «صمت علينا عبوره» حيث تلتقي، في الاختلاف العميق، نقطتا (الصمت والوحدة).

ها نحن نعود إلى المربّع الذي انطلقنا منه منذ البداية: إنّ الحوار لا يعني مشاركة في القدرة، بل يعني «أن نجد ما هو غير سياسي في قناعاتنا[2]».

هذا يعني أن نعبر حقول الكلمات حتّى حدود الصمت، وأن نترك الصمت سيِّداً للموقف:

ـ قد يكون الصمت أقوى بكثير من الكلام.. أحياناً!

---

(1) Paul Ricoeur et Hans Kung

«بول ريكير وهانز كنغ» في حوار مُشْتَرك.

(2) المصدر نفسه.

6- لا! بل ضحكتِ:

كان الأضياف الثلاثة قد انتهوا من طعامهم، بعد أن تلذَّذوا بالعجل الحنيذ الذي قدَّمه «أبراهام» لهم، فقالوا:

- أين «سارة» امرأتك؟ فقال: ها هي في الخيمة، فقال أحد الثلاثة: إنِّي أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون «لسارة» امرأتك ابن وكانت «سارة» سامعة في باب الخيمة وهو وراءه وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدِّمين في الأيام، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء، فضحكت «سارة» في أعماقها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعُّم، وسيدي قد شاخ.

فقال الربُّ لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت، هل يستحيل على الربِّ شيء؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون «لسارة» ابن فأنكرت «سارة» قائلة: لم أضحك، لأنَّها خافت. فقال لا! بل ضحكت.

نهض الثلاثة الرجال كي يذهبوا، وتبعهم «أبراهام» تبعاً لتقاليد الضيافة، وهو تقليد يفرض على المضيف أن يرافق أضيافه حتَّى النهاية كي يودِّعهم.

كم أحبُّ أن أسمع ضحك «سارة»! هذا الضحك الذي جعل رئيس الأضياف عابساً في وجهها وهي تتكر خائفة:

ـ لا! لم أضحك!

ـ بلى! لقد ضحكت! أجابها الربُّ جازماً، كم أحبُّ أن أسمع هذا الضحك فأضحك بدوري!

بيد أنَّ ضحكي ليس ضحك استخفاف أو خبث، بل هو ضحك تستّر وتغاضٍ، هو ضحك صداقة ومحبَّة، هنا أقول: إنَّ على الضحك أن يسكن الحوار أيضاً.

أن نتحاور يعني أن نترك الكلام يعبرنا ضاحكاً!

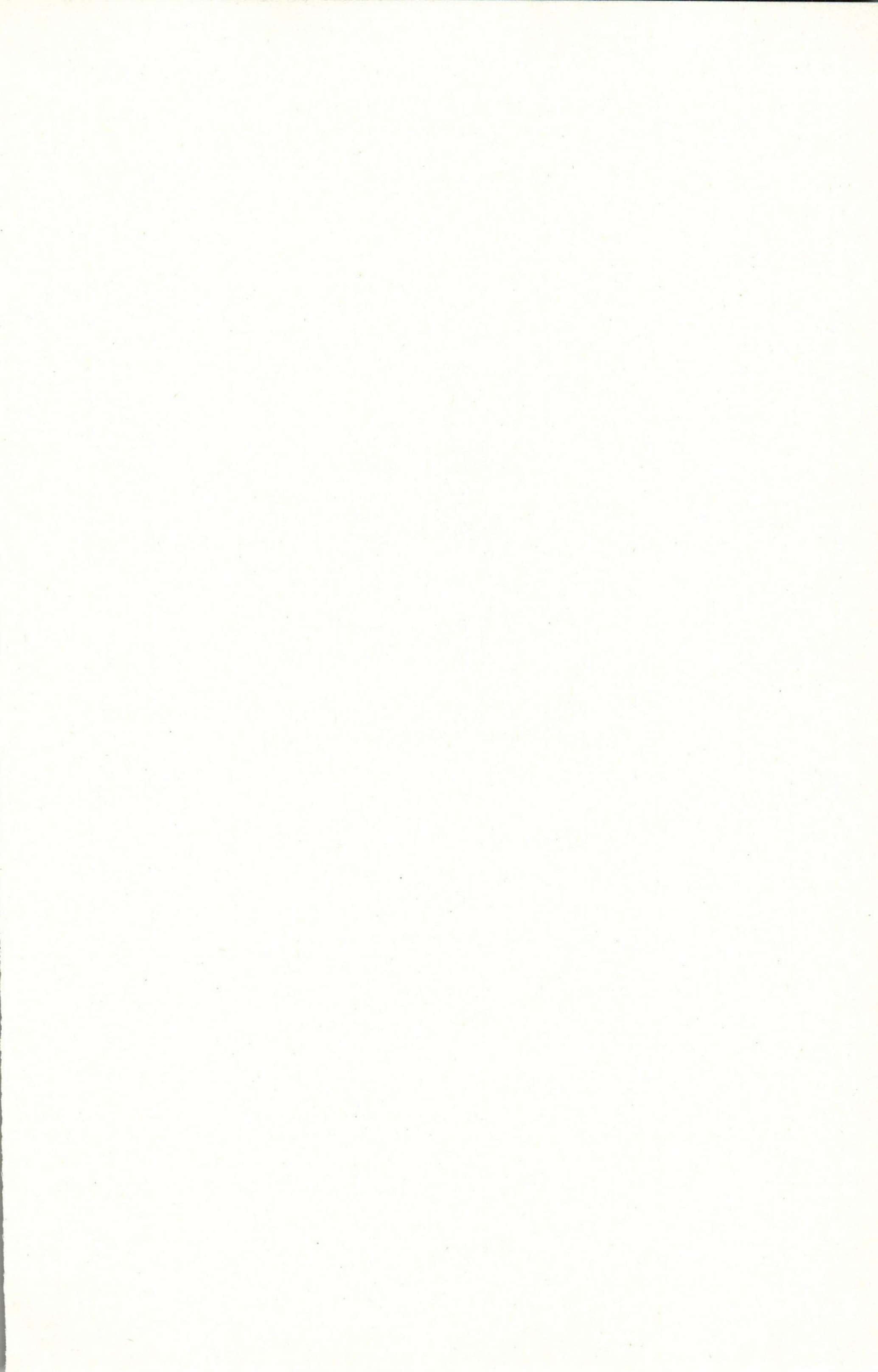
ـ ما الذي يمكن أن يحدث «في أزمنة الحداثة» للوليد القادم من رحم «المسيحيَّة العلمانيَّة» بعد أن رأينا أنَّ «ابراهام» كان في السنة المئة من عمره حين ولد «اسحق» [سفر التكوين 21]، ولكنَّ هذا ليس سبباً كي نتنكّر لمستقبل هذا الوليد المُبَارك!

الفصل الثاني

عبور العلمانيَّة

ليس الجهل ما يناقض الإيمان، ولكنَّه العنف القائم على هذا الجهل!

- جان ماري ميللر -



1 ـ السماء والعصر:

ـ ما الذي نصير إليه دون العلمانيَّة؟

ـ ما الذي يمكن أن نكونه دون هذا الكفاح المرير الدائم، والذي يبدأ من حيث ينتهي؟

ـ ما الذي ستكونه الديانة، ديانتي أنا، دون استجواب أو مقاضاة العالم العلمانيِّ؟

إنَّ «المسيحيين» يدركون جيداً الغبطة التي يولِّدها نقاش الأفكار، وإمكانية العودة إلى صرامة الحدس «الإنجيليِّ» وقسوته!

لا. إنَّني لا أثير المشاكل بقولي هذا، بل أنَّ ما أقوم به هو أن أعاين وأفرح، إذ أرى «العلمانيَّة» تعزِّز تطوُّر الإنسان في الوصول إلى أسمى آيات المواطنة: أيُّها المسيحيُّون، إنَّني أطالب بانضمامي إلى «العلمانيَّة» دون تردُّد!

هل يمكن أن نتصوَّر شراء «الكيس الواقي» من صيدليات «بلجيكا» منذ خمسين سنة ماضية؟

يمكن ذلك ولكن بطريقة سريَّة، وعبر امتحانات وروائز تستدعي الكثير من الحذر والخوف.

كان ذلك في الوقت الذي يتمُّ فيه تهريب «مانع الحمل» عبر شركات الطيران العابرة «للاطلنطيِّ» بطريقة غير شرعية[1].

---

(1) Stéphane Renard, «Les laiques en Belgique», dans Le vif/L' Express, 1996.

«ستيفان رونارد»: العلمانيُّون في بلجيكا ـ مجلة الاكسبرس تاريخ 1996.

بعد عدَّة سنوات شهدنا أسقف مدينة «نانسي» السيد «فاليري»، والذي أشكُّ أنَّه جدير باسمه، يعلن بكلِّ صراحة بأنَّ الامتناع عن التصويت! حول شرعنة مانع الحمل خطيئة مميتة.

كانت نتائج التصويت كارثيَّة أشدَّ من إلغاء «القدَّاس» الأسبوعيِّ الذي كان يشكِّل خطيئة كبيرة من حيث المبدأ.

علينا أن نعترف منذ البداية أنَّ الانتخاب السليم يعني اختيار الأشخاص الأكثر نزاهة واستقامة، واختيار من هم مستعدين للدفاع عن حرية الوعيِّ للفرد والمجتمع، خاصَّة حريَّة التعليم، واختيار الذين يعملون على الإصلاح الاجتماعيِّ ويحافظون على مصالح المواطنين ضدَّ هيمنة الماديَّة، سواء أكانت هيمنة المال والربح أم الماركسيَّة الاجتماعيَّة التي أدانتها الكنيسة منذ أمد بعيد[1].

ولكي نحيط بهذه المسألة علينا أن نكشف عن حالة غريبة يقوم بها «المبشِّرون» في بعض الخورنيَّات البعيدة، وهي أنَّهم لا يتردَّدون بالضغط على الأزواج كي ينتخبوا بشكل صحيح الذين يمثِّلونهم. إنَّ المسافة أحياناً تكاد أن تكون قصيرة أكثر ممَّا نتصوَّر بين امتناع الزوجة عن زوجها وقسريَّة هذا الامتناع!

ثمَّ علينا أن نتذكَّر أيضاً أنَّه منذ زمن ليس بالبعيد لم يكن دفن الأفراد غير المؤمنين، بالمقابر المسيحيَّة ممكناً طالما أنَّهم لم يقوموا بالانتخابات العامَّة.

نفهم إذن من هذا السياق ولادة مجتمعات أوليَّة جديدة للفكر الحرِّ، ودخول التعدديَّة في المجتمع، إذْ إنَ عام [1902] شهد ظهور

---

(1) Henri Madelin, Les chrétiens entrent en politique,

«هنري مدلين»: المسيحيُّون يدخلون عالم السياسة.

«تجمُّع المفكرين الفرنسيين الأحرار» جنباً إلى جنب مع ممثلي «اليهوديَّة والبروتستنيَّة» وحتَّى الكاثوليكيَّة الحرَّة.

في هذه الحالة يمكن أن نطرح السؤال التالي:

ـ أيمكن أن نشير لنقطة المتطلَّب الثقافيِّ للوسط العلمانيِّ كوسيلة ناجعة حتَّى بالنسبة للعقيدة الدينيَّة؟

هكذا أحتفظ في قلبي وذاكرتي، كلحظة ثمينة لثقافتي، بذكرى المرحلة التي ما زالت تلازمني في الجامعة «الكاثوليكيَّة» في«لوفان» لدراسة الّلاهوت، وهي المرحلة التي كنَّا كتلاميذ نناقش فيها شتَّى المواضيع الفكريَّة مع المجموعات المختلفة من الذين يؤمنون بالتعدُّديَّة والعلمانيَّة.

لا أريد أن أنسى تبيان الدور الحاسم الذي لعبه «العلمانيُّون» بإضفاء قيمة مثلى على الحياة، وهي القيمة التي ما زال «المسيحيُّون» يشعلون لها الشموع، وهم فخورون بانتصار الحياة.

هنا أجدني أمام السؤال الكبير الذي لا بدَّ أن أجيب عليه إذا أردت أن أعطي معنى جديّاً لما أطرح:

ـ ما العلمانيَّة التي نتحدَّث عنها؟

اجتمع أصحاب جائزة «نوبل» في باريس عام [1989] بمبادرة من «إيلي ويزيل» لاقتراح تعريف شامل للعلمانيَّة.

طرح «ويزيل» التعريف التالي في خمس كلمات:

ـ «العلمانيَّة هي رفض للحقائق النهائيَّة»! بمعنى آخر ليس هناك من حقائق مطلقة.

حدَّد «أرنست لافيس» بدوره العلمانيَّة بالتعريف الآتي:

ـ «إلغاء حقِّ الديانات التي يمكن أن تتلاشى بحكم البشريَّة الخالدة»! أي عدم الخلط بين السماء والعصر الذي نعيش فيه، وعدم ربط المجتمع المدنيِّ بالهيئة الدينيَّة، ووضع الحدود الصارمة بين ما هو عام وخاص، أي بين ما هو دنيوي ومقدَّس»، كما أكَّد على ذلك [جاك زوجشير وفولك رانجلهيم][1].

إذن، فالعلمانيَّة تُدْخِل مفهوماً خاصَّاً في الدين، وهو مفهوم سياسي بشكل طبيعي، وهذه فكرة طرحتها علينا «جاكلين كوستا لاسكو» التي بيَّنت أنَّ العلمانيَّة مفهوم تطوَّر كثيراً منذ استخدامه، ولكنَّه استند أخيراً على مبدأين اثنين:

حريَّة الفكر، والمساواة للجميع أمام القانون[2].

أجل! هو ذا توكيد حاسم على الوعيِّ وحريَّته، وهذا يعني، كما يؤكِّد «إميل بولات» على أنَّ العلمانيَّة ليست انتصار «الدولة» على الكنيسة في التحكُّم بالوعيِّ بل هي بالأحرى: إعادة تأسيس للمجتمع من خلال اعترافه للجميع بحقِّهم الطبيعيِّ في الحريَّة العامَّة للوعيِّ[3]».

ربما لم تعلن الكنيسة هزيمتها أمام ما يحدث!

---

(1) Foulek Ringelheim et Jacques Sofcher, «Dieu serait- il laique?», dans La Libre Belgique, 27 mars 1996.

فولك رانجلهيم وجاك زوجشير: أيصبح «الله» علمانيّاً في مجلة «بلجيكا الحرَّة» 27 آذار عام 1996.

(2) Jacqueline Costa- Lascux, Les Trois Ages de la laicité, Paris, «Questions de politique»), 1996, p.7.

جاكلين كوستالاسكو: المراحل الثلاث للعلمانيَّة، باريس «مسائل سياسيَّة» عام 1996 ـ ص7.

(3) Emile Poulat, «Comment definer la laicité?»

إميل بولات: كيف نعرِّف العلمانيَّة؟

أمَّا وقد وجدت نفسها في مواجهة علنيَّة، لم تتقبَّل هضم «إعادة التأسيس» هذا، ولم تعترف بفصل ما هو روحيٍّ عن الدنيويِّ! كذلك لم تتحمَّل عودة الدين إلى حدوده الدنيا في علاقته مع الحياة الخاصَّة للبشر.

ظلَّت «الكنيسة» على امتداد أكثر من قرن أو قرنين تقريباً ترفض بشدَّة فكر «عصر الأنوار»، وهي تدير ظهرها لمبادئ «الثورة الفرنسيَّة» أيضاً! ومع ذلك فالتطوُّر سوف يأخذ دوره، ولسوف نشهد انتقادات تاريخيَّة حادَّة «للأناجيل» دون نسيان العقد المضادِّ للحداثة الذي وقَّعه «البابا بي 10» وفرضه على «الإكليروس الكاثوليكيِّ» عام [1915]، وهو عقد أصبح لاغيَّاً بدءاً من عام [1967] من القرن الماضي.

قد تبيِّن لنا هذه الخلاصة رفضاً ما للكنيسة، ولكنَّها لا تقول كلّ شيء حول تعقيدات التطوُّر الذي حدث، بما في ذلك ما حدث في العلمانيَّة نفسها[1].

في القرن التاسع عشر، وفي بداية القرن العشرين كذلك واجه «اللِّيبراليُّون والجمهوريُّون» معضلة كبيرة في تجاوز الوضع الدراماتيكيِّ للفصل بين الدين والدولة، لأنَّ التشبُّع في الفكر المسيحيِّ ما زال قويَّاً، وهو يفعل فعله في أوصال المجتمع آنذاك!

فجأة وجد مؤسِّسو الجمهورية الثالثة أنفسهم غير قادرين على التقدُّم باتِّجاه «العلمانيَّة» إلاَّ بحذر شديد ظلُّوا يعانوه إلى يومنا هذا

(1) Jean- Marie Mayeur, La Question laique. Xixe- xxi siècle. Paris, 1997.

«جان ماري ماير»: المسألة العلمانيَّة في القرن التاسع عشر والقرن العشرين ـ باريس ـ 1996.

حول مسائل معقّدة كالمدارس ومشاكلها مع الحجاب الإسلاميِّ، والذي هو بمثابة النار في الرماد، وهو يهدِّد لحمة المجتمع المدني.

كذلك مشكلة العلاقة الزوجيَّة بين الأفراد ذوي الديانات المختلفة، وهي مشكلة تطرح نفسها بقوَّة اليوم على الجميع، وعلينا أن نتساءل هنا ما إذا كان بإمكان العلمانيَّة أن تستقبل اختلاف الأديان، أم هي محكومة بالمواجهة، أو بالانحسار ضمن حدودها الضيقة؟

قبل الإجابة على هذه الأسئلة المتناثرة يترتَّب علينا تحديد معنى الكلمات التي نستخدمها، والتي تفرض نفسها في الحوار، وهي كلمات قد تأخذ استخدامات صعبة على الفهم أحياناً.

نعرِّي «العلمانيَّة» تماماً كي نراها بكلِّ وضوح كما أراد «كي آرشير» في بحث مطوَّل له حول خصائصها اليوم، بعد أن تطوَّرت المفاهيم حولها بقوله: «إنَّ مفهوم العلمانيَّة مفهوم ضيِّق وواسع في الوقت نفسه[1]».

في البداية، وفي الأسطر الأولى لتأمُّلاته حول العلمانيَّة نلاحظ أنَّ توكيده يأخذ شكل الرفض: على «الدولة» أن تكون للجميع بلا استثناء! لا مجال للخلط، ولا مكان لأيديولوجيَّة على حساب أيديولوجيَّة أخرى. إنَّ الرهان يتعلَّق بالمواطنة بالذات، وبالحياة الاجتماعيَّة التي يعيشها الناس بعيداً عن سلطة الدين واستبداد الفكر الغيبيِّ.

---

(1) Guy Haarscher, La Laicité, Paris, Presses Universitaires de France (Coll. «Que sais- je?»), 1996, p. 3.

«كي آرشير»: العلمانيَّة ـ باريس ـ إصدار جامعات فرنسا ـ مجموعة ما الذي أعرفه ـ عام 1996 ـ ص3.

بيد أنَّ هذه المقاربة «السياسيَّة» لا تقول كلَّ شيء حول «العلمانيَّة» وهي التي تمثِّل فلسفة بذاتها أيضاً، كما تمثِّل أخلاقيَّة ورؤيَّة خاصَّة للوجود، ونزعة إنسانيَّة، مع إصرارها على بعض القيم: التسامح، تمازج الثقافات، استقلاليَّة الفرد، المسؤولية الشخصيَّة، احترام حقوق الإنسان، إضفاء قيمة على السعادة... الخ!

- أليست هذه المثل السامية هي ما يصبو إليه الإنسان اليوم، وهي مثل تشكِّل الدليل الحاسم على انتصار «العلمانيَّة» ونجاحها في امتحان التاريخ الشديد القسوة؟!

2 ـ مفارقات:

ـ إذن، هل نستطيع أن نقول بكلِّ بساطة إنَّ الدين و«العلمانيَّة» يمكن أن يتَّفقا حول الكثير من المسائل الجوهريَّة التي تمسُّ حياة الناس؟

ثمَّ هل نستطيع أيضاً أن نلاحظ تناقصاً في أعداد المتديِّنين مع اعتراف أعداد كبيرة منهم بذلك، بعد أن شهدنا صعوداً واضحاً «للعلمانيَّة» ومؤيِّديها؟

أخيراً هل يمكن أن نقول بأنَّ تقدُّم الفكر الحرِّ يأتي على حساب تراجع في مواقع الدين؟

لا بدَّ أن نعترف منذ البداية أنَّ جميع مصادر الدين الغيبيَّة لا تصطدم بالضرورة مع مفاهيم «العلمانيَّة» والفكر الحرِّ الناجم عنها!

إذن، يتساءل في هذه الحالة «بيير دولوش» حول المأزق الذي ينتظر الأجوبة، و«الصراع الذي لا بدّ أن يقع بين الفكر الدينيِّ الذي يرى في «العلمانيَّة» تهديداً للعقيدة، وبين «العلمانيَّة» التي تنظر للدين كعقبة كأداء في وجه تقدُّمها، وقيادتها للبشرية[1]».

.. «ولكن على الرغم من كلِّ ما تقدَّم علينا ألاَّ نخلط بين «العلمانيَّة» والفكر المضادِّ للدين»!

---

(1)Pierre de Locht, «Laicité et foi»

«بيير دولوش»: العلمانية والعقيدة.

هـذا مـا صـرَّح بـه «جـاك أتَّـالي» الـذي لا يـرى في «العلمانيَّـة» الصـحيحة نفيَّـاً للـدين، بـل يـرى فيهـا «توازنـاً منسـجماً في اسـتخدام الأديان كأدوات للثقافة الوطنيَّة[1]».

هذه الفكرة نفسها تتردَّد في كتابات الأستاذ «روبير جولي» الذي يعلن على الملأ إلحاده، ومع ذلك فهو سعيد برؤية «العلمانيَّة» تحتضن بين ذراعيها «المؤمنين العلمانيين»، وحتَّى أولئك الذين يسمُّون أنفسهم «كاثوليكيُّون»! نسمعه يقول بهذا الصدد: «سوف نكسبهم جميعاً طالما أنَّنا نقترب من «علمانيَّة» مفتوحة، متلاحمة، تعدُّديَّة، ولكنَّها تظلُّ تعدُّديَّة للحوار والنقاش بلا شروط مُسْبَقة»!

ولكنَّنا سرعان ما نرى «جاكلين كوستا لاسكو» تخطو خطوة شاسعة بهذا الخصوص، وذلك حين نراها تحدِّد ثلاث مراحل أساسيَّة مرَّت بها «العلمانيَّة» في مسيرتها التاريخيَّة، هي ذي تكتب:

- «تضفي «العلمانيَّة» على التعبير الدينيِّ معناه الواسع، وهي تضعه في قلب المواجهة التي تخوضها الأفكار والقناعات! لقد قدَّست الثقافة ما بعد ثورة [1789 ـ الثورة الفرنسيَّة] الأخلاقية المستقلَّة عن الدوغمائيَّة، وبالتالي لا وجود لرفض الحياة الروحيَّة للبشر[2]».

هكذا نجد أنَّ «العلمانيَّة» السياسيَّة قسَّمت المجموعات البشريَّة إلى فئتين تحاول كلُّ واحدة منهما استبعاد الأخرى ونفيها من الحياة الاجتماعيَّة.

---

(1) Jacque Attali, Plaidoyer pour une laicité ouverte et lucide,
«جاك أتَّالي»: دفاع عن العلمانية المفتوحة والشفّافة.

(2) Jacqueline Costa- Lascoux, Les Trois Ages de la laicité pp. 17 et 19.
«جاكلين كوستا لاسكو»: المراحل الثلاث للعلمانيَّة ـ ص17 و19.

حسناً، ولكن أين هي استقلاليَّة الفكر في هذه الحالة؟ ومن ثمَّ أين هي «حريَّة النقد»، وهي كلمة ابتكرها «الإنكليز» منذ عام [1659] «free thinker»، وهي ترى في المفكِّر الحرِّ شخصيَّة لا يعتمد سوى على الوعيِ في أحكامه، ولا يقبل أن يتأثَّر أبداً بعقيدة دوغمائيَّة مهما كان مصدرها.

بعد مرور قرنين من الزمن وسع «إميل ليتري» معنى هذا التعبير «حريَّة النقد» في قاموسه الشهير «قاموس اللُّغة الفرنسيَّة» إذ رأى في «حريَّة النقد»:

- «الحقُّ الطبيعيُّ بعدم قبول الحقيقة إذا لم يوافق عليها الوعيُّ أو التجربة».

هنا نلتقي وجهاً لوجه بـ «الحقِّ الطبيعيِّ» الذي يتمتَّع به كلُّ إنسان!

فيما بعد، شرح لنا رئيس الجامعة الحرَّة في مدينة «بروكسل»، «هرفي أسكان» ما الذي يعنيه حين يشير إلى أحد ما بأنَّه «علماني» فيقول:

- «هو الإنسان الذي يستند في أحكامه على حريَّة النقد، وبالتالي فهو الذي يمتلك فضيلة انتقاء الأفكار واصطفائها، ويتمتَّع بالقدرة على التغيير والتطوُّر، هو الإنسان المتسامح، والذي يفكِّر بشكل حر، ويرفض أن يتحكَّم به نظام فكري قسري[1]».

---

(1) Hervé Hasquin, «Un engagement laique»

«هرفي أسكان»: التزام علماني.

إذن، أيترتَّب علينا أن نناضل جميعاً كي نؤمِّن الشروط اللَّازمة لممارسة «النقد الحرِّ»؟

هذا السؤال طرحه الفيلسوف «مارث فان دوملبروك» في سياق حديثه حول العلمانيَّة إذ يقول:

ـ «لا يمكن للنقد الحرِّ أن يربح المعركة دائماً، فهو ليس نظرية، بل ممارسة عملية للفكر، وهو غير قابل للانتقال في بحثه من حيز المجتمع والحقيقة[1]».

كيف لي أن أحيط بهذا الطرح ولديَّ الكثير من الشكِّ وعدم اليقين في زوايا فكري المشتَّت؟

أنا أيضاً أجهد على قدر استطاعتي أن أحظى بلقاء وديٍّ مع التطوُّر، وأن أحتضنه بكل مودَّة وصدق. أنا أيضاً أحاول التفكير بحريَّة، وألتقي يوميَّاً «بالمسيحيين» الذين يرفضون «أن يتحكَّم بهم نظام فكري قسري».

أريد أن أخطو خطوة إضافيَّة، وأن أؤكِّد مع أعضاء جمعيَّة «كلمات» أنَّني أرى الفضيلة في انتمائي إلى «العلمانيَّة» كمسيحي، وأطالب بقوَّة بممارسة «النقد الحرِّ» الذي نفهمه الآن كما هو!

لا أجهل ولا أتجاهل تاريخ «الكنيسة»! بيد أنَّني طالما نبَّهت إلى التعصُّب الدينيِّ، والهذيان الذي تعوَّد عليه الكثيرون من «الكاثوليك» عديمي الضمير والتسامح! هو سبب إضافي آخر. أجل، طالما أنَّه على امتداد التاريخ لم يعترف الفكر «المسيحيُّ» بأهميَّة حريَّة النقد في منهج العقيدة نفسها. هو سبب إضافي للانفتاح وتقبُّل الآخر.

---

(1) Marthe Van de Meulebroecke, «Une morale laique pour tout le monde».

«مارث فان دو ملبروك»: أخلاقيَّة علمانية للجميع.

أعتقد، ككلِّ أعضاء جمعيَّة «كلمات» المثقَّفين أنَّ العلمانيَّة أضحت اليوم «الشرط والتعبير التشريعيَّ لعمل العقيدة الإيمانيَّة في حريَّتها الجوهريَّة»!

أجدني الآن أناضل، أنا أيضاً، من أجل أن نمارس قيم «العلمانيَّة» في قلب «الكنيسة»، وخاصَّة في قلب «الكنيسة» التي أنتمي إليها.

كلُّ ذلك كي نستطيع أن نطوِّر الوعيَّ، وأن ننشر مبادئ التعدُّديَّة، وأن نعيد بناء الأخلاق على أسس صلبة، لا بالكلام وحريَّة النقد فحسب، بل أيضاً بالفكر الحرِّ الذي يشتمل على كلِّ ما تقدَّم من أطروحات تتعلَّق بمستقبل أجيالنا القادمة.

3ـ الدوغمائيَّة:

أتصوَّر ما الذي سيحدث لي، وما الذي سأواجهه من أسئلة مرَّة:

ـ ولكن، ما تقوله للدوغمائيَّة العقائديَّة؟

ـ وكيف تجيب على الأسئلة التي يطرحها الدين حول الوحيِّ والبعث والنشور؟

كنت قد قلت منذ البداية:

كي نتحاور بشكل صحيح علينا ألاَّ نتخلَّى عن الخشونة والغلظة في طرح أفكارنا، وألاَّ نتجنَّب مواجهة المعضلات الحقيقيَّة مهما كانت الظروف، وهذه الـ «ألاَّ» تنطبق على الجميع دون استثناء.

إنَّ «المسيحيَّ» النزيه يستطيع أن يمارس «حريَّة النقد» بجديَّة حتَّى وهو يدرك أنَّ إيمانه يرتكز على حقيقة «غيبيَّة»، بمعنى آخر على حقيقة خارجة عنه.

كذلك أرى أنَّ التوتُّر الحقيقيَّ بين «العلمانيين والمسيحيين» في نهاية المطاف يكمن في عدم التوافق بين «الدوغمائية» التي تعتقد بأنَّ قوى الإنسان العقليَّة قادرة على بلوغ الحقيقة إذا اعتمد على هذه القوى بطريقة منهجيَّة، وبين «حريَّة النقد» التي ترتكز في أصولها على تعليمات الوعيِّ وشروطه!

كنت أسمع جميع هذه الأسئلة بدهشة وارتياب:

إذا كان «الوحيُّ» مستودعاً للأمانات لا نستطيع أن نضيف إليه شيئاً آخر، إذن، عليَّ أن أقيس المخاطرة، وأن أتقاسم مع «ألبير كامي» تمرُّده ضدَّ هذا الوحيِّ الذي «يضرب بعنف شعباً متمرِّداً[1]».

في هذه الحالة تظلُّ العقيدة مجرَّد تكرار، وتتحوَّل الجِدَّة إلى تهديد لصفائها.

- ولكن أي مفهوم بائس هذا الذي يلفُّ الوحيَّ بوشاحه الأسود، وكأنَّ «اللّه» لم يعد يوحي للبشر بما ينفعهم! وكأنَّ الوحيَّ لم يكن على صلة وثيقة بتاريخ الحياة البشريَّة وثقافتها! أخيراً، كأنَّ الوحيَّ لم يعد يتنزَّل عليَّ أنا بالذات كي أستطيع أن ألحق بالوعيِّ حتَّى نهاية الأزمنة!

- أأنا محظوظ إلى هذه الدرجة؟

لقد لمست طيلة دراستي اهتمام المدرسين بي، وهم يحاولون أن يشرحوا لي «تطوُّر العقيدة». لم يكن هذا تملُّصاً لاهوتيَّاً لتبرير الهزيمة أمام الفكر الجديد، بل كان مجرَّد ملاحظة بسيطة تعني أنَّ التوكيد الدوغمائيَّ هو توكيد مؤقَّت، وأنَّ الفكرة الدوغمائيَّة أيَّاً كانت تتعلَّق بالزمن والثقافة وتخضع لمقياس السياق الذي جاءت به، وبطريقة التفكير السائدة، أخيراً تتعلَّق الفكرة «الدوغمائيَّة» بالصراع الذي لا ينتهي إلاَّ بانكسار الخصم واستسلامه.

أضيف إلى كلِّ ما تقدم [وهو أمر مهم كما أراه] أنَّ صيغة «الدوغمائيَّة» تفترض أولاً الموافقة والإجماع بلحظة على فكرة ما،

(1) جملة وردت في كتاب «ألبير كامي» الحائز على جائزة نوبل للآداب بعنوان الإنسان المتمرِّد.

تتضمَّن مفهوماً واسعاً لشعب بأكمله، أي قناعة عامَّة لمجموعة بشريَّة آمنت بها.

تمثِّل العقيدة إذن كاشف نور للشعب أو للمجموعة البشرية التي آمنت بها، ومنهجاً كبيراً على الجميع احترامه، إنْ لم أقل «تقديسه»!

تشكل العقيدة مرجعاً، و«ذاكرة حيَّة» لا تعمل على إلغاء الذكاء والتمييز النقديِّ واستقلاليَّة الحكم، هي شيء آخر، مختلف تماماً!

تتواجد العقيدة في كلِّ مكان: إنَّها الميل للاستناد على الحقائق التي نعدّها نهائيَّة، غير قابلة للأخذ والردِّ.

نسمع «جان سيليفان» يعرِّف الحقيقة بقوله:

- «تمثِّل الحقيقة وثناً يعكس صورته الخاصَّة! يكفي أن يكون المنهج صحيحاً كي نتأكَّد منها دونما حرج أو ضيق صدر[1]».

رفض «موريس ميرلو بونتي» كليَّاً هذا الموقف، وشجَّع على إدانة شكلية العقيدة دون أن ينسى أنَّ «خطأها لا يكمن في احترامها الزائد للشكل، بل لفصل هذا الشكل عن المعنى[2]».

ولكن هل يمكن أن نقول: إنَّ «حبَّ الحقيقة» الذي يحاول أن يجعل كلَّ شيء حوله موضوعيَّاً، هو حب وثني خالص؟ يقول «جان سيليفان»:

---

(1)Jean Sulivan, Au- delà de Dieu, Paris, Gallimard, 1968, p. 26.
«جان سيليفان»: فيما وراء الله - مطبوعات «كاليمار» عام 1968 ص26.
(2)Maurice Merleau- Ponty Dieu et la revolution du dialogue 1960, p. 96.
«موريس ميرلوبونتي»: «الله» وثورة الحوار 1960 - ص96.

- «إنَّ الوثن هو الشكل المقدَّس للرفض! تلك حقيقة ما زالت متباعدة، ولطالما شهدنا في كثير من الأحيان الوفاء وهو يرتدي قناع الخيانة[1]».

هكذا نجد أنَّ العقيدة لا تستبعد التحليل الشخصيَّ للأشياء، وعلى وعيِّ الكنيسة أن يكون وعيِّي أنا أيضاً، وعلى الحقيقة أن تقدِّم أدلَّتها عبر النار التي تلتهب في كلمات الحوار الداخليِّ، إذ إنَّه الوعيُّ في الحكم النهائي من يقرِّر الرفض أو القبول.

حتَّى «سان توماس» كان قد أشار إلى هذه الفكرة، وما زلنا نحتفظ في الذاكرة بصيغة الكاردينال «نيومان» التي تقول: «إنَّ الوعيَّ هو الممثل الأول عن السيِّد المسيح الذي نؤمن به».

أبعد هذا الكلام نستطيع أن نتجنَّب سوء الفهم؟

كثيراً ما نسمع «المسيحيين والعلمانيين» يتكلَّمون عن الأشياء نفسها وهم يستخدمون المفردات والجمل نفسها للتعبير عنها، وهم يدركون أنَّ عليهم تقع مسؤولية تعميق الوعيِّ وسيادة حكم المنطق كي يستطيعوا رؤية الحقيقة التي يفرضها بزوغ نجم «النقد الحرِّ»!

(1)Jean Sulivan, Dieu au- delà de Dieu, p. 27.

«جان سيليفان» فيما وراء الله ص27.

4ـ يوتوبيا:

أجدني أبحث عن الثقافة محاطاً بتاريخي... كما أراني أكبر وأهرم وأنا أعيش حياتي ضمن نسيج اجتماعي لم أختره!

أتغيَّر، وأواجه المعضلات

ألملم جراحي، وأنكفئ على نفسي.

وقد يحدث لي أن ألتقي ببعض أساتذتي وأنا في طريقي إلى ما لا أدري!

لا نستخدم اليوم الكلمة في موضعها الصحيح، ذلك لأنَّها قد تثير الجميع! بالنسبة لي وللأساتذة الذين أتذكَّرهم لم يكن الأمر هكذا أبداً، بل كان بحثنا عن «معلِّم» حقيقي يشكِّل هاجساً حقيقيّاً لنا، أعني كنَّا نبحث عن مفكِّر حرٍّ يحمل الراية عنَّا، ويسير بنا إلى أرض الحقيقة الموعودة.

ولأنَّ المفاهيم الحديثة عن التسامح والعلمانيَّة وحريَّة الوعيِّ لم يكن لها أن تتطوَّر بشكل صحيح إلاَّ إذا ابتعدت عن الكنيسة الرومانيَّة، واتَّخذت موقفاً معارضاً لها من خلال «الإصلاح» وفكر «عصر الأنوار» والتأكيد على حريَّة هذا الفكر في مواجهة هيمنة «الإكليروس» على الحياة العامَّة، كان لا بدَّ من البحث عن مخرج يؤدِّي إلى النور، وكان هذا المخرج يتمثَّل في أصحاب النزعة الإنسانيَّة الأوائل، وهم مجموعة من «الكاثوليك» المتحمِّسين الذين اتَّخذوا من

الإنجيل نفسه مرشداً وناموساً يتكلّمون باسمه، وهم ينادون باحترام الاختلاف في الآراء والعقائد، ويمجِّدون الوفاق والوئام بين بني البشر كافَّة!

لنتذكّر «جان بيك دولا ميراندول»، ذاك الشاب الفيلسوف الإيطالي الذي توفي عام [1494]، والذي سرد لنا «توماس مور» قصَّة حياته.

ما الذي كان يحلم به هذا الجائع الغريب للمعرفة، والذي كان يؤمن بأنَّ كلَّ واحد منَّا بحاجة إلى الآخر من حوله، وأنَّ نبل الأخلاق ملك للجميع دون استثناء.

لم يكن يحلم بالكثير، فقط كان يحلم بلقاء كبير يضمُّ العلماء من جميع الاختصاصات مع المؤمنين من كافَّة الأديان والعقائد، وكان يحلم بلقاء «أرسطو» مع «أفلاطون» وهما يقرآن «الكتاب المقدِّس» ويتداولان سور «القرآن».. كان يريد أن يختصر التاريخ البشريَّ بكلمة واحدة:

إنسانيَّة تضمُّ الجميع دون أن تستقصي أحداً البتَّة!

ـ «هي ذي اليوتوبيا»، يعترض المفكِّرون أصحاب الياقات البيضاء! نعم، لقد سمعتهم جيداً، ولكنَّني في الوقت نفسه سمعت الكلمات العذبة التي نطبق بها «جان بيْك» وهو يضفي على الإنسان معناه الحقيقيَّ. لنسمعه يحدِّثنا عن «الله»، وهو يوجه كلامه إلى «آدم» أبينا:

- «لم أعطك وجهاً أو مكاناً خاصَّاً بك. لم أهبك أيَّ عطاء لك وحدك يا آدم، ذلك لأنَّني أريد منك أن تقوم أنت بنفسك بالحصول على ما تريد!

لم أخلقك كائناً سماويَّاً، ولم أصنعك مخلوقاً أرضيَّاً فانٍ أو خالداً، لأنَّني أريد منك أن تصوغ نفسك كما تريد، وأن تستكمل شكلك الخاصَّ بك كما ترغب».

- ألا يمثِّل هذا الكلام خلاصة للفكر البشريِّ الحرِّ؟

حين نقارن اليوم العَالِم في العصور الوسطى مع أخصائيٍّ في العلوم التي تتعلَّق بالأشياء الصغيرة، بل في منتهى الصغر، سوف نجدهما في حالة من الدوار، وهما يواجهان نفس «اليوتوبيا» في محاولاتهما إضاءة اللَّا محدود، ولكن بطرق مختلفة!

ليست «اليوتوبيا» وهم ولا سراب، فهي أكبر من حلم أو رؤيا لمبدع خلاق يعيش وحدته!

تعني «اليوتوبيا» لغة «اللَّا مكان»! وتعني كذلك «هناك في مكان ما»، والأفضل أن نقول بأنَّها «الأرض التي لم توجد بعد»!

ولكي نتجنَّب هذيان «اليوتوبيا»، وغباء «الواقعيين» وهما صورتان لوجه واحد لا بدَّ لنا أن نستعين بالصيغة المتناقضة التي طرحها علينا «موريس بل» وهي «اليوتوبيا الواقعيَّة»، وهي طريقة تضمُّ الواقع مع تحوُّلاته!

هكذا تدعو «اليوتوبيا» إلى التفوُّق والمشاركة والخيال، ومن ثمَّ تدعو إلى النظر مجدَّداً لما حولنا، وتغيير أمكنتنا على الدوام.

لقد استطاع «توماس مور» وهو الذي ابتكر هذه الصيغة «اليوتوبيا» أن يضعها في حسابه الخاصِّ.

كان «توماس مور» سياسيَّاً كبيراً، وكان قاضيَّاً ومحامياً ونائباً ووزيراً! ومع ذلك فقد كان يعاني آلاماً مبرِّحة وضنى روحيَّاً غريباً.

لقد أرهقته حياته الصاخبة هذه، تلك الحياة الملأى بالمسؤوليات والشراك.

لم ينتظر «كاثوليكي» لعنة «لوثر» كي يصف الكنيسة كجسم من الخطايا، إذن، لِمَ هذا الموقف العنيد من الملك «هنري الثامن»؟

لقد سمع أقرباءه وأصدقاءه وهم يرجونه أن يتراجع عن موقفه، وأن يوقّع اعترافه بالملك هذا كرئيس أعلى لكنيسة «إنكلترا»، ولكنَّه لم يكن ليصغي إلى أحد منهم!

- أيشبه موقفه هذا موقف «سقراط» من تلاميذه قبل أن يتجرع كأسه الأخيرة؟

لقد أطاع «سقراط» القوانين، وكان حذراً من مغبَّة التمرُّد الذي كاد أن يحدث في «أثينا».

لم يكن «سقراط» على العكس من تلميذه النجيب «أفلاطون» يحلم بالعدالة على الصورة الأسطوريَّة!

نسمعه يقول لمحاكميه:

- «لم أسبب أذى لأحد، ولم أقل ما يسيء لأحد. ولم أفكّر بسوء لأحد.. إذا لم يكن هذا كافياً، فأنا لا أريد هذه الحياة معكم»!

ولكنَّ «سقراط» لم يكن وحيداً حين تجرَّع السمَّ، بل كان محاطاً بأصدقائه ومحبيه. بينما ظلَّ «توماس مور» بالقرب منَّا، كما يقول «موريس شيمان»، وهو يراه قريباً من عصرنا، إذ يحدِّثه بقوله:

- «لو تذكَّرت ما قلته وما كتبته عن أسقف «روما» لمَّا شكوت نتيجة عنادك هذا! ألا تعلم بأنَّ «البابا» مثله مثل الملك «هنري الثامن»

يتمتَّع بسلطة دنيويَّة لأنَّه وضع قوته الروحيَّة في خدمة ممتلكاته الأرضيَّة؟

ألا ترى معي بأنَّه ليس «الحبر الأعظم»، ولا وارث «بطرس» من تلقيا الذلَّ والخزيَّ من عصرنا، هذا المأفون، ولكنَّه الملك نفسه... أأنت واثق بأنَّك لم تمت من أجل سيادة ملك غريب علينا، ملك آخر تتوجَّه على ملكنا نحن بالذات(1).

لم يصغِ «توماس مور» لكلِّ هذا الكلام!

في رسالة أخيرة وجَّهها لابنته الكبرى استخدم سبعة عشر مرَّة كلمة «الوعيُّ»!

لقد آمن الرجل منذ البداية بأنَّ هناك بين السلطة الروحيَّة والأخرى الزمنيَّة سلطة ثالثة، هي في قلب كلِّ واحدة منهما، ألا وهي سلطة «الوعيِّ الأعزل»! هنا علينا أن نتساءل مجدَّداً:

- ألا تعلن هذه الكلمات عن ولادة الفكر الحرِّ من رحم التاريخ المظلم؟!

---

(1) Maurice Schumann L'Utopie de Thomas More, Paris, 1978, pp. 20 – 21.

«موريس شيمان»: يوتوبيا توماس مور - باريس 1978 - ص20 -21.

5ـ أمير النزعة الإنسانيَّة:

هـو ذا بلـد «إيراسـم[1]»، بلـد الجنـون، بلـد أصـحاب النزعـة الإنسـانيَّة: [مـور في إنكلترا ـ بيديه في فرنسا ـ فيف في إسبانيا، ميلانشاتون في ألمانيا، وكذلك لوثر العظيم... الخ].

هو ذا بلد «ايراسم» الجميل، وهو البلد الذي يعلن ويهيئ ويعيش «العلمانيَّة» قبل الجميع، بعد أن مرَّت به الأحداث حتَّى نهاية القرن من خلال النزعة الإنسانيَّة، وحركة الإصلاح الدينيِّ.

هـو ذا «إيراسـم» يبحث عن الحقيقة، يبحث عنها حقّاً، لإيمانه بـأنَّ لا أحد يمكـن لـه أن يدَّعي امتلاكها، فهي ليست راسخة في عقيدة، ولا هي تابعة لسلطة، بل هي هاربة مجزَّأة مؤقَّتة على الدوام، وعلينا نحن الباحثين عنها أن نستمرَّ في البحث والحلم بالحصول عليها!

بعد إقامته الأولى في «لوفان»، وذلك بين الأعوام [1502 ـ 1504] عـاد «إيراسـم» إليها عـام [1517] كـي يؤسِّس مـع زميلـه «جـيروم

---

(1) «إيراسـم»: واسمـه «ديزيـدريوس إيراسـم»، وهـو «هولنـدي» ولـد في مدينة «روتردام» عام 1469، وتوفي عام 1536.
كتب كتابه الشهير «دفاع عن الجنون» الذي كرَّسه للدفاع عن النزعة الإنسانيَّة التي طالما آمن بها، وطالما حاول أن يربط بينها وبين عقيدته المسيحيَّة، بعيداً عن كلِّ خلاف وجدل عقائدي ـ معجم اللَّاروس ـ.

بيسليدن» مَجْمعَ اللغات الثلاث [اللاتينيَّة، اليونانيَّة، العبرية]، الفريد من نوعه في «أوروبا»، والذي سيصبح نموذجاً للمَجْمَع الفرنسي الشهير فيما بعد.

بدأت هذه المغامرة بكلِّ حماسة وثقة، ذلك لوجود ثلاثمائة مستمع في الدروس يتلقَّون تعاليم هذا المَجْمَع. يقول «إيراسم» بهذا الصدد:

- «لم يكن هناك من مكان يتلهف فيه التلاميذ لتعلم الآداب أكثر من هذا المَجْمع الحديث العهد... بينما كنَّا نجد أنبياء الجهل القدامى يعارضوننا في كلِّ مناسبة»! كان يعني بأنبياء الجهل القدامى مجموعة من «اللّاهوتيين» المعارضين له!

مع ذلك، كان هناك الكثير من «اللّاهوتيين» أيضاً قد استقبلوه في بداية القرن. ولكنَّهم ما أن اكتشفوا أنَّه بصدد نشر نص يوناني «للكتاب المقدَّس» حتَّى صرخوا بصوت واحد: يا للرجس!

ألا تكفي الترجمة «اللّاتينية» لكتاب، أم أنَّ الشريعة يمكن أن تواجه إشارة استفهام. إنَّ اللُّغة اليونانية ليست بذي فائدة على الإطلاق!

في قضية أطروحات «لوثر» كانت الأشياء قد فسدت وتعفَّنت تماماً، «فاللّاهوتيون» كانوا على عجلة من أمرهم، والأمر لم يكن بالنسبة لهم إهمال هرطقة تتطوَّر وتأخذ دورها، بل كان عليهم أن يقوموا بفعل شيء ما، وبسرعة غير معهودة. بينما كان «إيراسم» يتأنَّى بعمله، ويقوم به بكلِّ هدوء وبطء! لم يكن يتَّفق بالضرورة مع «لوثر»، ولكنَّه كان يكنُّ له الكثير من الاحترام والتقدير.

كان «إيراسم» يريد أن يتعلَّم، أن يتفحَّص كلَّ شيء، أن يدرس النصوص بحذر ودقَّة، لم يكن مسموحاً له أن يعلن، آية بتهوُّر أو

عجلة، كان «اللّاهوتيُّون» يشعرون بخيبة الأمل، وكذلك «إيراسم» نفسه!

لذا كان عليه أن يغادرهم عام [1521] دون أن يشعر بالأسف على ما قام به من أعمال!

جنون لاهوتي!

جنون إنساني!

جنون مسيحي..

كان «إيراسم» قد استقرَّ في منزل «توماس مور» كي يفكِّر، ويعيد النظر في كتابه «دفاع عن الجنون» الذي سيكون الإهداء: «إلى عزيزي توماس مور»، وذلك كتعبير عن العاطفة الجيَّاشة نحو صديقه.

في «باريس» طرحت المكتبة الوطنيَّة نقشاً على الخشب يُظْهِرُ الصفحة الأولى من كتاب «دفاع عن الجنون» بعنوان «الجنون يتكلَّم»!

من علٍ، كنَّا نرى «الجنون» خلف نظَّارته السميكة، وقد ارتدى الهندام الجميل للأساتذة الجامعيين، وكأنَّه لم يكن يعلم أنَّ ثوب المسوح لا يصنع الحكيم، طالما أنَّ «دفاع عن الجنون» اتَّخذ موقفه الحاسم ضدَّ فساد رجال الدين، وهوس الشعب بالخرافة، وعماءها رغم تمتُّعه بالوعيِّ! أيَّة مهزلة يشهدها أولئك الذين يأخذون الأشياء على محمل الجدِّ، وهم يدَّعون معرفة بعض الأشياء؟!

لم يكن «لوثر» بعيداً عن كلِّ هذا! وهو الذي رأى فيه الأب «كونكار» أحد أهمِّ العباقرة الدينيين في جميع العصور.

كان «لوثر» متَّفقاً مع «إيراسم» في أغلب المواضيع وكان يرى فيه الصديق والمعلِّم! إذن، ما الذي ينتظر صاحب كتاب «دفاع عن الجنون» كي يلتحق بمؤسِّس الإصلاح الدينيِّ؟

كان «لوثر» يتمنّى ذلك من كلّ قلبه، وكان يدين صاحبه ويتّهمه بالتردُّد والمراوغة:

- «أنت لست سوى باحث عن المواربة، أنت أفعى تندّس بكلّ حذر في مكانها الآمن. أنت لا تستطيع أن تتبنّى موقفاً صريحاً أبداً».

ما الذي يمكن «لإيراسم» الهادئ أن يجيب على هذه الاتّهامات سوى أن يردّ بغضب هذه المرّة بالقول:

- «أعلم أنّه في هذه «الكنيسة» التي تسميها «كنيسة بابويّة» هناك الكثير من البشر الذي لا يعجبونني، ولكنّني أرى مثلهم أيضاً في «كنيستك» أنت!

يمكن أن نتحمّل شرور هؤلاء التي تعوّدناها: إذن، عليّ أن أتحمّل هذه «الكنيسة» حتّى أجد أفضل منها، وعليها هي أيضاً أن تتحمّلني حتّى أصبح أفضل ممّا أنا عليه الآن!

حين أسمع «إيراسم»، وأقرأ نصوصه، حين أتحاور معه أشعر بأنّني أواجه إنساناً معاصراً من زمننا.

ها قد مضى أربعمائة وستون عاماً على موته، ولم تزل رائحة الحداثة في أثوابه. لديّ انطباع بأنّ فكره ما زال ينبض بالحياة على مرّ العصور، دون أن تنطفئ الذبالة التي ما زالت تلتهب بين السطور فتضيء الصفحات لمن يريد أن يرى أو يُفهم!

حين نتذكّره، وهو يتّخذ موقفه الملتزم بشدّة في مسألة السلام نراه يوقّع بأصابعه العشرة كي يؤكّد وجوده كمدافع مسالم عن هذه المسألة اليوم، بهذا الصدد كتب «جان ماري ميللر» يقول:

- «ليس الجهل ما يناقض الإيمان، ولكنّه العنف القائم على هذا الجهل»!

وحين نتذكّره مجدّداً، نراه، مثل «لوثر» شديد الاهتمام بالتعليم والثقافة، وكأن جلّ ما يخشاه هو أن يتراجع الأدب عن موقعه في الحياة الاجتماعيّة، وأن يهيمن الفكر الغيبيُّ على العلم، إذ نسمعه على لسان أحد شخصيّاته في كتابه «المائدة الدينيّة» قائلاً:

- «سقراط الحكيم، ادع لنا، نحن بحاجة للدعاء»!

لقد كان «إيراسم» واضحاً تماماً حول موقفه من الكنيسة وإصلاحها، إنْ لم نقل استبدالها!

نتصوَّر أنَّنا في مجمَّع دينيٍّ «للفاتيكان» حين نراه يشير إلى مكانة «شعب الله»! وكمثل صديقه «توماس مور» اختار الكفاح «داخل» هذا المجمَّع، وهو كفاح لا يستلزم منه قداسة رسميَّة، بل منعاً لجزء من كتابه.

لنعترف أنَّ المؤسَّسة الدينيَّة آنذاك كانت قد قدَّمت الدليل تلو الدليل على سماحتها مع كتابه «دفاع عن الجنون» في بداية الأمر.

ما زال «إيراسم» يتصدَّر المُحْدَثين حول فهم «الإنجيل» والنزعة إلى توحيد الكنائس، ورؤيته الخاصَّة إلى الحريَّة الداخليَّة في قلب المؤمن.

علينا هنا ألاَّ نتجاوز الحقيقة! لقد كان الرجل حانقاً، غضوباً في دفاعه عن آرائه، وكان شعاره الذي لازمه طيلة حياته هو «لا تراجع ولا استسلام»، وظلَّ متشبِّثاً به رغم العواصف والأهوال التي عانى الكثير منها.

كيف نصف النزعة الإنسانيَّة عند «إيراسم» اليوم؟

أهي فلسفة؟ لا أعتقد ذلك حقّاً!

أهي أطروحة دينيَّة جديدة؟ لا! هي فقط رؤية خاصَّة للعالم، إنْ لم أقل مرَّة ثانية «علمانيَّة» قرَّرت أن تضع كلَّ ثقتها بالإنسان

واستقلاليَّته وحريَّته وفكره الخلّاق. نستطيع هنا أن نقول عنه، كما قال ذات يوم «موريس شيمان» عن «توماس مور» بأنَّه «كلما عرف أكثر كلما تهرَّب من هذه المعرفة، وكلّما آمن بفكرة ما كلما بدأ البحث مجدَّداً..»! إذن، هي فضوليَّته التي لا تتعب، وذكاؤه النقدي الذي يختلط بالحماسة والإرادة الصلبة في الإصلاح! ولكي نصفه بكلمة واحدة نقول عنه: أنَّه شكل جاهز للفكر الحرِّ!

لِمَ هو كذلك، مفكر حر مؤمن كما ندَّعي الآن؟ ولِمَ تثير هذه الوحدة القائمة بين الصيغتين [الإيمان والحريَّة] الكثير من المخاوف في أذهان البعض؟

ربما يعود سبب هذا الخوف إلى أصل الصيغة، ذلك لأنَّه في نهاية القرن التاسع عشر كانت المجموعات التي اتَّخذت مكانها في صالة الفكر الحرِّ أقرب ما تكون إلى الإلحاد.

اليوم ترى «جاكلين كوستالاسو» أنَّ البعض يخشون من تحوُّل العلمانيَّة هذه إلى «علمانيَّة ماديَّة» تفرض مفاهيمها الضيِّقة على حريَّة الاعتقاد، وترى أيضاً أنَّ البعض الآخر يخاف على الدين أن يندثر، ويندثر معه غنى ثقافة كاملة[1].

- ولكن أليست الحريَّة هي التي تقبع وراء هذا الخوف؟ يقول «توماس مور» عن هذه الحريَّة بأنها هي التي تثير أكثر المخاوف شدَّة لأنَّها تصقل أعماق الإنسان ودواخله، فيستطيع حينئذ أن يتفحَّص بدقَّة، وأن يمارس بعين ثاقبة حريَّة النقد، أولى مبادئ المعرفة!

(1)Jacqueline Costa- Lascoux, Les Trois Ages de la laicité,
«جاكلين كوستالاسكو»: مراحل العلمانية الثلاث، ص21.

كان «إيراسم» يعرف سلفاً ثمن هذه الحريَّة، وكان يقدِّر ثمن احترامه لعمل الفكر، وكان معجباً بتعريف «جان سيلفان» للفكر إذ يقول:

- «إنَّ الفكر هو الفكر الحرُّ الذي لا يقبل شروطاً غير الحريَّة التي ترفض الشروط: هي تطيع وتحبُّ، على أن يتضمَّن ما تحبُّه شروط الحريَّة أيضاً، بعيداً عن مصطلحات العقيدة والإيمان!

- إنَّ الإيمان الذي لا يفضي إلى الفكر الحرِّ لهو إيمان ميت لا جدوى منه!

6ـ أيمكن أن يصبح «الله» علمانياً؟

كنت أستمع أحياناً بعض الأصدقاء وهم يتهامسون:

ـ «أنت أقلُّ كاثوليكيَّة من «البابا»، ولكنَّك أكثر حرية من العلمانيِّ أيضاً»!

أهي الساعة التي علينا أن نضع الحدود وأن نطرح إعادة التعريفات بكلِّ وضوح؟ أم هو الزمن الذي يلفُّنا بغموضه وإبهامه؟

منذ سنين طويلة ونحن نناقش، ونحتدم في النقاش! ومنذ سنين طويلة أيضاً ونحن نتكلَّم عن «علمانيَّة جديدة»، وعن «عقد علماني جديد»، يضمن للجميع علمانيَّة تعدُّدية، مفتوحة، خلاَّقة، كريمة.. الخ!

لقد واجه «ميشيل روكار» نفسه، مثل رئيس الوزراء، مشكلة الحجاب الإسلاميِّ في «فرنسا»، ووقف مدافعاً أمام البرلمان عن علمانيَّة يقينيَّة، مقنعة، جليَّة وواضحة.

كذلك شهدنا عام [1987] في مدينة «لورد» السيِّد «فيلنيه» وهو رئيس المؤتمر الأنكليكانيِّ الفرنسيِّ، وهو يدعو بصراحة ووضوح إلى هذه «العلمانيّة الجديدة»، ويذكِّر الجميع أنَّ الكنيسة ليست سوى محاور، لا وصيَّة على الفكر وحريَّة الرأي، ويجب ألاَّ تتحوَّل إلى أداة قمع استبداديَّة! ثم نسمعه يضيف:

ـ «يبدو أنَّ ساعة العمل قد دقَّت! وعلينا الآن أن نعيد تعريف الإطار المؤسَّساتيِّ للعلمانيَّة.

لقد تغيَّرت هذه المؤسَّسات، وقد يكون هناك مؤسَّسات أخرى علينا ابتكارها!

يبدو أنَّ هذه هي اللَّحظة التي علينا أن نتصوَّر منها أشكالاً جديدة للعلاقة بين الكنائس والدولة. إنَّ طرح مثل هذه المسألة لا يعرِّض العلمانيَّة للتساؤل، ولا يسيء إلى مبدأ الفصل بين هذه المؤسّسات، بل قد يضع بعض أشكالها في خطر لا تستطيع الإفلات منه».

كذلك كان موقف رئيس أساقفة مدينة «ليْل» الأسبق يواجه المسائل الجديدة، ويدعو «الكنيسة» إلى دورها الإيجابيِّ، إذ هي قادرة على القيام بهذا الدور، والعمل من أجل تعزيز حريَّة الرأي فيقول:

ـ «أرى أنَّ احترام الوعيِّ يفرض أشياء غير رفض الجهل المُتَبَادل! في احترامنا لعلاقاتنا «المسيحيَّة» علينا أن نبحث عن القيم المُشْتَركة التي يمكنها أن تساعد في بناء الحياة الجماعيَّة على أكمل وجه[1]».

بعد عامين، وخلال مؤتمر حول «العلمانيَّة وموقعها اليوم»، وهو مؤتمر ترأسه القسُّ «جاك ستيوارت» رئيس الفيدراليَّة البروتستنتيَّة في «فرنسا»، تركَّزت النقاشات حول «التوتُّر الديناميكيِّ» بين «العلمانيَّة والديموقراطيَّة» التي جاءت بها ثورة [1789 ـ الثورة الفرنسيَّة]،

(1) Mgr Vilnet, dans La Documentation catholique, 1987, pp. 1127-1131.

«مكر فيلنيه»: وثائق كاثوليكيَّة ـ 1987 ـ ص1127 -1131.

وخاصَّة إعلانها الشهير حوق حقوق الإنسان والمواطن، وهو إعلان نموذجي يتعلّق بالفرد، ولكنَّه حدّد بشكل خاص حقوق الأفراد، وتجاهل تماماً الحقَّ الاجتماعيَّ!

كان من نتائج هذا الإعلان أنَّ العلمانيَّة التي جاءت على هذه الصورة لم تعترف، بل تجاهلت أيضاً العقائد الدينيَّة بخصوصيَّتها، وما تحمله من إرث تاريخي.

هي وجهة النظر التي فرضت سيادتها على قانون [1905] الذي أكَّد على فصل «الكنيسة عن الدولة»، وهو القانون الذي يمثِّل بحق ذروة العلمانيَّة الديموقراطيَّة وانتصارها الحاسم على كلِّ ما يحيط بها من تناقضات!

كانت التعدُّدية الدينيَّة في «الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة» قد تأسَّست منذ ثلاثة قرون، أي عام [1791]، وكان فصل الدين عن الدولة قد تمَّ في شروط اجتماعيَّة سمحت بإقامة علاقات أكثر انفتاحاً من جميع البلدان. نستطيع أن نتكلّم أيضاً من هذا الانفصال في ألمانيا وغيرها.

- «لقد حدَّد قانون [1905] كموضوع وحيد صيانة العبادة»، كما يقول القسُّ «ستيوارت»، ولكنَّ دور «الكنيسة بالتغيُّر تماماً في المجتمع منذ نهاية القرن التاسع عشر، إذ اقتصر نشاطها على الأعمال التقليديَّة، والمساهمات في الأعمال الخيريَّة، ومساندة النقابات.. الخ! يمكنني أن أقول: إنَّ قانون [1905] أعاد النظر في تكوُّن «العلمانيَّة» التي بدأت تأخذ «موقعها» في البلاد[1]».

(1) Jacques Stewart, «Laicité et démocratie»

إذن، أيمكن أن يصبح «الله» علمانيّاً؟

هو ذا سؤال تصعب الإجابة عليه كما يقول «فوليك رانجلهَيِّم»، ثمَّ يضيف قائلاً:

ـ «إذا لم يصبح «الله» علمانيّاً، فقد يتحوَّل إلى «بعض من العلمانيَّة» على الأقل! في هذه الحالة سوف تتشرَّف العلمانيَّة بهذا النصير الجديد.

ولكن في هذه الحالة ألا تفقد «العلمانيَّة» بعضاً من جوهرها في معارضتها الدياليكتيكيَّة للدين؟

ألا تكتفي «العلمانيَّة» المجرَّدة من جميع الأديان بهؤلاء الذين يجدون حرجاً في أنفسهم بالإيمان بمطلق لا يعترفون به[1].

في الواقع تواجه الكنيسة والكنيس [معبد اليهود] والجوامع الإسلامية في كلِّ مكان مكائد شتَّى يقوم بها «دعاة العلمانيَّة» أصحاب النوايا السيئة، إذ كثيراً ما نراهم يتساءلون:

- أيجب علينا احترام القساوسة؟

- ما الذي تعنيه العقيدة الإيمانيَّة «المفتوحة» اليوم؟

ـ ما فائدة اللقاءات والحوار والتأقلم مع هذه العقائد التي تراكمت عبر العصور؟

كلُّ هذه الأسئلة الشائكة نسمعها على الدوام، وكأنَّ الدين ضالع في أعمال مشبوهة للحصول على مكان في عالم اليوم!

«جاك ستيوارت»: العلمانيَّة والديموقراطيَّة ـ ص123.

(1)Foulek Ringelheim: «Dieu serait- il laique?»,

«فوليك رانجلهيم»: أيصبح «الله» علمانيّاً؟

هذه «العلمانيَّة الجديدة» ليست «جديدة» كما قد يعتقد هؤلاء المبشِّرون، إذ نراها بوضوح في التحاليل التي قدَّمها رجال الدين «الكاثوليك» حول «العلمانيَّة الدستوريَّة» للأعوام [1946 – 1958] عبر الأفكار التي تلت حريَّة الدين التي تتصدر المقام الأول على علمانيَّة فصل الدين عن الدولة، وهذا ما يتطابق مع غالبيَّة الأوضاع في البلاد الأوروبيَّة.

صحيح أنَّ الانفتاح هو الحركة الأكثر توازناً بهذا المعنى. ولكن ما العمل، ونحن نسمع أنَّ في «الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة» هناك مجموعات أساسيَّة من العلماء تريد إدخال فصول اختياريَّة في البيولوجيا «الخلاَّقة» في التعليم العام باسم التعدُّديَّة وحريَّة الاختيار؟!

هي نيَّة تحمل في طيَّاتها الشكّ والارتياب، وبعضاً من «الميكافيلليَّة» السيئة السمعة: إنَّ الذئب قد يكون متخفيَّاً في الحظيرة!

هنا، يجب على الأوفياء من دعاة «العلمانيَّة الحديثة» أن ينتهبوا إلى مخفيِّ القول، وأن يفهموا المعنى الحقيقيَّ الكامن وراء ما يقال، ذلك لأنَّ النشاط الجماعيِّ كلّه في موضع النقد والتحفُّظ. إنَّ الاستئثار بالميدان العامِّ سوف يؤدِّي بالضرورة إلى إضعاف «العلمانيَّة الجمهوريَّة»، وبالتالي سوف تتأثَّر «الدولة» نفسها بهذا الضعف، ولسوف تترك المجال الأخلاقيَّ لحفنة من «الحكماء» يشرفون على الأخلاق الجمهوريَّة.

يعتقد «جان بو بيرو» أنَّ على المجتمع أن يرجع أدراجه إلى «فضائل الأخلاق العلمانيَّة»، ذلك لأنَّ الأخلاق الشائعة اليوم ما هي سوى أخلاق متوحشة، مثلها مثل الرأسماليَّة البغيضة!

ولكي نخرج من هذا الوضع المأساويّ حيث «الفراغ الأخلاقيُّ» ونظامه البائس علينا أن نتوصَّل بشكل جماعي، وذلك من خلال الديموقراطية المتطوِّرة، إلى بناء أخلاق جديدة «للعلمانيَّة» دون استبعاد «للكنيسة» أو الرضوخ لتعاليمها بآن واحد[1].

(1)Jean Bauberot, La Morale laique contre l'ordre moral, Paris, 1997.
«جان بوبيرو»: الأخلاق العلمانيَّة في مواجهة النظام الأخلاقيِّ - باريس 1997.

7 ـ أيَّة تعدُّديَّة؟

كان «شارل بيغي» قد أكّد ذات يوم بقوله:

«تتجاذبنا زمرتان من البابويَّة، الزمرة «العلمانيَّة»، والأخرى التي تنتمي إلى «الكنيسة والإكليروس». الزمرة الأولى تنكر خلود الدنيويَّة، والثانية تنكر دنيوية الخلود»!

كان هذا منذ مائة عام تقريباً.. ومنذ ذلك الحين والجماعتان تخزّنان الأسلحة في المتاحف:

ـ ألم تصدأ هذه الأسلحة حتَّى الآن؟

ـ كيف نتجنَّب مواجهة قد تكون مؤسفة، بل خطرة؟

ـ أيمكن أن نحمل على ظهورنا في القرن الآتي الصراع القديم بين كهنة جرن الماء المقدَّس، ومناوئيهم، حملة الشمعدانات؟

لا أطيق سماع هذه التُّرهات، ولا أريد أن أسمع ادّعاءات هؤلاء الذين يريدون أن يفرضوا على الجميع رؤيتهم الخاصَّة حول «الله» والمجتمع! لا أتحمَّل رؤية جماعة، أيَّاً كانت، تضفي على نفسها شرعيَّة، واحتكار الخطاب «الحقيقيِّ».

تفوح من «الإكليروس» رائحة الزنخ التي تسدُّ الأنوف!

تفوح منه رائحة الادّعاء والزيف. إنَّه مشروع حاذق للسيطرة على الوعيِّ، ويا للأسف!

هو كائن غير مرئي للعين المجرَّدة، فلنحذر منه، ولنفهم أنَّ ثوب الراهب لا يعني الراهب نفسه، إذ طالما شهدناه وهو يلعب دوره الماكر في الكواليس...

كنَّا نعتقد أنَّنا عزلناه، وأنَّنا ألغينا وجوده بيننا! ولكنَّنا سرعان ما اكتشفنا أنَّه ما زال ههنا، في المكان الذي حسبنا أنَّنا قضينا عليه.

الآن، أفهم جيداً ما الذي كان يعنيه الوزير البلجيكيُّ السابق «جان ديفرينيه» عندما أسرَّ بخشيته من مصادرة وحجز أموال «الإكليروس» إذ قال:

- ««العلمانية» لا تعني أنَّ للدولة الحقَّ في نهب أموال الجماعات»!

إذن، ما الذي يمكن أن نعنيه «بالتعدُّديَّة في ظروف كهذه التي نعيشها؟

لا مجال للتعدُّدية حيث «الإكليروس»، وحيث نرى كلَّ جماعة تضع بيضها في سلَّة «الدولة» للحفاظ عليه، حتَّى دون إرادة في الهيمنة، ماذا نعني «بالتوفيقيَّة» بين مختلف الجماعات؟

لكي نعيد بناء النسيج الاجتماعيِّ الذي طالما تكلَّمنا عنه، علينا ألاَّ نثق بالتسامح السهل الذي لا يصمد أمام الأحداث، وهو التسامح القائم على التداخل في الحدائق الداخليَّة، دون تهيئة التربة المناسبة في حقليها [الاجتماعيُّ والسياسيُّ]، وهما الحقلان الأكثر أهميَّة في هذه الأرض التي نملكها منذ الأزل!

انظروا إلى «الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة»، وإلى الجماعات والأقليَّات وهي تعيش مع بعضها جنباً إلى جنب: البرتغاليُّون والإيطاليُّون والصينيُّون والأفارقة... أتخاطر هذه الوسطيَّة بخلط التسامح مع اللَّامبالاة، وهل هناك من خطر قائم قد يهدِّد بحرب بين هؤلاء؟

في الواقع أجدني أتحفَّظ حول هذه «التعدُّديَّة» في تعايشها الذي يدافع عنه أساتذة الحرم الجامعيِّ! هي تعدُّديَّة تعمل على إضعاف العلمانيَّة بلا شكَّ، ذلك لأنَّها ترفض أن تضع نفسها في تراكم مع الآخر! ماديَّاً، هذا يعني أن تأتي الفتاة وهي ترتدي الحجاب الذي يأخذ معنى واحداً، وهو العلم الذي يرمز إلى بلادها، والإشارة المميِّزة لها، كما يعني سلفاً رفض أيِّ حوار حول الهويَّة! أتذكر الآن موقف «نبيلة بن عايشة»، الأخت الكبرى للمغدورة الطفلة في «بروكسل» وهي في ذروة معاناتها إذ تقول بحدَّة وغضب:

«الحجاب يعني حريَّتي، وهويَّتي التي لن أتخلَّى عنها»!

هنا أستطيع أن أقول بأنَّ «الإكليروس» في حالة لم أعد أستطيع احتمالها! ومثل «كليمنصو» الذي ندَّد «بالإكليروس» في غرفة النوَّاب أجدني أردِّد كلماته التي ما زالت محفورة في ذاكرتي منذ أمد بعيد:

ـ «كلُّ ما أقوله هو ترجمة لشعور الشعب الفرنسيِّ إزاء «الإكليروس» الذي قال عنه صديقي الحميم «بيَّار»: ما «الإكليروس»؟ إنَّه العدوُّ الذي نراه أمامنا الآن»!

أمَّا العزل، فهو عدوٌّ آخر، ولعنة أخرى حلَّت على الجميع!

أن يقتصر الإيمان الدينيُّ على «الحياة الخاصَّة» وحدها فهو أمر لا أطيق تحمُّله!

ـ ما معنى هذا الإيمان الذي لا يرافق «تعدُّديَّة» انتماءاتي؟

ـ وما طبيعة الإيمان الغريب عن كلِّ ما يدور حوله من أحداث وقضايا تهمُّ الفرد والمجتمع على السواء؟

ـ وما دوره في تحديد مسؤوليَّاتي وعواطفي ومعركتي الخاصَّة في الحياة؟!

لا أطرح هذه الأسئلة «كمسيحي» ينتصر «لإنجيله» بل إنَّ ما أريده هو أنَّ أظلَّ كما أنا في حياتي العامَّة مع الآخرين، وهذا ما يعزِّز العلمانيَّة كما أراها.

لا يمكن «لمسيحي» يُشْهِر انتماءه كمواطن أن يقف مع «الدولة» طيلة الأسبوع، وفي الأحد نراه في الكنيسة يتلو صلواته المعتادة: هذه حالة من التناقض تضع الفرد بين حديْ «العلمانيَّة والإيمان»!

يبدو لي بكلِّ وضوح أنَّ العلمانيَّة «الخالصة»، أي المتشدِّدة بقسوة، والتي ترى عدم قدرة الفضاء العام على المشاركة تقودنا مباشرة إلى مأزق لا خروج منه، ذلك لأنَّه لا تقيم وزناً للاختلاف والتمايز بين البشر.

لا نستطيع أن نترك الحجاب في خزينة الثياب للفضاء العامِّ بحجَّة أنَّ «الدولة» وحدها القادرة على إعطاء هذا الحجاب معناه الخاص! إنَّ رفض المخزون الثقافيِّ القابع وراء فكرنا جميعاً قد يؤدِّي إلى مسخ العلمانيَّة حين نتركه يتكلَّم على هواه أمام الجمهور في العلن، وهناك ما هو أسوأ من هذا المسخ إذا تطوَّرت الأمور!

هذه النظرة الضيقة يمكن أن تؤدِّي بالمجتمع إلى حالة غير مسبوقة من الانغلاق، وأن تشجِّع الأفراد الأكثر تعصباً على طرح أفكارهم أنّى شاؤوا.

أتفهَّم جيِّداً الفكر المضادَّ «للإكليروس»، دون أن أعلم من أين جاء، وكيف جاء إلى مجتمعاتنا الغربيَّة، وأدرك كذلك أنَّنا بحاجة إلى حيوات جديدة كي نستطيع التخلُّص من ثقافة فاسدة تقطع الأنفاس، وتثير العواطف المرضيَّة بالشعور بالذنب.

علينا التخلُّص تماماً من الصور الكاذبة التي نضفيها على «الله» في عليائه، دون أن ننسى أنَّ الخروج من النظام القديم يتطلَّب الكثير من الديمومة في الصراع والمواجهة، بما في ذلك القصص والحكايا والخرافات التي تجد جذورها في أعماق الوعيِّ البشريِّ البائس.

هنا لا بدَّ أن أطرح سؤالاً طالما خطر ببالي منذ أن بدأت التفكير الجديَّ حول «العلمانيَّة» هذه:

ـ هل يحاول المجتمع العلمانيُّ فعلاً فهم التطوُّر الحاليَّ «للمسيحيَّة»؟

ـ هل أخذ بعين الاعتبار التغيُّرات التي حدثت في الكنيسة الكاثوليكيَّة منذ «الفاتيكان II»؟

لقد سرد لنا الوزير الاشتراكيُّ «آلان سافاري» بالتفصيل مسيرته على رأس الثقافة الوطنيَّة منذ [عام 1981 إلى عام 1984]، ولقد أثار حفيظة «العلمانيين» آنذاك حين حاولوا جهدهم إنكار تطوّر «الكنيسة»، فيقول:

- «جهد بعض «العلمانيين» في إنكار هذا التطوُّر، واعترف البعض الآخر منهم به دون أن يتقبَّلوه، واتَّخذ البعض منهم موقفاً غريباً: لقد اعترفوا بتطوُّر «الكنيسة»، ولكنَّهم ظلُّوا يتجاهلونه تماماً»!

هنا لا أطلب من «العلمانيين» أن «يصفِّقوا للكنيسة»، ولكنَّني أشجِّعهم على ألاَّ يظلُّوا جالسين في شرفات منازلهم وهم ينظرون دونما اكتراث إلى مستقبل الأديان، ذلك لأنَّ هذا المستقبل يمكن أن يتعلَّق بهم أيضاً، أكثر بكثير ممَّا يتصوَّرون!

في الجانب الآخر من المسألة أجدني أصاب بالدهشة أحياناً حين أرى بعض «العلمانيين» يتَّخذون مواقف متفاوتة، عديمة التجانس،

ويدلون بتصريحات «رسميَّة» يعترضون بها على السلوك اليوميِّ «للمسيحيين»!

أتذكَّر الآن نقاشاً نصحني به أحد الطلبة في «جامعة بروكسل الحرَّة»، وكان موضوعه يتعلَّق بالقيم «المسيحيَّة» والأخرى العلمانيَّة، وكان السؤال الذي طرحه الجميع هو:

- «أين نجد النقاط المشتركة بين هذه القيم»؟

بعد مرور أكثر من ثلاث أرباع الساعة على النقاش المحتدم سألني المشاركون حول... «البابا»!

في النهاية، وكنت مُتْعباً جدَّاً أجبتهم بأنَّ «البابا» لم يمنعني أبداً من النوم بسلام، ولا أدري ما إذا كان يمنعكم أنتم، الذين تتساءلون حوله من أن تناموا بهدوء وسكينة أيضاً!

لا يجهل «العلمانيُّون» المعركة التي خاضها أولئك الذين أطلق عليهم «فرنسوا بيران» تسمية «المسيحيُّون الأحرار الجدد»!

ولكن ما القوَّة التي يمثِّلونها يا ترى؟

كثيراً ما نسأل هذا السؤال حولهم، وكثيراً ما نسمع عديمي الإيمان، وهم يتشدَّقون بأنَّ الشجرة لا تخفي الغابة وراءها!

أمَّا بالنسبة لي فأرى أنَّ تجاهل هؤلاء «المسيحيين الأحرار الجدد» يحمل في طيَّاته سوء نيَّة مبيَّتة! هم يلعبون دورهم الروحيَّ، وحتَّى السياسيَّ من أجل الانفتاح والحوار، وهم أوفياء لتجاوز المعضلات البالية، واللِّقاء مع علمانيَّة إيجابيَّة، يعتقدون بصدق أنَّها ستحمل الخير، كلَّ الخير لهم، ولجميع الناس من حولهم!

بين الغزاة والمنفيين، أعني بين «الإكليروس» وأضداده مكان لمفهوم قوي، منظَّم، يحدِّد موقع التعدُّدية في حياتنا، أهو «اللَّون

الرمـادي الـداكن» كمـا سمّـاه «ريكـير» ذات يـوم، إشـارة إلى أنَّ الاختيـار الحقيقـيَّ اليـوم لـيس بـين «الأسـوَّد والأبـيض»، ولكنَّـه بـين «الرماديِّ والرماديِّ»، هذه حقيقة تنطبق على القرار الأخلاقيِّ، والبناء العلماني لهذا القرار أيضاً! يقول «إميل بولات»:

- «إنَّ ابتكار مثل هذا اللَّون الرماديِّ» وجعله لوناً حيّاً، شخصيّاً ليس سهلاً أبداً، ذلك لوجود حدود ليست ثابتة بين ما هو شخصي وعام، أعني بين ما هو ديني وعلماني، وهي حدود تمتدُّ إلى أبعد ممَّا نتصوَّر في الثقافة، والفكر عامَّة. من هنا تأتي المشكلة التي سوف تواجه الدولة: تسييس الحريَّات من خلال الحريَّة نفسها[1].

أخذت وجهة النظر هذه في «أوروبا» أشكالاً مختلفة من بلد لآخر، وظهر اللَّون «الرماديُّ» هذا بصورة متنوَّعة تبعاً لمسيرة التاريخ ومتطلَّباته.

في «فرنسا» مثلاً، بيَّنت «جاكلين كوستا لاسكو» كيف أن تحوُّلات العلمانيَّة لم تنتج على المثال الذي شهدته الأجيال المختلفة حول حقوق الإنسان: كان التحوُّل الأول سياسيّاً دستوريّاً محضاً، ومن ثمَّ امتدَّ إلى البعد الاجتماعيِّ والثقافيِّ لهذه الحقوق! إذن لقد مرَّت العلمانيَّة منذ ظهورها بمراحل مختلفة، بدءاً من مبدأ فصل الدين عن الدولة، إلى حياديَّتها، وذلك كي تصل منذ ذاك الحين إلى نضوج في «التعدُّديَّة الديموقراطيَّة».

في «ألمانيا» لازمت «الكنيسة» رسميّاً الحياة العامَّة كجزء منها، وتمتَّعت باستقلاليَّة تامة في إدارة شؤونها.

(1) Emile Poulat, «Comment definer la laicié»? p 107.
«إميل بولات»: كيف نعرِّف العلمانيَّة؟ ص107.

كانت الطوائف والهيئات هي التي تدافع عن الحقوق العامَّة، بالتنسيق مع «الدولة الفيدراليَّة»، وكانت الديانة قد أخذت مكانها كتعليم أساسي في حياة الشعب، وكانت تمثّل بطريقة مفتوحة التسامح والمؤازرة، مثلها مثل كلِّ ميادين المعرفة التي تغذِّي المواطن «الألمانيّ» بشتَّى العلوم.

بيد أنَّ الوضع في «بريطانيا العظمى» أخذ شكلاً خاصّاً به، ذلك لوجود مدارس عقائدية داخل التعليم العام نفسه، بمعنى آخر، لم تكن «الكنيسة الأنكليكيَّة» دولة بذاتها، كما هو الحال في «الدانمارك» مثلاً، ولكنَّها كانت تابعة «للدولة» تحت إشراف البرلمان، وهو إشراف الندِّ للندِّ، لوجود ستٍّ وعشرين مطراناً يمثّلون «الأسقفية الأنكليكيَّة» في غرفة اللُّوردات!

أما «بلجيكا» فقد عرفت بدورها «التعدُّدية الدستوريَّة» ولو بشكلها البسيط، إذ إنَّه في المسيرة التاريخيَّة لهذه البلاد كانت مختلف القناعات والأفكار ترتكز على قواعد اجتماعيَّة - أيديولوجيَّة أسَّست لما سمِّي آنذاك «إرشاد البلاد وتوجيهها»، وهذا يعني عمليّاً ربط العلاقة مع «الدولة» بمجموعات وسيطة: شبكات مدرسيَّة، مشافي، جمعيات.. الخ! أضف إلى ذلك النقابات المسيحيَّة «الفرانكوفونيَّة» في تضامنها المتبادل مع الاشتراكيين «التلاميذ».

هذا النظام أدَّى إلى صراعات مؤسفة قد تنفجر في مرحلة ما إذا ما استيقظت روح «الإكليروس» أو «العلمانيَّة»، في صفوف «حماة الدين» أو القادمين من شمال المعرفة التي ترفع الرايات الحمر!

إنَّ «العلمانيَّة» على الطريقة «البلجيكيَّة» ما زالت قائمة إلى اليوم، إذ أنَّ «الدولة» الحياديَّة تساهم في تعزيز أعمدتها على الرغم ممَّا تقوم به من إعانات ماليَّة لمؤسَّسات العقيدة.

داخل كلِّ جماعة من «العلمانيين» هناك تأكِّيد من «العلمانيَّة» على «التعدديَّة»! ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو:

- هل هي «التعدُّدية» الشاملة التي تجيب على أسئلة التاريخ في بحثه عن ترسيخ نهائي «للعلمانيَّة»؟

- ألا تعمل هذه «التعدُّدية» السريعة التشكل على إضعاف الدولة وهيمنتها؟

في الواقع نرى اليوم محاولة جادَّة لإعادة تشكيل المجتمع المدنيِّ على أسس جديدة: قليل من الوسيطيَّة للحصول على مواطنيَّة أكثر!

هنا لا بدَّ من الاعتراف بأنَّه مهما مرَّت من أحداث، ومهما تنوَّعت الثقافات والتقاليد التشريعيَّة، وأشكال النظم الحكوميَّة، يترتَّب علينا تعزيز «اللَّون» الرماديِّ الداكن، أي تنظيم «علمانيَّة» قائمة على التساؤل، كما يقول «آرشير»:

- «حيث يخضع الجميع للنقاش، وحيث تبدو المشاكل الدينيَّة والثقافيَّة على صورتها الحقيقيَّة دون تزيين أو خداع بصري، أو تهجين في النسيج الاجتماعي».

هذه العلمانيَّة التي تستند على «أخلاقيَّة الحوار» تتغذَّى من مختلف الضروع العقائديَّة والفكريَّة، دون أن تستعمر ذاتها بدوافع بعيدة كلَّ البعد عنها[1].

أحبَّ أن أسمع «ريكير» وهو يسمِّي هذه «العلمانيَّة» القائمة على التساؤل «بعلمانيَّة المواجهة»! قد تبدو الصيغة قاسيَّة وفظَّة، ولكنَّها

(1) Guy Haarscher, La Laicité, p. 123.

«كي آرشير»: العلمانيَّة - ص123.

تعبِّر عن حقيقة ما يجب على الدولة فعله: التشديد على المطالب الصعبة ومن ثمَّ تذليلها!

إذن يتعلّق الأمر هنا بتجاوز الحياديَّة، للتوصُّل إيجابياً إلى تعدُّدية في فهم العالم وشرحه!

هذا يعني ألاَّ تنظر «الدولة» من شرفتها إلى ما يحدث، وكأنها تنظر إلى حركة السير! إنَّ الدولة مسؤولة عن القناعات في تحوُّلها إلى أفعال، كما أنَّها هي من تغذِّي رؤوس المواطنين بما تريده من أفكار، تنسجم مع مصلحة المجتمع، وبالتالي تصبُّ في صالحها هي بالذات.

في المقابل، من المهمِّ أن نتكلَّم عن «عقد» بين الدين والقناعات الأخرى إذا ما أردنا الاحتفاظ بحقِّ التعبير والرأي! بمعنى آخر، علينا أن نقدِّم الدليل تلو الدليل عن إيماننا ووفائنا لمبادئ «الجمهورية»، ولا أعتقد أنَّني أتجاوز قدرة الكلمات على التعبير حين أستخدم صيغة «كنيسة المواطنة» للدلالة على الصلة الوثيقة التي لا يمكن فصل عراها بين الأفراد وانتماءاتهم المختلفة.

ليست «العلمانيَّة» مفهوماً جامداً، بل هي واقع تعدُّدي، حي وديناميكي. لنتأمَّل وجهها، إنَّه شاهد على ما مرَّت به من أحداث، فهو مليء بالأخاديد والجراح.

في مسيرتها، لم تتوقَّف «العلمانيَّة» عن الكفاح من أجل توطيد دعائم «التعدُّديَّة الديموقراطيَّة» واحترام حقوق الإنسان، وحريَّة الوعيِّ، ولم تزل إلى يومنا هذا في بداية الطريق!

نشهد اليوم أشكالاً مختلفة من صعود موجات تدعو إلى ما يسمونه «التماميَّة»، وهو مذهب يحاول الاحتفاظ بتمام الدين، يمثِّله الموقف «الكاثوليكيُّ» الذي يرفض كلَّ تطوُّر، ويأبى مجاراة الحياة الحديثة.

كما نسمع أصحاب المذاهب المختلفة، والطوائف التي تدعو إلى التمييز العنصريّ واستبعاد العروق البشريَّة «الوضيعة» على حدٍّ التعابير التي يطلقونها كيفما اتَّفق.

نرى «العنصريين»، وهم يرفعون الشعارات التي تدعو للغثيان والخجل.. ما دعا... جاكلين كوستالاسكو إلى القول:

ـ «إذا كانت العلمانيَّة قد تعوَّدت على نقاش الأفكار فهي مجرَّدة من أسلحتها في مواجهة العنف القادم من عصر آخر»!

هي تقترح في نهاية الأمر «علمانيَّة» ذات سعة مزدوجة! في هذه الحالة: تطوير التعليم فيما يخصُّ حقوق الإنسان حتَّى أبعادها الثقافيَّة والرمزيَّة، والعمل على نشر الفكر المؤمن بالتعدُّديَّة على أوسع نطاق.

العلمانيَّة حركة متقدمة في عجلة التاريخ. هي كرم وحريَّة، وهي فرصة ومطلب علينا تحقيقه بشكل لا يقبل التأخير أو التردُّد!

بيد أنَّه يجب على «العلمانيَّة» هذه أن تتجدَّد، أن تعيد بناءها على أسس جدليَّة تتجدَّد هي الأخرى أيضاً!

عليها ألاَّ تكون قويَّة أكثر من اللازم وألاَّ تكون ضعيفة هشة، سهلة الانكسار أيضاً.

حين تكون قويَّة أكثر من اللازم سوف تتحوَّل إلى أداة سيطرة وهمية، وسوف لن تسمح لمختلف العقائد بالتنفس على راحتها.

وحين تكون ضعيفة هشة سوف لن يكون بمقدورها خلق صلة اجتماعيَّة، هي أساس المجتمع «التعدُّدي»، وهنا أيضاً تنتظر منها القيام بدورها، وإثبات قدرتها على خلق هويَّة مشتركة، تتقبل برحابة صدر خصوصيَّة الجميع.

هذه السعة، والمواجهة بين «الرماديِّ الداكن»، وتسوية الأحكام بـين العـام والخـاص تـذكّرني بقصّـة رواهـا الفيلسـوف الألمـاني «شوبنهور»:

ذات يـوم شـتائي بـارد، تجمّعـت الخنـازير، ذات الأشـواك، مـع بعضها كي تدفأ، وتحمي نفسها من البرد القارس!

ولكنَّهـا مـا أن تلاصقت حتّـى بـدأت أشـواكها تنغـرس في جلـود بعضها البعض بـألم لا يطـاق، فابتعدت عـن بعضها كـي تتخلّص من هذا الألم.

ولكنَّ البرد كـان قاسياً جداً عليها، فبدأت تقترب الواحدة من الأخرى كي تدفأ مجدّداً، ولكنّها ما أن تلامست حتّى بدأت أشواك جلودهـا تنغـرس مجدّداً الواحـدة في الأخـرى مثيرة بذلك ألماً مبرحـاً، وهكـذا إلى أنَّ اكتشفت هـذه «الخنـازير» طريقـة مثلـى لتجمُّعهـا مـع بعض، دون أن تسبِّب الواحدة منهم ألماً لجارتها، وهي إيجاد «مسافة ما بين بعضها البعض»، وبذلك تخلّصت من هذا الألم.

الآن، أستطيع أن أعطي تعريفاً مناسباً للحياة الزوجيّة:

- «إيجاد مسافة ما بين الأزواج»!

كـذلك يمكـنّني أن أطبِّـق هـذا التعريـف علـى العلاقـة بـين «المسيحيين والعلمانيين» وإقامة علاقة بين المجتمع المدنيِّ و«الدولة»: - «إنَّ «إيجاد مسافة» ليس عمـلاً شـائناً يسـيء للعلائق، شـريطة أن يتّفق الطرفان على تحديدها واحترامها، كما يقول «ريلكه»!

الفصل الثالث

آفـــاق مفتوحـــــة..!

-«لا أجد أباً طيّباً يقبل أن نشبّهه بـأبينا السماويّ»!

-ديدرو-



1 ـ الغريق الأجمل في العالم:

ربما تعرفون قصَّة «كابربيل غارسيا ماركيز» القصيرة بعنوان «الغريق الأجمل في العالم»، والتي تروي حكاية غريق سبَّب الكثير من النقاشات في قريَّة يسكنها الصيَّادون، حيث قلَّما يتكلَّم فيها الناس.

أثار الغريق هذا أسئلة شتَّى حوله، خاصَّة عند النساء اللَّاتي تساءلن عن البلد الذي جاء منه، وعن اسمه، وما نغمة صوته، وما هي طبيعة عمله، أهو محارب أم بنَّاء، أيحبُّ اللَّعب مع الأطفال يا ترى؟

فيما بعد كشفن عن وجهه، كما كتب «غارسيا ماركيز»، وشاهدنه وقد أغمض عينيه، كان قد مات!

لقد بدا لهنَّ ضعيفاً، يشبه أزواجهنَّ إلى حد كبير، ممَّا أثار غيرة الرجال الذين كانوا ينظرون إلى نسوتهم اللَّاتي لم يخفين إعجابهن به!

ربما تشبه «المسيحيَّة» اليوم هذا الغريق «الأجمل في العالم»، وهي مسألة تقضُّ مضجع الباحثين عن حقيقة ما يحدث:

ـ ما مصير المسيحيَّة بعد أكثر من ألفي سنَّة من الكفاح والانتصارات والهزائم؟ إنَّ تساؤلات النسوة على شاطئ البحر هي نفسها التساؤلات التي نطرحها على أنفسنا حول «المسيحيَّة»، والتي تشبه «الغريق الأجمل في العالم»!

اجتمع المَجْمَع الدينيُّ عام [1869] للمرَّة الأولى، ولم تكن «العصمة البابويَّة» مطروحة على جدول أعماله آنذاك. كان الجوُّ متوتِّراً، والحوار على أشدِّه، إذ أراد المعتدلون إدخال بعض التغييرات على «الوضع الذي لا يطاق» في هذا المَجْمَع، ولكنَّهم اصطدموا بمعارضة شديدة من المتطرفين الذين استطاعوا أن يفرضوا موقفهم على الجميع.

في اليوم التالي كان الانتخاب [انتخاب البابا] قد بدأ! ولكي لا يعترض خمسة وخمسون من أعدائه على انتخابه، فقد انسحبوا، وغادروا «روما» دون أن يحضروا الانتخاب العتيد ذاك.

هكذا تبنَّى الحاضرون «العصمة البابويَّة» بتاريخ [18 تموز، عام 1870] بموافقة [553]، ومعارضة [2] فقط.

بعد يومين من هذا الاقتراع اندلعت الحرب التي كان لا بدَّ منها! لقد انقسم الأساقفة، وعلَّق «البابا» عمل المَجْمَع الديني فوراً.

فيما بعد استولى جيش الملك «فيكتور إيمانويل» على مدينة «روما» وأعلنها عاصمة «لإيطاليا».

لم يقبل «البابا - بي» التاسع بهذا، وأعلن رفضه وسخطة للعالم أجمل، ولم يكتف بهذا، بل فرض على نفسه السجن في «الفاتيكان» رافضاً جميع الاقتراحات التي قدَّمتها له الحكومة الإيطاليَّة، والتي اعترفت بدورها بسيادته الروحيَّة.

لم يتراجع «البابابي التاسع» عن قراره، ومنذ ذلك الحين لم تتوقَّف هذه المسألة عن إثارة الرأي العامِّ الكاثوليكيِّ، وتسميم الحياة السياسيَّة الإيطاليَّة، وإفساد العلاقة بين «الكرسي البابويِّ» والحكومات المتتالية!

كان يجب انتظار توقيع اتّفاق «لاتران» بين الكاردينال «غاسباري وموسوليني» بإنشاء «دولة الفاتيكان» عام [1929]، وبذلك هدأت النفوس، وحلَّ السلام الذي كان الجميع يتوق إليه..

فيما بعد كتب «جان سيلفان» قائلاً:

- «هي ذي هزيمة انتصرت أخيراً! لقد بيَّنت هذه العمليَّة العنيفة أنَّها شافيَّة وصحيَّة، إذ إنَّه منذ مائة عام تقريباً كان يمكن للباباوات أن يضيِّعوا فرصة الحصول على «دولة». لقد استطاع «البابا بي التاسع» أن يعيد الأشياء إلى نصابها، وأن «يعطي لله ما لله ولقيصر ما لقيصر»!

أيَّة صدمة هذه التي حدثت؟ وأيَّة فضيحة مثمرة، ملأى بالأحداث؟ وأيُّ نور استطاع أن يضيء ظلمات عصور عديدة من الإبهام والغموض؟

إذا كان «البابا» قد فعل ما فعل بدافع من الإيمان الخالص، واستطاع بذلك أن يفكَّ عقدة التناقض التي ظلَّت قائمة على امتداد سنين طويلة، فإنَّ رجال السياسة فعلوا ذلك لأسباب تتعلَّق بمصالحهم كرجال سياسة، ولكن السؤال يظلُّ يطرح نفسه إلى الآن:

- ألم يتأخَّروا كثيراً ببناء هذه «الدولة»؟!

لدينا الآن «العصمة البابويَّة»، المسألة الرومانيَّة.. إذن يترتَّب على الكنائس جميعاً أن تتحمَّل مسؤولية تاريخها، وأن تتجرأ على كشف حقائقها للجمهور، وهي حقائق لا تستطيع إخفاءها على أحد: محاكم التفتيش، الحروب الدينيَّة، المجازر، الحروب الصليبيَّة.. وكذلك العقد الذي قامت به في مناوأة المُحْدثين، والذي يشكِّل بدوره جزءاً من هذا التاريخ المظلم، دون أن ننسى، أو نتناسى دورها في العلوم

والحريَّة وقيم الإحسان والمحبَّة، تلك القيم التي ما زالت تنبض في قلوب الملايين إلى يومنا هذا.

هذا التاريخ المشرق، والمظلم بآن واحد، جعل «جان ديليمو» لا يتوقَّف عن البحث في التحقيقات عن الخوف والخطيئة والجنَّة والسعادة.. ما أدَّى به إلى القول بأنَّ صورة « إله » منتقم جبار شوَّهت حقيقة «الله» الذي نحبُّه ويحبُّنا، وجاءت بالخراب والدمار ل لبشرية جمعاء! إنَّ تشاؤميَّة «أوغسطين»، والاعتراف الإجباريّ بأدقّ حوادث الخطيئة التي يرتكبها الإنسان، والإصرار على تصوير الجحيم والهلاك الأبديّ، كلُّ هذه المخاوف كانت لعنة على جبين الإنسانيَّة المعذَّبة، ووصمت الأجيال بالعار والخجل!

ليست هذه المسيحيَّة التي نعرف جذورها الضاربة في أعماق التاريخ. لنتذكَّر جملة «ديدرو» المدمَّاة:

- «لا أجد أباً طيِّباً يقبل أن نشبهَّه بأبينا السماويّ!

يسألنا مجدَّداً «جان ديليمو» ما إذا كنَّا، نحن أبناء القرن العلمانيّ بعيدين عن هذه المراحل الشديدة الظلمة؟!

- «بعيدين»! لا أعتقد! ومع ذلك فقد شهدنا في الربع الأخير من هذا القرن بعض الثورات ضدَّ هذا الشكل المريب للمسيحيَّة، ليس فقط على صعيد الأخلاق، ولكن أيضاً على المستوى الفكريّ. لقد تشبَّثت «الكاثوليكيَّة» بإرثها، وها هي ذي الآن في طيّ النسيان في ذاكرة الذين لم يعيشوا ذلك الزمن القريب من زمننا.

بيد أنَّ هذه المرحلة من تاريخ «ما بعد المسيحيَّة» التي يتكلَّم «إميل بولات» عنها، ويرى فيها نهاية نمط الحياة «الأكليروسيَّة»، وظهور شكل جديد للفكر تتسلَّط عليه الكنيسة في الوقت نفسه ، شهدت

«نهاية العالم» في «هيروشيما وناغازاكي»، وأدَّت إلى تدجين الطاقة النوويَّة، وتفاقم البؤس البشريّ:

ـ «هو عالم آخر في الحقيقة، ولكنَّه عالم ذو وجهين: التمدُّد الذي يشكّل خلق العالم، والوجه القبيح المقابل له، بما يحمله من جوع وسجون وعذابات وهجرة ويأس..! هاتان التجربتان قاربتا بين النتائج: ما العمل في عالم كهذا؟ وما الذي يمكن أن نقول عنه؟[1]».

ما العمل، وما الذي يمكن قوله؟

علينا ألاَّ نخطئ في تقييم أعمالنا وأقوالنا هذه المرَّة! إنَّ عالم اليوم ليس في مرحلة «التحرُّر المراهق من «الكنيسة» المتسلطة، والتي لا تقبل النقاش: المأساة هنا أنَّ هذه «الكنيسة» لم تعد على مستوى «عالم اليوم» كما يقول «بولارت»[2].

من وجهة نظر علماء الاجتماع هو محق فيما يقول، ذلك لأنَّ الوقائع والأرقام تؤكِّد كلامه! غير مُجْدٍ إذن أن نربك الفكر بالإحصائيَّات التي تؤكِّد بانتظام على انشقاق الكنائس وتضادِّها، ونموِّ ظواهر حديثة كالمجموعات التي تنادي بتعميد الراشدين أكثر فأكثر. هذه المعطيات، مهما كان تحليلها، يجب ألاَّ تخفي الانحدار الذي يسم اليوم الصورة التاريخيَّة للمسيحيَّة في الغرب:

ـ ولكن عن أيِّ انحدار نتكلَّم؟

ـ وما الذي يهدف إليه هذا الانحدار؟

(1)Emile Poulat, L'Ere postchrétienne, Paris, 1995, p. 192.

«إميل بولات»: عصر ما بعد المسيحيَّة ـ باريس 1995 ـ ص192.

(2) المصدر نفسه.

ربما سيأتي اليوم الذي نرى فيه عربة التاريخ تدخل في حركة تحيل كلَّ ما هو روحي إلى حطام، وسوف نقول حينئذ: إنَّ الدين قد لفظ أنفاسه الأخيرة.

ولكنَّ هذا الذي نراه مجرَّد واقع لا هو مع «الله»، ولا ضدَّه، بل هو واقع يؤكِّد لنا أنَّنا نعيش في مرحلة «ما بعد المسيحيَّة».

لم تعد «المسيحيَّة» تتحكَّم بحياة الناس العامَّة، وهو أمر حسن كما أرى، بيد أنَّ هذا لا يمنع التساؤل حول مصيرها، أي إنَّ هذه «المسيحيَّة المستهلكة» والمُتْعَبة بآن واحد يمكن أن تحمل بعض الأشياء الأصيلة لمجتمع حضارة التقنية والمنفعة وتأليه المادَّة!

كان بودي أن أجيب بسرعة على بعض الأسئلة حول هذه «الأشياء الأصيلة» ولكنَّني وجدت أنَّ كلَّ شيء قد ألقي في البحر، حتَّى «الغريق الأجمل في العالم» دون تساؤل حول مصيره: ربما يتوجَّب علينا أن نبدأ من هذه النقطة بالذات، ونعلن بكلِّ صراحة بأنَّ «المسيحيَّة» لم تستكمل تاريخها بعد، وهناك الكثير من العمل أمامها في تاريخ البشريَّة.

- أيقيس المسيحيُّون اليوم حقّاً الانقطاع بينهم وبين هذا التاريخ؟

لا على مستوى الخطاب الدينيِّ فحسب، بل أيضاً على مستوى التطبيق والمؤسَّسات التي تشرف عليه.

هذه الملاحظة ليست جديدة علينا، إذ طالما أجاز تلاقي الثقافات مع التاريخ المُقَارن للديانات قياس الحالة التي وجدت «المسيحيَّة» نفسها كصرخة للحقيقة مع الكثير من الصرخات هذه، ومعنى ضمن معان أخرى... إلاَّ أنَّ الفرق يكمن بعدم حاجة الغرب إليها اليوم لمسيرة حياة المجتمع، وأنَّ المغامرة البشريَّة يمكن أن تتقدَّم من دونها، وأنَّ المتطلَّبات الأخلاقيَّة نفسها لم تعد تدور في فلكها الضيِّق!

ولكنّنا رأينا أن الكنيسة الرومانيّة رغم كلّ ما تقدّم، ورغم تخلّيها عن السلطة المدنيّة أرادت أن تستعيد دورها الحيويّ في حياة البشر الروحيّة! هل سيأتي اليوم الذي سوف تتخلّى فيه «الدولة» عن كونها الذراع القويّة للسلطة المدنيّة، والذي سوف تتمنّى فيه أن تتحوّل إلى ذراع روحيّة أشدّ قوّة وصلابة للنظام العالميّ الجديد؟

ولكن ليس هناك من نظام عالمي جديد بالمعنى الذي تريد «الدولة» استخدامه! أمّا «المسيحيّة» فهي ليست الوحيدة التي تشغل حقل الوعيّ البشريّ، و«علاج الروح»، وشقاؤها ليس حكراً على دين أو مذهب أو نظريّة:

ليست «المسيحيّة» وحدها التي استنكرت شواء اللحم البشريّ في أفران الغاز «الهتلريّة»، ولم يكن المسيحيُّون وحدهم أوائل الذين نادوا بهدم أسوار العبوديّة والرقّ في تاريخ العالم!

لا أدعو هنا إلى «جلد الذات»، أو التكفير عن الذنوب، فهذه مزايا لم تعجبني منذ بداية حياتي الّلاهوتيّة، بل إنّ كلّ ما أريد قوله يعكس قناعتي «بالتعدُّديّة» ومستقبلها، بعيداً عن التطرُّف الذي لا يجلب لنا سوى الشرور والكوارث!

هناك العديد من قصص «الميثولوجيا» التي تتردّد في أنحاء العالم، ومنها «الإنجيل» الذي يحكي لنا المغامرة على دروب «الجليل» منذ ألفيْ عام. أعتقد أنّ هذه المغامرة حقيقيّة وصادقة، وهي قد بدأت للتوّ رغم هذه الألفيْ عام التي مرت على تاريخها، وهي مغامرة «للمسيحيين»... فقط!

بيد أنّني أريد أن أقدّم «للبشريّة الثانيّة» التي تكلّم عنها «موريس بيلّلي»، وذلك كي لا تجفُّ ينابيع المعنى: أريد أن أدعو، مع الكثيرين من أمثالي، إلى مشاركة قصصنا التي طالما قرأناها، والتي تدعونا بدورها [على طريقتها الخفيّة] إلى المشاركة أيضاً دون مِنّة أو أذى!

2ـ أشعار الإنجيل:

ـ أيمكن تصوُّر حياة بلا قصص؟

أجدني في موقف مؤسف إزاء ما أراه من إهمال للقصص التي شدَّتنا إلى تاريخ من الانبعاث الفكريِّ، وتعزيز الإرادة للخروج من ديمومة نظام مغلق دونما نوافذ على الهواء الطلق!

هي الرغبة في التشبُّث بالجذور، واللِّقاءات الحميمة!

ربما سوف نعيش اليوم الذي نشهد فيه نهاية هذه اللِّقاءات، لأنَّ البشر لم يعودوا يتشاركون تجاربهم الخاصَّة، وأصبح كلُّ واحد منهم في وادٍ، وهو يحاول أن يصل برَّ الأمان.. وحيداً، دون أن يعتمد على أحد، ودون أن يسمح لأحد أن يعتمد عليه!

ولكن رغم هذه الخصوصيَّة في البحث عن الخلاص الفرديِّ يبدو لي أنَّه في الأفق هناك يلوح بصيص أمل ما، يروي لنا ما سلف من قصص وحكايا، تذكِّرنا بماض سعيد عشناه! هي الثقة بانبثاق شكل جديد للحياة، من خلال القصص التي كدنا أن ننسى ملامحها، وقد أصبحت بعيدة عن حاضرنا المؤلم!

ـ ولكن ما هي هذه القصص التي نتحدَّث عنها؟

هي شكل من أشكال الاستكشاف والسبر والمغامرة التي نلقي بأنفسنا فيها دون تردُّد أو خوف، ودون أن نستطيع تعريفها على الرغم من أنَّنا نقرؤها ونسمعها ونراها كثلم عميق يدخل أعماقنا.

«الإنجيل»، بهذا المعنى، هو قصَّة أيضاً!

إذا لم ننطلق من هذه الفكرة، وإذا لم نتذكَّر هذه الحقيقة الجوهريَّة ما الذي يمكن لنا أن نفهمه من هذا «الإنجيل» ومن «يسوع» الذي نحبُّه ويحبُّنا؟!

ألا نخاطر بالاعتماد على أسس زائفة في الحوار الدائر بين «العلمانيين والمسيحيين» إذا لم نفهم «الإنجيل» بحقيقته التي تنطوي على القصص والشخصيَّات والشبكات بين الصفحات، ونسمع الحوار تلو الحوار.. كي نتأكَّد أنَّ «الإنجيل» ليس نظاماً أيديولوجيَّاً، ولا هو بحث في الأخلاق، ولا كُتَيِّب في «القيم والفضائل»، وهي قيم رائعة يتمثَّلها «المسيحيُّون» في حياتهم اليوميَّة، ومع هذا علينا ألاَّ نخلطه مع أيِّ نوع من أنواع النظريَّات البشريَّة، إذ لا نستطيع اختصار الفصل الخامس عشر من «إنجيل لوقا»، لأنَّنا بهذا نكون قد أتلفناه تماماً:

- كيف نختصر قصة «النعجتين الضائعتين» دون أن نتلفها تماماً هي الأخرى؟

يمكن لنا أن نعيد قراءتها، أن نكتبها من جديد، أمَّا أن نختصرها فهذا يعني أنَّنا ندفع بها إلى الحفرة الأبديَّة!

«الإنجيل» ليس مجرَّد قصَّة، بل هو قصَّة حب وعشق!

ومثل جميع قصص الحبِّ والعشق نراه يتأرجَّح بين الوصال والصدود، بين الدلال وعناد العشَّاق، وهو لا ينسى أن يحافظ على المسافة التي تفصلهم!

لا بدَّ من وجود مسافة بين شعب وشعب، بين حضارة وحضارة، بين المسيحيِّ والعلمانيِّ، بين الرجل والمرأة..

إنَّ رفض وجود مثل هذه المسافة يعني الدخول إلى بوّابة الغموض والإبهام، أي الدخول فيما نسميه «الانفصام».

أولى درجات هذا الانفصام هي عزل العشّاق عن العالم الطبيعيّ الذي يكتنفهم! يقول «إيف بريجون»:

- «حين نقع في الحبِّ نقطع كلَّ صلة تربطنا بالعائلة والأصدقاء والأقرباء، كما نتنكّر للعادات القديمة التي تعوَّدناها، ولطريقة الحياة التي عشناها، ونبدأ شكلاً جديداً لوجودنا في هذا العالم[1]».

هناك انفصام ثان، هو بلا شكّ انفصام جوهري، خلاّق في التاريخ، ولكنَّه أشد ألماً أيضاً.

مع مرور الساعات والسنوات يكتشف العاشقان أنَّهما غريبان عن بعضهما البعض، ويدركان أنَّ هذه «الغربة» والاختلاف بينهما لا يمكن تجاهلها رغم قربهما من بعض! إذا كان لدى هذين العاشقين الشجاعة على تذكُّر ما جاء في «الكتاب المقدّس»، وتحديداً في سفر «التكوين» الذي يروي بأنَّ «الله» خلق السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح «الله» يرفُّ على وجه المياه وقال الله ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنَّه حسن، وفصل بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهاراً، والظلمة دعاها ليلاً، وكان مساء وكان صباح يوماً واحداً.

وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي

(1) Yves Prigent, L'Existence amoureuse p107.

«إيف بريجون»: الوجود العاشق، ص107.

فوق الجلد، وكان كذلك، ودعا الله الجلد سماء وكان مساءً وكان صباح يوماً ثانياً...[1].

يستطرد «الكتاب المقدّس» في رواية الخلق، خلق الحياة والطبيعة، وحين يتوصّل إلى خلق الإنسان يخبرنا بأنَّ «الله» خلق الإنسان على شاكلته، على صورته المثلى التي أراد أن يكرم بها «آدم» ونسله، وبهذا وضع الفروق والاختلاف منذ البدء، وحدَّد الحدود التي لا يمكن لأحد تجاوزها!

هناك انفصام ثالث أكثر «حميميَّة» يغمر القلب العاشق بالعواطف والأفكار، وهي العواطف والأفكار التي تؤدّي به إلى انقسام في ذاته!

هذه المرَّة يتبع العاشق تاريخه البعيد، تحت سقف الدار، إذ يشعر بأنَّه ليس هو، بل الآخر الذي يعتقد بأنه هو! يقول «رامبو»:

- «أشعر بالدهشة لاكتشافي بأنَّني غريب، وأحسُّ بالحاجة إلى الشجاعة لسلوك درب لم أتوقَّعه من قبل»!

هذه الأنواع الثلاثة للانفصام في قصص الحبِّ منثورة في صفحات «الإنجيل» وملازمة تماماً له، منذ بدايته حتى النهاية:

في عمر الثانية عشر انفصل «يسوع» عن ذويه، وفي الثلاثين، وفي الواحد والثلاثين، والثاني والثلاثين.. نسمعه يسأل: «مَنْ أمي؟ من هم إخوتي»؟!

هذا الاستئصال، هذا الاجتثاث المؤسِّس الذي يقطع ويبتكر ويشفي ويبدأ مرحلة جديدة في تاريخ عواطف الفكر الإنسانيِّ.. من يستطيع أن يجاريه في دربه الطويل نحو الحقيقة:

---

(1) سفر التكوين، الإصحاح الأول.

ـ «تعالوا، اتركوا شباككم وانزلوا بسرعة واتبعوني! استيقظوا أيُّها النيام، واتبعوني»!

وكمثل العشّاق هم كانوا يسمعون، وسرعان ما ألقوا بأغلالهم جانباً، وتجرَّدوا من عاداتهم وأصدقائهم، فإذا بألوانهم قد تغيَّرت، وإذا بنظراتهم تأخذ معاني جديدة، وإذا بأفكارهم لم تعد كما كانت في السابق! لقد «انفتحت» على العالم الجديد:

ـ «انظروا العصافير في السماء، وكونوا مستعدِّين للخدمة.. خذوا.. كلوا.. تعالوا افطروا معي أيُّها السعداء»!

نتأمَّل الفصام الثاني يدقُّ على أبواب القلب ونوافذه: هو يكشف التوتُّر وضعف الكائن البشريِّ، كما يعرِّي غرابته التي يحاول إخفاءها دونما جدوى!

ـ ولكن ما الذي سيحدث إنْ اكتشفنا بأنَّنا مخطؤون؟

ـ من هو ذلك الرجل الذي نتحدَّث عنه؟

ـ من أنت؟

ـ ولِمَ تتكلَّم بالحكم والأمثال!

ـ لِمَ أنت خائف؟

ـ ألم تفهم بعد؟

ـ بمَ تتجادلون؟

نجد أنَّ الفصام الثاني في مواجهة علنيَّة مع الفضيحة! نجده قد وقع في الشرك، في المعضلة التي طالما تجنَّبها.

لم يكن «بطرس» يريد من «يسوع» أن يصعد إلى «أورشليم» وبذا أصبح حَجَر عَثْرَة على طريق سيِّده.

لنتذكّر الحوار المؤثّر المثير للشفقة مع «بطرس» في اللّحظة التي أعلن فيها «يسوع» عن «آلامه»:

- «لا! هذا لن يحصل معك»!

- ثمَّ أنه استدار نحوه، وقال:

- «ابتعد عنّي أيُّها الشيطان! أنت تدفعني للزلل والخطيئة[1]».

يدعونا الانفصام الثاني إلى تجاوز عدم الفهم، وتحمُّل التناقض الذي قد يستمرُّ إلى النهاية. هي ساعة الشجاعة الحقيقيَّة في مواجهة الوحدة القاسية:

- «وحدَهم الذين لم يتذوَّقوا حلاوة الحبِّ لا يعرفون معنى الحيرة والاضطراب المدهش أمام ردَّة فعل كهذه، وموقف كهذا حيث يتقاسمون اللّيالي والأيام الموحشة.. يا لهؤلاء العشّاق المساكين[2]».

يظلُّ النوع الثالث للانفصام الأكثر حميميَّة وسريَة، بل ربَّما يظلَّ الأكثر قوَّة وإثارة للقلق، وهو لا يظهر فقط في نهاية الطريق.

ليست المسألة في تسلسل الأحداث، ولكنَّها في جميع هذه الأحداث على امتدادها تقوم بدورها كسبب للألم والاضطراب يتسلَّل عبر اللّحظات التي يشعر فيها المرء بالضعف والهوان أمام مصيره البشريِّ.

قد يحدث أن يعمل الانفصام الثالث على تعزيز قوَّة اليأس في القلوب، ورفضه بآن واحد:

(1) إنجيل متّى ـ 16 ـ 23 ـ ترجمة «أندريه شوراكي».

(2) «إيف بريجون»: الوجود العاشق ـ ص83.

ـ «حتّى لو سقط الجميع، سأظلُّ ثابتاً في مكاني! أأكون أنا ذلك الرجل الذي يبتلع الخطيئة القاتلة؟ أنا لا أعرفه!

هي القبلة التي سوف تشير إليَّ كي تسلّمني للجند المدجَّجين بالسلاح»! ما السوء الذي فعله هذا الرجل كي تصلبوه؟ كيف يولد رجل وهو شيخ عجوز؟ أجبني أيُّها «الله»، أجب على أسئلتي، هذه التي أطرحها عليك بمحبَّة الولد البارِّ الذي يسأل أباه المعرفة والحقيقة!

حتّى «بطرس» القدِّيس الأشدَّ اضطراباً وهياجاً من الجميع عرف هذا النوع الثالث من الانفصام:

ـ «في الواقع لم أفهم ما الذي أفعله: ما أريده لا أفعله، وما أفعله لا أريده»!

ـ «أتحبُّني أكثر من هؤلاء؟ سأل «المسيح» صاحبه «سمعان بطرس» ثلاث مرَّات متتالية، فأجاب «بطرس» سيِّده:

ـ «أجل أحبُّك! أنت تعرف أنَّني أحبُّك» ثلاث مرَّات متتالية أيضاً، قال «المسيح» له:

ـ «إذن، اذهب وارع غنمي». قال له ثالثة يا «سمعان بن يونا» أتحبُّني. فحزن بطرس لأنَّه قال له ثالثة أتحبُّني فقال له يا ربُّ أنت تعلم كلَّ شيء.

أنت تعرف أنَّني أحبك. قال له «يسوع» ارع غنمي. الحقَّ الحقَّ أقول لك لمَّا كنت أكثر حداثة كنت تُمَنْطِقُ ذاتك وتمشي حيث تشاء. ولكن متى شخت فإنَّك تمدُّ يديك وآخر يُمَنْطِقُكَ ويحملك حيث لا تشاء. قال هذا مشيراً إلى أيَّة ميتة كان مزمعاً أن يمجد «الله» بها. ولمَّا قال هذا قال له اتبعني[1].

(1) «إنجيل يوحنَّا» ـ الآية 6 — 24.

أسمع للمرَّة الأخيرة «إيف بريجون» يحدِّثني عن قصص الحبِّ والهيام التي يطفح بها «الإنجيل» بكلِّ ما تحمله من أحداث مفاجئة، وتعابير مجازيَّة رائعة، وشدو غنائي يثير العواطف الراكدة، وشخصيَّاته الحزينة التي تتراءى بين السطور! لم يعد للغرابة أن تقول شيئاً آخر بعد كلِّ ما قرأناه. إن «الإنجيل» ليس قصَّة حبٍّ فحسب، بل هو أكثر من ذلك، إنَّه لذَّة حسيَّة وذوق وكلام وشعر، هو، أخيراً شكل فريد من أشكال الغناء!

إنَّه لذة حسيَّة! بلى، هو كذلك!

منْ منَّا لم يفهم بأنَّ «الإنجيل» كان فماً وأذناً وأنفاً وعيوناً وأياد... من لم يحسَّ بأنَّ «الإنجيل» يُذْهِل الأحاسيس ويقلب كلَّ شيء أمامه، لأنَّه لم يخرج من رأس الإنسان، بل خرج من أعمق أعماقه وهو يبحث عن الملامسة كي يوجد الآن! هذا يعني أنَّ «الإنجيل» يأخذ موقف الحذر من التقوى والورع والتديُّن لأنَّه يخشى على نفسه من شدَّة «التقوى والورع والتدين»، ولذا قليلاً ما نسمعه يتكلَّم عن التفاني، بل كثيراً ما نراه ينظر بعين الارتياب والشكِّ إلى التجريدات الأخلاقيَّة لمعرفته الغريزيَّة الخالصة بأنَّ هذه التجريدات تحمل في ذاتها الموت والفناء.

في «الإنجيل» يعبر الّلا مرئيُّ من خلال المحسوس، من خلال النَفس والرائحة وعرق الإنسان.. فالدخول في «الإنجيل» يعني رؤية الشعر والفراش والإبريق والكفن.. كما يعني أيضاً التلذُّذ برؤية الحصاد، وسماع رنين قطع النقود.. الدخول في «الإنجيل» يعني اللِّقاء مع الجرحى والمكلومين على قارعة الطريق، والاستماع لامرأة بائسة بالقرب من البئر، ومصافحة الباعة والصَّيادين والمارَّة وجباة الضرائب أيضاً!

الدخول في الإنجيل يعني أن نراقب شجرة اللُّوز وهي تلبس رداءها المزهر، ونطيل النظر إليها وهي تتيبَّس شيئاً فشيئاً، مثلها مثل شجرة التين بالقرب منها! إنَّ الدخول في «الإنجيل» يعني تذوُّق الزيت، وتنسُّم الروائح العطرة، وشويَّ اللَّحم، وشرب الخمور: لقد جاء «الإنجيل» لكي نأكله!

هو محدَّد تماماً!

طوله ستون كيلو متراً، وعرضه لا يتجاوز الثلاثين متراً! هو أرض فريدة ذات نظام خاص له حياته وحركته المُشْتَركة مع الأراضي التي تحيط به من جميع الجهات.

تربته «الآراميَّة» تشبه التربة البريطانيَّة، وجميع الأتربة التي يتصاعد منها الغبار.

هذا التفرُّد يلتحق بدوره بالتفرُّد الذي تتمتَّع به جميع الأتربة، إذن فهو تفرُّد مادي، كوني، لأنَّه يعبر أرض سامرة الأمس، ويجتاز سهول «الخليل»، وسهوب «الأردن» اليوم: علينا ألاَّ نفصل بين ضفتيْ نهر «ميوس» ونهر «الأردن»، إذ لا مكان الآن للحنين القرويِّ، ولا للعودة إلى الطبيعة، والبحث عن الأصول لأنّ هذه البقعة اليهوديَّة الصغيرة نجدها في جميع أنحاء الأرض، إذا ما أردنا ذلك، وامتلكنا الشجاعة على التصريح بما نقول: نجد هذه البقعة اليهوديَّة الصغيرة من الأرض في كلِّ مكان نقصده، في المدينة، في برج من الإسمنت، في أعمدة الكهرباء، في الشوارع، في ذواتنا نحن بالذات..

نعرف هذه البقعة اليهوديَّة الصغيرة من صوتها وكلماتها التي تستخدمها، والجمل التي تبدأ «بالكلمة» البداية والنهاية، نعرفها أيضاً من الرائحة التي تنبعث منها في مرورها، منذ أن طرق «الوليد» على باب التاريخ!

هذه الرائحة ليست قويَّة، وهي ليست رائحة للدين أو للمقدَّس، بل هي رائحة للتسامي والتجاوز، ومعرفة ما وراء نظام المعرفة أو الخبرة. أعني معرفة الكينونة التي ينطوي عليها وجودنا الماديُّ!

انظروا مشهد الفتاة المشلولة، وهو مشهد كثيراً ما نراه في حياتنا اليوميَّة:

هو ذا «المعلِّم» يصل!

نراه يتنفَّس رائحة المكان، وهو يقترب رويداً رويداً دون أن يعلم ما ينتظره! هو ذا ظلُّه يلامس الفتاة المُقْعَدة ذات القلب الهادئ المطمئنِّ!

- «أتريدين الشفاء»؟ سألها «المعلِّم»!

- «اعلم أيُّها العابر الساذج أنَّني لم أعد أهتمُّ بما أريد» أجابته الفتاة المسكينة.

- «إذن، انهضي! واحملي فراشك واذهبي من هنا..».

قالها «المعلِّم»، واختفى قبل أن تدير الفتاة رأسها نحوه!

اندسَّ الرجل بين الجموع، وقد أثار الغيرة أكثر ممَّا أثار من الدهشة!

لا يحبُّ الأوصياء الخروج عن المألوف، ولكنَّهم لا يستطيعون أن يعيقوا المشاة في سيرهم أيضاً، ومع ذلك فقد سألوه:

- «أنت تتنقَّل كما تريد، وتنسى السبت»!

أجابهم:

- «لديَّ أمر بذلك»! سألوه باستغراب:

- «ممن هذا الأمر»؟

ـ «لا أدري»! لقد كنت بين الناس، أنظر إلى حركاتهم وإيماءاتهم، وفجأة سمعت صوتاً يقول لي: انهض، فنهضت! كنت أرى الدهشة في عيون الجميع، وأسمع الكلام دون أن أفهمه. لقد أصبت بالدوار. أجل بالدوار، ولِم أعد أريد أن أتذكّر ما حدث لي آنذاك[1].

أستطيع أن أقول بثقة واطمئنان بأنَّ «الإنجيل» هو قصيدة أيضاً.

لا تكمن قوَّة هذه القصيدة في كثرة الأشخاص، والنقد الّلاذع والخطاب والحوارات المزيَّنة والّلاهوت.. فقط! بل إنَّ قوَّتها هذه تتجاوز بلد المنشأ، وطبيعته الخلاَّبة، وفصوله الأربعة على التوالي.

دون هذا الجوِّ المشعِّ بألوان السماء المجاورة، ورائحة الرياح الخفيفة وهي تمرُّ وديعة حالمة، لا يمكن لنا أن نتكلَّم عن الشعر، أنتم تعرفون هذا جيِّداً، وحين أذكِّركم بالشعر، فأنا لا أقصد أن ألقي عليكم درساً، في الأدب، بل أريد فقط أن أتكلَّم عن قصيدة بذاتها. قصيدة هي ابنة اليوم وغداً. أيَّة فرصة من ذهب الجنَّة رؤية «المسيح» عابراً السهوب والقرى وهو يلقي بقصيدته.. تلكم الخالدة؟!

لا تتردَّدوا أن تكتبوا كلمة «قصيدة» بأحرف من نور. وإذا شئتم استبدلوا كلمة قصيدة بـ «كلمات»، لأنَّ الشعر الإنجيليَّ ليس سوى كلمات تحكي عن كلمات أكثر اتِّساعاً وامتداداً ممَّا نسمع!

لم تستطع «الكنيسة» التي طالما خدمت وخانت هذه القصيدة أن تمتلك ناصيتها! لم تفهمها لأنَّ هذه القصيدة ليست ملكاً لأحد، هي ليست ملكاً حتَّى «للإنجيل» نفسه! وعلى البشرية جمعاء أن تسمعها

---

(1) Jean Grosjean, Les Beaux Jours, Paris, pp. 14 – 16.

«جان كروسجان»: الأيام الجميلة ـ باريس 1980 ـ ص14 – 16.

كي تأخذ هذه القصيدة أبعادها، وتحقّق غايتها السامية التي جاءت من أجلها[1].

- من أين جاءت هذه القصيدة؟ وإلى أين تذهب؟

- ما الذي تريده منّا؟

- وما الذي تعرفه عن تاريخنا وجراحنا ومآسينا التي تفوح منها رائحة تاريخ تعفّن منذ بدأ الإنسان يفهم أنّ الملكية هي القوّة، وأنّ القوّة تعني استثمارها!

هذه القصيدة ليست دينيّة بالضرورة، فهي تنادي، وتوقظ النيام، وتفتح الأبواب المغلقة، دون أن تدهس أحداً، ثم تعود أدراجها:

- «من يكرّس نفسه من أجلها يموت شابّاً، في أي عمر كان[2]».

إذن لنضع الحواجز فنسدّ عليها الطريق، ونوقفها عند حدّها!

ولكنّنا نراها تعبر رغم هذه الحواجز! وعلى الرغم من الثرثرة التي تدّعي ملكيتها، وحمل رايتها، نراها تهرب إلى اللّا مكان: إنّها تخشى أن تصبح المتحدّثة الرسميّة باسم أحد. لذا فهي تحتجب كلّما اقتربوا منها، وتختفي بين الجموع دون أن يراها أحد، وتستمرُّ في انسيابها، وغنائها الشجيّ، السماويّ الذي يفطر القلوب!

إنّ «الإنجيل» بهذا المعنى أغنية تستولي علينا دون أن تدري! هو نوع آخر للموسيقا، وصوت نسمعه في غابة الإشارات! وهو هواء غريب ومألوف، بعيد وقريب معاً.

---

(1) Bernard Feillet L'instant l'éternité, Paris, 1978, p. 61.

«برنارد فييّ»: اللّحظة الأبديّة - باريس 1978 - ص61.

(2) المصدر نفسه.

هل قلنا ما يكفي حول الدرجة التي تقرِّبه بين الذاكرة، من الكلمات؟ من انعطاف الصوت؟ من النَفَس الذي يبعث الحياة؟

في محاضراته التي ألقاها في «الكلية التطبيقيَّة للدراسات العليا» كنَّا نسمع الأستاذ «مارسيل جوس» الذي طبعت دراساته جامعتا «لوفان والسوربون» وهو يصف «الإنجيل» بالرواية الحيَّة في المعنى الرائع الذي استخدم فيه هذه الصيغة المحبَّبة!

إنَّ «المعلّم» الذي يلقي دروسه يستمدُّ قيمته ممَّا يلقي، ويذكّر تلاميذه بالحقائق التي يبحثون عنها.

إذن، ما قيمته إذا لم يمارس قوَّة ملَكَته الفكريَّة على الذاكرة الجمعيَّة لتلاميذه؟

نسمع أغنية «الإنجيل» تتردَّد في أصوات أربعة[1]:

أربعة أصوات لأناس لم يبحثوا عن وفاق فيما بينهم:

هم يعيشون أربعة أشكال للتاريخ، أربع ذاكرات مختلفة، أربع حيوات متنافرة، ولكنَّهم ينشدون بصوت واحد! يقول الشاعر «بريتون كيفيك»:

- «حين نسمع هذا النشيد بصوت واحد لا نهزم أبداً، ولا ندري من نحن، ومن هم»؟!

(1) إشارة إلى القارَّات الأربع، واختلاف الأعراق البشرية ـ المترجم.

3ـ أغنية العابر الصغيرة:

ليس هناك من «مسيحيَّة» دون القصص «الإنجيلّي»، وليس هناك من «إنجيل» دون هذا اليهوديِّ المسمَّى «يسوع»!

من هو ذاك الجليليُّ الغامض الذي يرجع إليه الرجال والنساء من «المسيحيين»، وغير «المسيحيين» أيضاً؟

لا أريد هنا أن أعيد كتابة حياة «يسوع» باختصار، بل أريد أن أرسم الملامح الأساسيَّة للخصوصيَّة المسيحيَّة وتفرُّدها، ولذا أجدني للحظات قليلة أسير برفقة هذه الشخصيَّة الغريبة والساحرة، والتي يتَّفق الجميع على أنَّها الشخصيَّة الأكثر غرابة في تاريخ البشريَّة.

لقد كان «يسوع» يهوديَّاً من «الجليل»، كان و«ساميَّاً» يتعبَّد بالعبريَّة، ولكنَّه كان يتكلَّم اللُّغة الآرميَّة، لغة المنطقة التي كان يعيش فيها، وكان يعرف مصيره لو أنَّ أحدا ما باسم «بول تاريس» لم يمرَّ على هذه المنطقة. يقول «فرانسوا بيران» بهذا الصدد:

ـ «إنَّه الثبور والويل الذي حلَّ بالمسيحيَّة لانتشارها باللُّغة اليونانيَّة، على يد يهودي هيليني، وهو «روماني» كمواطن في الوقت نفسه.

لم يكن «جان كرواسجان» بعيداً عن وجهة النظر هذه حين عاب على بطرس» خلطه عواطفه مع البراهين التي كانت بين يديه! يقول شارحاً موقفه هذا:

- «يدّعي «بطرس» أنّه رأى «يسوع»! حسناً، إذن لماذا حولّه إلى جوهر يستطيع أن يحلّ المشاكل الزائفة حول ثقافته المزدوجة، وهي الثقافة [اليهوديّة - اليونانيّة]؟

لقد تبنّى الشكل البلاغيّ المؤثّر الذي يستخدمه الأنصار السياسيُّون والمتجوِّلون من التّجار! نحن نفهم جيداً تردُّد القدِّيسين وتحفُّظهم حول هذه المواضيع!

أعتقد أيضاً أنّ الثقافات الساميّة هي نفسها التي تستبعد أقلّ ما في الإنسان من إنسانيّة!

لكي نسمع «يسوع» ونفهم «الإنجيل» من خلال غموضه الأساسيِّ، ولكي نجد هذا الصوت الأصيل من خلال «التعدُّدية» السعيدة في تحليلاتها النهائيّة، علينا أن نوقظ ذاك «الآراميّ» الغافي في أعماقنا!

هذه ليست مسألة تتعلّق بالثقافة، بل هي مسألة «ذهنيّة» خالصة!

كذلك ليست هذه مسألة دعوة للولوج إلى قلب الدراسات الشرقيّة الصعبة للانفلات والتملُّص من قسوة الحاضر وشراسته. لا، هي العكس من ذلك تماماً، لأنّها مسألة «يسوع» نفسه، «يسوع» ابن زمنه هو، ولذا فهو لنا، نحن الذين انتظرناه طويلاً على بوّابة الياس والذلِّ والآلام..

حين أتكلّم عن إيقاظه، لا أعني الحفاظ على «نقاء» البداية، بل أقصد أن أعيد الحياة لكلام في بقعة من الأرض، تقع في قلب ثقافتنا نحن بالذات!

لم يكن «يسوع» طبيباً، ولم يكن مصلحاً، ولا مؤسّساً، بل كان مُوْحٍ، وكاشف أسرار!

لقد كان يضطرب في كثير من المواقف، كما كان يستشيط غضباً أمام الأحداث، انظروا إليه وهو يحاور الجميع في «إنجيله»، وكيف يمارس فنَّ التهرُّب، ويتلافى الوقوع في حبائل الشيطان نفسه!

لم يكن «يسوع» يخش اللَّبس والغموض في حواره مع الطرشان! كان أقلَّ صبراً من «سقراط» حين يراوغ وينحرف ويضحك ويغضب!

نراه يحوِّل السؤال فجأة إلى زاوية لا ينتظرها محاورة. وفجأة يفقد محاوره الثقة بنفسه، وهو ينظر إليه بصداقة، دونما خبث أو مكر في العيون!

نفهم أنَّ أقرباءه كانوا يحاولون الدفاع عنه، وكانوا يردِّدون على الدوام: «إنَّه لا يعي ما يقول»!

لم يترك «يسوع» كتاباً، ولا منهجاً، ولا طريقة يتَّبعها المؤمنون به، بل أنَّ كلَّ ما تركه مجرَّد إشارات مبهمة على الرمال عندما كان يضطرُّ إلى ذلك، مثل حكمه على المرأة الزانية [إنجيل يوحنا ـ الآيات 1 ـ 11]: أيُّ مشهد رائع كهذا، رسم فيه «شاعر الرحمة» مصير هذه المرأة العاشقة بكلمات من الرياح؟!

كنت أتمنَّى أن أصغي للصمت في اللَّحظة التي كان الرجال ينسحبون الواحد تلو الآخر وهم يلقون بالحجارة من أيديهم بدءاً من أعتاهم على مفاهيم الرحمة والتسامح.. وأن أسمع الحوار الغريب، والعذب بين «المعلِّم» والمرأة وجهاً لوجه، وهو الحوار الأشدُ تأثيراً في «الإنجيل» كلِّه:

ـ «أيَّتها المرأة، أين ذهب هؤلاء الرجال؟ لم يعد هناك من أحد يدينك.. أنا أيضاً لا أدينك، فاذهبي في طريقك!

حين نحاول إعادة بناء ما أسماه «جان كلودرونار» بتحوُّل «يسوع» من خلال «تعدُّديَّة الأناجيل» سوف ندهش أمام واقع مربك: نرى «اللّه» يخرج، ويخاطر بنفسه، ويتعرَّض للجراح.. هنا علينا ألاَّ نبحث في مكان آخر عن خصوصيَّة «المسيحيَّة» لأنَّها ترتكز على هذه الفكرة «المجنونة» التي يتفرَّع عنها كلُّ ما سيأتي، فيما بعد من أفكار: «يسوع» يجرِّد «اللّه» من أسلحته، وهذا هو الاختيار الجوهريُّ»، كما يقول «جان ماري ميللّر»، وهي المسألة اللّاهوتيَّة المركزيَّة: «إنَّه إله السلام، ولكنَّه إله بلا سلاح»!

- ما الذي قاله «يسوع»؟

لقد قال أشياءً لم يكن أحد يفكِّر فيها: لقد أقام خيمته بيننا. «منذ البداية كان كلامه عن العمل، والعمل مع «اللّه»، أي ألم الولادة، يعني أنَّه لم يعد هناك من ضرورة للنظر إلى السماء، ذلك لأنَّ «اللّه» المتعالي هو نفسه «اللّه بيننا في الأسفل»، و«اللّه» الكليُّ القدرة أصبح «النعمة الكليَّة» بين أيدينا!

تلكم هي الشجاعة، والجِّدة النادرة في تاريخ البشريَّة: لقد مهَّد «إله التوراة» الطريق من قبل، و«يسوع» لم يكن الوحيد الذي عبَّر بهذه القوَّة والصراحة عن وجود الألوهيَّة! الفرق هو أنَّ «يسوع» كان سَكِراً «بإلهه» إلى حدِّ الثمالة!

يخطر ببالي في هذه اللَّحظة «الحلاَّج»، وهو صوفي كبير صُلِب في «بغداد» عام [922م]، لأنَّه كان يتجوَّل في الشوارع وهو يهذي ويردِّد: «أنا اللّهُ، أنا اللّهُ[1]».

---

(1) كان يردِّد: أنا الحقُّ أنا الحق، وهما كلمتان لمعنى واحد. المترجم.

هنا نجد أنفسنا للمرَّة الأولى، على خلاف تجارب أخرى من الطبيعة نفسها ، أمام حريَّة ذات بعد استثنائي بين الإنسان و«الله»، أي بين العنصر الإنسانيِّ و«الألوهة»!

أن نضع «الله» في عليائه، هو أمر اعتدنا عليه منذ فجر الإنسانيَّة، وهو مكان سام يليق به، بيد أنَّه مكان خطر عليه، وعلى الإنسان، وعلى صورته المثلى، بآن واحد.

أن نضع «الله» بمكان مادي هي فكرة تدعو للإعجاب على الرغم من أنَّها فكرة خطرة أيضاً، إذ تغلق على الإنسان في ذاته، أعني أنها تسجنه داخل ذاته!

لقد رفض «يسوع» الاختيار بين مستويين «لله»، لأنَّه أراد الاحتفاظ بكليهما: «لقد كان مأخوذاً بمعلوليَّة «الله» والإنسان معاً، وكان يعمل على دمجهما بهويَّة واحدة، وبذلك حوَّل «المسيحيَّة» إلى دين يؤكِّد على الوجود الجوهريِّ «لله» والإنسان معاً[1]».

تكمن عبقريَّة «المسيحيَّة» إذن في «الله» الذي لا يمكن تصوُّره، وهو «الله» المثاليُّ الكليُّ القدرة، ومع ذلك نراه مُنْهَكاً، خائر القوى، جريحاً، كما لو أنَّ عليه أن يخرج من ألوهيَّته كي يصبح «الله» فعلاً!

- أهو شاعر، كما يحلو للبعض أن يصوِّره؟!

ولكنَّه يحتاج إلى قوَّة الشعر كي يقارب بين هذه «الجوهريَّة» في كينونته و«الإله» الذي يتخلَّى عن مركزه، ويلقي بنفسه خارج نفسه، مخاطراً «بالألوهيَّة» إذ إنَّه سوف لن يكون «إلهاً» بعد اليوم!

(1)Adolphe Gesché, Pourquoi je crois en Dieu, p. 12-13.

«أدولف جيسشي»: لِمَ أؤمن «بالله»؟ ـ ص12 -13.

هكذا، وعلى خلاف جميع ما شهدنا من قواعد وتقاليد، أشاع «الله» سرَّه المُغْلقَ.. كما لو أنَّ كلمة استعصت على شفتيه، وأفلتت من فمه.. كما لو أنَّ «الأب» أرسل «ابنه» كي يكبر وينمو في الغربة كي يستطيع، فيما بعد أن يقوم، بعيداً عن كلِّ حماية، بالتجربة الجديرة بأبيه[1].

«إله» ضعيف لم يعد يملك شيئاً. إله يافع، صديق للإنسان، وديع، فائق الوصف! صوته الذي يشبه صوت اليمامة!

ـ أحقّاً ما زال هو «الله»؟!

هناك الكثير من البشر الذين لا يستطيعون أن يؤمنوا به «كإله»!

أتفهم ما يقولون، ولكن عليهم أيضاً أن يفهموا بأنَّني لا أستطيع أن أؤمن «بإله» سواه، إله بلا سلاح، قريب منّا، وعلينا أن نحميه ونساعده، كما لو أنَّه يعاني تصدُّعاً في أناه المطلق!

بهذا المعنى أرى أنّه علينا أن نعطف عليه: أن نخرجه من وحدته القاتلة التي يعيشها، وأن نفكَّ عنه سحر العجز الذي هو عجزنا نحن، كي نتمكَّن من الخروج معاً إلى الأرض الموعودة في ما وراء الخيال.. يقول «جان كلود رونار»:

ـ «يبدو لي أنَّه إذا لم نستطع فعل شيء من دونه، فذلك لأنّه، هو الآخر، لا يستطيع فعل شيء من دوننا! وعلى هذا يترتَّب علينا أن نوحِّد ضعفنا وآلامنا كي نشفى من العجز والهلاك[2]».

---

(1) Jean Grosjean, Araméennes, p. 154.

«جان كروسجان»: آراميات ـ ص154.

(2) Jean- Claude Renard, Le Lieu du voyageur. Notes sur le Mystére, Paris, 1980, p. 111.

«جان كلودرونار»: المكان الذي يقصده المسافرون ـ ملاحظات حول الغرابة ـ عام 1980، ص111.

هـو تقليد صـوفي طويل يتبـع هـذه الشـهادات المعاصـرة، تقليـد يهزُّنـي، ويزعـزع كياني، ويفتح عينيَّ علـى الحقـائق المدهشـة عنـدما يصفعني على وجهي فجأة، وبقسوَّة:

ـ «أنـت مسـؤول عـن «الله». امسـكه بيـديك الاثـتين. لا تـتكلّم كثيراً عنه، فتفسد معناه»!

ألاَّ أتكلـم كـثيراً عـن «الله»، وألاّ أضـفي عليـه الكـثير مـن الأهميَّة.. أحبُّ سماع «أدولف جيسشي وهـو يـردِّد بـأنَّ «إلـه يسـوع لـيس حاضـراً علـى الـدوام، فهـو بحاجـة لأن يسـتريح، وأن يأخـذ إجـازة، ويـذهب في عطلـة.. هـو الآخـر، فيسـمع الموسـيقا، ويمـارس هواياتـه.. ولكن في الهيكل[1]».

لا يخاف «يسوع» من تماثله مع «الله»، حتَّى النهاية!

كما أنَّه لا يخشى أن نشبِّهه بالإنسان أيضـاً. وهـو يشـعر بالعزيمـة والحريَّة حين نقوم بفعل ذلك.

تدَّعي الروائيَّة «سلفي جيرمان» بأنَّ «يسوع» تكلَّم بسـاقيه أكـثر ممَّا تكلَّم بفمه.

ـ «صحيح أنَّـه لم يسـتقرَّ بمكـان، وأنَّـه ظلَّ يتنقل طيلـة حياتـه القصيرة!

وصحيح أيضاً أنَّه كان يفاجئ الجميع باختفائـه وحضـوره، وأنـه لم يكن موجوداً حيث ننتظره، وكـان مـاثلاً أمامنـا حـين كنَّـا نعتقـد أنَّه هناك، في مكان آخر! كلُّ هـذا، ونحـن نسـمعه يرتجـل خطاباتـه

---

(1) لِمَ أؤمن بالله؟

بين الجموع، في الصحراء، بالقرب من البحيرة، على ضريح أحدهم، وفي الكنيس حيث يقلب الموائد على الجالسين، مرابيْ «اليهوديَّة» وأصحاب النفوذ اللّاهوتي...

كان هو، العابر بين الجموع، في طريقه الذي اختاره دون أن ينسى أن يتوقّف أحياناً، وينظر، ويتأمَّل ويدخل في «أخوَّة» مع المناظر الطبيعيَّة، والحيوانات، ويدرِّب الإنسان على العبور معه للتفوُّق على الذات وتجاوزها.

في كلام هذا العابر أكاد أسمع أشياء ثلاثة، وكثيراً غيرها من الأشياء أيضاً. ولكنَّني أحبذ أن أتوقف عند هذه الأشياء الثلاثة فحسب: [انهض وامش. اعطني ماءً لأشرب. تحابُّوا].

هي كلمات ثلاث، تأخذ شكل أوامر في «الإنجيل»، وهي حالات طارئة نتمكّن من خلالها توقُّع الطريقة التي يستخدمها هذا «الربَّانيُّ يسوع» في تحديد ما يريد: الدعوة إلى.. ثمَّ الحريَّة، ثمَّ المحبَّة والرحمة!

- «انهض وامشِ»!

لم يكن «يسوع» يهتمُّ بتنظيم ما سيحدث، ولا بتشجيع ما سمَّته الكنيسة «الكاثوليكيَّة» يوم الدعوة إلى الله، إذ إنَّه حين قال «انهض وامشِ» خلق العالم للتوِّ!

إنَّه تكوين جديد يخرج من الّلا شكل والفراغ.. هذه العبارة «انهض وامش» تمثِّل إعلاناً أوليَّاً لحقوق الإنسان[1].

---

(1) Jean Debruynne, L'Evangile du poéte, 1990, p. 212.
«جان دبرين»: إنجيل الشاعر - 1990 - ص 212.

لم يتوجَّه «يسوع» بقوله «انهض وامشِ» للجموع الغفيرة من حوله، ولا إلى المُعَاق وحده، لقد ذهب مباشرة إلى باب البشرية كي يقرعه! وكان ينتظر منه أن يُفْتح. كان باب البشريَّة هذا هو الوجه! إذن، سوف تكون هذه العبارة «انهض وامشِ» في وجه كلٍّ واحد منَّا بلا استثناء. هي عبارة تلائمني، وتعيدني إلى ما أنا عليه حقّاً، وتضعني في موقعي الصحيح في هذا العالم، وفي اللَّحظة نفسها التي أسمعها عبر صفحات «الإنجيل»، مع النور الذي حولي، والذي هو ليس لي أيضاً! تعبر هذه العبارة صفحات الإنجيل مع ظلماء الخارج والداخل لهذا العالم الذي يحيط بنا من جميع الجهات!

هذه العبارة تنتزعني من ذاتي. وتدعوني إلى أن أصبح أفضل منِّي! إنَّها توقظ الصوت الذي يسكنني، وتلزمني باستقباله، والوثوق به. هي عبارة تشفيني تماماً: إنَّ «يسوع» حين قالها بدا معالجاً كطبيب، ولكن ما الذي كان يريد أن يشفيه؟ كان يريد أن تزهر الحقول والأشجار في غير أوانها، وكان يريد من هذه الأشجار أن تحمل ثماراً مستحيلة، وكان يريد منَّا أن نعطي ما لم يكن لدينا: في «الإنجيل» نرى الشفاء والدعوة إلى الربِّ يسيران معاً، يداً بيد، كأختين توأمين لا يمكن التفريق بينهما!

ليست عبارة «انهض وامش» عبارة سحريَّة، فهي تأخذ وقتها كي تفعل فعلَها في حياتنا، ربما العمر كلَّه، وهي بحاجة لأن يقوم كلام آخر بجرحها، وهي تريد أن تتابع سيرها في الطريق المحدِّد لها. إنَّ النداء الذي يدوِّي في «الإنجيل» على امتداد الصفحات نداء كي تحمل هذه العبارة «انهض وامشِ» قنديلها في الدروب المظلمة نحو طفولتها التي تنتظرها.. ها هناك[1]!.

---

(1) Christian Bobin, L'Homme qui marche, 1995, p. 11- 12.

«كريستيان بوبان»: المشَّاء ـ عام 1995. ص11 – 12.

إنَّه لأمر غريب يدهشني في موقف «يسوع»، وهي صفة نادرة، استثنائيَّة، تسكن أعماق شخصيته:

- إنَّه لا يخاف أبداً!

لا يخاف من «السامريَّة» لأنَّها «سامريَّة»، ولا يخاف من المرأة لأنَّها امرأة، ولا يخاف كذلك من منتصف الظهيرة، ولا من تذمُّر تلاميذه، ولا من المثل الشعبيِّ المأثور الذي يدَّعي بأنَّ «كسرة خبز من يد السامريِّ أنجس من لحم الخنزير»!

لا يخاف «يسوع» من كلاب «الكنعانيين» التي لا تتوقَّف عن النباح، ولا يخشى ملامسة الأبرص والأعمى، وهو يشارك العشَّار مائدة الطعام، ويأخذ بيد ابنة رئيس «الكنيس اليهوديِّ». إنَّ يسوع «لا يخشى أن يكون هو نفسه، «يسوع» الذي نعرفه!

- من أين جاءته هذه الحريَّة الداخليَّة الاستثنائيَّة؟

وهي حريَّة لا تعكس الإثارة أو الفوضويَّة. لقد كان «يسوع» ابناً حقيقيَّاً «لإسرائيل»، وكان مختوناً، وكان يحترم «الشريعة»، لذا كثيراً ما كان يتردَّد على «الكنيس» كي يتعبَّد، حتَّى إنَّه كان يزور «الهيكل» من وقت لآخر!

ولكن حين تكون حياة الإنسان معرَّضة للخطر، لا يعود هناك وقت «لسبت» تفرضه الشرائع والقوانين، وحين تتعرَّض حريَّة «الله» للإهانة والقدح من خلال عملية استبعاده، لا يظلُّ مكان «للهيكل» في قلوب المؤمنين بالله!

إذن، كان تمرُّد «يسوع» انتصاراً لهؤلاء الذين فرضت «الشريعة» عليهم نير الخضوع والرقِّ، في مجتمع متعدِّد الديانات والطوائف، حيث كان الشعب «الجليليُّ» يشعر بأنَّه لا قيمة له، وحين جاء «يسوع»

فوجئ هذا الشعب بحريَّة تعاليمه، وشجاعة في سلوك يدعو للدهشة والإعجاب.

نستغرب أحياناً بالمكانة التي أضفتها «الأناجيل» على مسائل تتعلَّق بالطقوس والشعائر! ولكن ألم يهتمُّ «يسوع» أكثر بالجوهريِّ في العقيدة؟ ألم يسأل أعداءه:

- «أيُّ إنسان منكم يكون له خروف واحد فإنْ سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه فالإنسان كم هو أفضل من الخروف إذاً يحلُّ فعل الخير في السبوت، ثمَ قال للإنسان مدَّ يدك، فمدَّها، فعادت صحيحة كالأخرى[1]».

هذا الموقف يتكرَّر مع المريض والممسوس والصيَّاد.

لقد كان «يسوع»، سواء في المغفرة أو الشفاء، حريصاً على ألاَّ يكسر شيئاً. وكانت دعوته لا تهدف إلى السبِّ والشتم أو التجديف، بل كانت دعوة للأمل، وفتح طريق للحريَّة في قلب الشريعة المغلق!

كان «يسوع» حرّاً في تعاليمه، وفي طريقته بممارسة «الشريعة»، كما كان حرّاً في علاقاته وصداقاته وشكل حياته. لم يكن ليخشى النظام السياسيَّ:

- «اذهب وقل لهذا الثعلب...»!

هي كلمة وجَّهها «لإيرودس»، ولجميع الجهلة، أصحاب النوايا السيئة.

لقد وجد فيه المنبوذون، و«السفلة» من القوم ضالَّتهم المنشودة. بهذا المعنى، لم يكن «يسوع» ينتمي فعلاً إلى طائفة أو مذهب، إذ لم

(1) إنجيل متَّى - الإصحاح الثاني عشر.

يكن يعيش عزلة عن الناس، كما أنَّه لم يكن متقشِّفاً، ولم يتبع طرق «يوحنا المعمدان» الشديدة الوعورة والخشونة:

- إلى أيِّ جيل أستطيع أن أقارن به هذا الجيل؟

أستطيع أن أقارنه بأطفال جالسين في الأماكن العامَّة، حين يسألهم «يوحنَّا» بقوله:

- لقد عزفت لكم على المزمار، ولكنَّكم لم ترقصوا!

ولقد نحت أمامكم بالنشيد الجنائزيِّ، ولكنَّكم لم تبكوا ولم تندبوا.

في الواقع حين جاء «يوحنَّا» لم يأكل ولم يشرب، حتَّى إنَّ البعض قال عنه إنَّه رجل مجنون! ولكن حين جاء «ابن الإنسان» كان يأكل ويشرب، حتَّى إنَّ البعض قال عنه بأنه رجل أكول شره، وسكِّير أيضاً!

وقال البعض الآخر عنه: إنَّه صديق العشَّارين والخطاة!

كان إعلانه عن ملكوت «الله»، والدعوة للحياة الطبيعيَّة مثل كلِّ الناس، ورفض المسافة الفاصلة بين البشر، والتشبُّث بحريَّة قلَّما تجرأ أحد عليها..

هي مجموعة الأسباب الكامنة وراء الصراع الرهيب الذي خاضه مع دعاة الدين وحماته، والذي أدَّى في نهاية الأمر إلى إدانته، ومن ثمَّ قتله بطريقة لا يمكن تصوُّرها مهما بلغت القسوة في قلب ابن آدم!

لم يبحث «يسوع» عن حريَّته خارج نفسه، بل داخلها! لقد سجَّل اسمه بمهارة وشغف في اللُّعبة الجدليَّة لعصره، ولم يتوقَّف عن التذكير بما هو جوهري في حيوات الفانين:

- الحياة أولاً، ومن ثمَّ يأتي دور الباقي!

إذن ما الذي يمكن للمجاورين أن يضيفوا بعد أن مجّد الحياة التي يحبُّونها؟!

هناك في قلب اليهوديَّة فارق شاسع في الشريعة التي يمارسها «أبناء الله»، وهي الدعوة لممارسة هذه الشريعة من داخلها، والتذكير بأنَّ «السبت» جاء من أجل الإنسان، وليس الإنسان الذي جاء من أجل «السبت».

تمسَّك معاصرو «يسوع» بكلمة كي يصفوا حريَّة الفكر المدهشة التي كانت تضفي على شخصيته ملامح «السلطان والهيبة»، كما ورد في الأناجيل عبارة: «كمن له عليهم سلطان»!

لم يكن «يسوع» يخشى من أحد!

ولكنَّ هذا لا يعني أنَّه كان الأقوى بينهم، بل يعني أنَّه كان يقترب من الجميع، ويسمح للجميع أن يقتربوا منه! هكذا لم يكن يخاف من البؤساء والباكين، ولم يعد هؤلاء يخجلون من بؤسهم ودموعهم أمامه.

يعترف «جاك بوير» بقوله:

- «لا أعرف كيف خُلِقْتُ! ولكنَّني منذ أن بدأت أشعر بالآلام.. حاولت إنقاذ نفسي، وهذه حالة أجدها مشروعة تماماً: هناك إجراءات يجب اتِّخاذها كي ننقذ أنفسنا، وننفذ بجلودنا»!

تعلمون جيداً أنَّه على حق في كلِّ ما يقول. وتعلمون أيضاً أنَّنا جميعاً تعرَّضنا لكثير من الجراح! إذن علينا أن نتريَّث قليلاً قبل أن نطلق إعلانات الفضيلة. صحيح أنَّنا نريد أن تظلَّ الأبواب مفتوحة على

مصاريعها، وأن يقترب الجميع من الجميع، ولكنَّ هذه الإرادة تستوجب القوَّة والصحَّة والحريَّة!

هذه الحريَّة الماثلة في «الله»، والتي تتجسَّد في «يسوع المسيح» تلقي بي في مهاوي الغموض والإبهام.

«إله» حر، لا يخاف أحداً، ولا يريد من أحد أن يخافه، هو لعمري أمر غريب خارق! أيَّة خطوة عليه أن يخطوها في الوجود كي يبدأ كلُّ شيء بالولادة الجديدة، وكي ينهض من بين الموتى[1]».

تحابُّوا!

هو نداء وحريَّة بآن واحد. وإذا أردنا أن نصف حياة «يسوع» نستطيع أن نصفها بكلمة واحدة وهي «المحبَّة»، دون أن نقع في استخدام المفاهيم المتكلِّفة الَّلا مجدية.

الطيبة عنوانه نحو الفقراء والمساكين، وتفهُّم الصَّيادين لا يجب أن يحجب التزام وعزيمة رجل صوفي قادر على القيام بدوره في العمل السياسيِّ أيضاً بشكل مثالي.

لم يبتكر «يسوع» مفهوم الحبِّ، فهو يتناثر في جميع أسفار «الكتاب المقدَّس» وكتب الحكمة في دور الأقدمين! بيد أنَّ ما هو جديد، جديد جداً، هو أنَّ «يسوع» يقترح علينا «المحبَّة» فيما وراء الخير والشرِّ! يقترح علينا أن نحبَّ بعضنا دون إكراه على هذا الحبِّ!

هنا، نجتاز الأمر الأخلاقيَّ بارتياح، ونلقي بعرض الحائط بالعدالة القضائيَّة دون أن نعير اهتماماً للربح والخسارة. يكتب بهذا الصدد «دافيد فليسير»:

---

(1) Jacques Pohier Dieu fracture, Paris, 1985.

«جاك بوير»: الله الذي يتهدَّم ـ باريس 1985.

- « يتجاوز الحبُّ الذي يتكلَّم «يسوع» عنه حدود الأيديولوجيَّات البرجوازيَّة، وبهذا استطاع أن يبعث الحركة في حياة كانت تلفظ أنفاسها في مجلَّدات «اليهوديَّة». لم يقل «المسيح»: إذا أحببتم الشرير سوف يتحوَّل إلى رجل طيِّب، بل قال: أحبُّوا أعداءكم[1]»!

لم يُلْقِ «يسوع» بالذنب على الإنسان الذي لا يستطيع أن يحبَّ أحداً، بل إن ما قام به هو تبيان السعادة والسرور في قلب المحبِّ، وشقاء الكراهية التي لا تفيد أحداً، وحاجة كلِّ واحد إلى الآخر!

ذلك هو عمق «الثورة الإنجيليَّة» في تأكيدها على تقبُّل الإنسان لذاته، والدخول في أخوَّة إنسانيَّة، وتوضيح الصلة بين البشر، وهي صلة أعمق من «النوع» الذي يربطهم منذ أن خُلِقَ الإنسان الأول!

ولأنَّ هذا الحبَّ نداء وحريَّة، فهو يستلزم التباعد والقرب معاً.

ولكن المذهل أن نرى «يسوع» في «الإنجيل» يأتي ويروح، يتأرجَّح بين الظهور والخفاء، وكأنَّ المكان مكانه، لقد كان بينهم الانفتاح على كلِّ ما حوله، والتجذُّر في أصوله أيضاً.

كان بينهم، دون أن يعني هذا أنَّه في وفاق معهم، بل هو التناقض الذي يفرض نفسه: «ينمو الزوان والحنطة معاً! كما أنَّ العامل الذي يجيء في اللَّحظة الأخيرة يتلقَّى أجره مثل العامل الذي كان يعمل منذ الساعة الأولى لنهاره»!

بينهم كان «يسوع» يضيء وينادي ويشجِّع تلاميذه على الكفاح في شروط حياة فقدت بريق الروحانيَّة والتأمُّل منذ زمن.. كان «يسوع»

---

(1) David Flusser, Jésus, Paris, 1970.

«دافيد فليسير» حياة يسوع - باريس 1970.

يلتقي المرضى والمحتاجين والضائعين والجرحى والمتعبين.. وكان يقترب منهم على قدر المسافة التي يبتعد فيها عنهم! كان يشفي ومن ثمَّ يغادر المكان.

كان بينهم يعلِّمهم التسامح الذي لا يعني النسيان، بل محوه تماماً!

من الطبيعيِّ أن نلقي بأحكامنا، ولكنَّ هذا لا يكفي، يظلُّ هناك، فيما وراء العدالة ولادة كلام مفتوح على المستقبل، حتَّى وهو وراء القضبان الحديديَّة. يقول «إدغار موران»:

ـ وحده التسامح الذي يستطيع أن يدفع بعجلة تقدُّم البشريَّة إلى الأمام!

يذهب الحبُّ في معناه «الإنجيليِّ» إلى أبعد من ذلك، إلى الهشاشة واللَّايقين في القلوب. يذهب إلى اللَّايقين حين يطلق «يسوع» صرخته المدوِّية على صليبه:

ـ «إلهي، لِمَ تركتني[1]».

كنت قد قرأت نصَّاً رائعاً حول القدِّيس «جيتسيماني» كتبه «شارل بيغي» في بداية هذا العصر حول اللَّحظات الأخيرة من حياة «يسوع»:

يبدأ النصُّ بتأمُّل حول الانهيار العصبيِّ الذي نسميه اليوم «نيراستينيا» [إنهاك عصبي]، ويحاول المؤلِّف أن يجد صلة فريدة بين قلق «يسوع» والقلق المعاصر الذي نعيشه. لقد خرَّ «يسوع» على الأرض ساجداً، بتواضع «الإله» المقهور، بتواضع «الإله» الخاضع لآلامه! هو

(1) «إلهي، لم شبقتني» كما وردت في الأناجيل ـ المترجم ـ.

ذا ، أيُّها المسيحيُّون تقدُّمكم الذي تنشدونه! أتستطيعون بعد ذلك أن تستثمروا فوضى هذه الهزيمة والاندحار ، هذه الوحدة الموحشة ، وحدة القلب والفكر معاً ، وأن تسمعوا بعد ذلك الصمت ، وعري الكلام؟!

لقد بدا «يسوع» في هذه الأطروحة إنساناً ذا أبعاد ثلاثة للرحمة: الرحمة تجاه «الله» ، والرحمة نحو القريب ، وأخيراً الرحمة مع ذاته هو!

أحببْ «الله» أحببْ الآخر. أحببْ نفسك ، ولا تفرِّق بين أنواع الحبِّ هذه:

أليس هذا اللِّقاء ما سمَّاه «يسوع» فيما بعد بملكوت السماء؟!

لا أنسى أنَّ الرحمة ، الاسم الآخر للمحبَّة تعني أيضاً ، ومنذ عام [1680] ، الوليمة «الشاتِريَّة» المتقشِّفة على غير العادة.

ولا أنسى أيضاً دعوة «بول جيرادن» للمسيحيين أن يقدِّسوا زوايا الشرف الثلاث [المجتمع. ذواتهم. شخص يسوع].

أن تكون شريفاً مع «يسوع» يعني أن تجدِّد ذاكرتك! سوف نثير في الفصل الأخير من هذا الكتاب ضرورة دراسة تاريخ الأديان.

إنَّ تاريخ الأديان ليس علماً في الآثار والمستحاثَّات ، ولا هو حنين أو ذكريات سعيدة نعيشها ، بل عناق حقيقي مع الإيمان نفسه! إنَّ الحفاظ على ذاكرة «الإنجيل» ليس شكلاً جامداً متكرِّراً يعيد إنتاج نفسه! «إنَّه اشتعال بلا انقطاع» ، وتغطية ظلماء عارية كي تتحوَّل إلى نار ، وكي تمتلك قوَّة حرق الرماد ، ومن ثمَّ تحويله إلى خشب[1].

---

(1) Jean – Claude Renard, Le Lieu du voyageur, op. cit., p. 129.
«كلود رونارد»: المكان الذي يقصده المسافرون ـ ص129.

هـذا يعـني «أن نتـذكّر»: نتـابع الروايـة، لـيس فقـط في الـنصّ، ولكن في لقاءات اليوم حيث الطاقة الحيويَّة «الإنجيليَّة» تتابع سيرها.

«الإنجيل» نفسه عمل تقوم به الذاكرة، ولذا « فالوصايا» لا تقبل الانقسام على نفسها، ولذا أيضاً نجد «الإنجيل» يمثّل زماننا الذي نعيشه، و«الجهة التي نحن ذاهبون إليها». إنَّ اليوم الذي نكتشف فيه معنى الكلام الذي يتردَّد في الإنجيل هو اليوم الذي قيل فيه هذا الكلام، بالنسبة لنا على الأقل!

الشرف مع الذات هو التقاء الوعيِّ فيما بعد!

هنا أيضاً سوف يكون لديَّ الفرصة كي أقترح على «المسيحيين والعلمانيين» تمجيد الذكاء وتبجيله، ولكنَّني أصرُّ منذ البداية على الضرورة الجوهريَّة بوضع هذا الذكاء في خدمة أهدافه السامية.

لا يكفي أن نشعل النار في الرواية كي تظلَّ في حياتنا اليوميَّة، بل علينا أن نضفي عليها حياة ما، أن ننتقدها، أن نقارنها مع روايات أخرى مماثلة، أن نقرِّبها من مفاهيم «التعدُّدية»، وأخيراً، أن نتجرأ على تحليلها بطريقة نقديَّة خلاَّقة!

عمل الذكاء هذا يجب أن يكون عملاً لجميع أنواع الذكاء لا للوعيِّ الواعي فقط! عمل لا يمنع فيه التحليل التأويليُّ الاقتراب من ينابيع الشعر والموسيقا، ولا يستطيع فيه «اللّاهوتيُّون» قتل الحقيقة بأقوالهم التي تنفث السمَّ الزعاف!

أمَّا معنى الشرف مع المجتمع فهو بكلِّ بساطة إعادة التجذُّر في تربة الوطن الأم!

ماذا نستفيد من أعمال الذاكرة، وأنواع الذكاء إذا لم تساعدنا على اللِّقاء مع المجتمع بكلِّ تعقيداته وتناقضاته، والعمل على تغييره؟!

أتذكّر اللّاهوتيَّ الأفريقيَّ الشابَّ «أندريه كابازيل» الذي بدأ للتوِّ قراءة «الكتاب المقدَّس» بشروح «باروخ» معاون النبيِّ «جيريمي»!

يعرِّف الكلام الشهير الذي يدعو للشجاعة والعزم، ويفتتح هذا الكتاب الصغير المدهش بالكلمات الآتية:

«آه يا أورشليم، اخلعي عنك ثوب الحداد والبؤس الذي ترتدينه.. وتدثَّري بمعطف عدالة الله»!

بهذا المعنى يأخذ الاقتراب الذي يهمُّ الكثيرين من أخصائيي التفسير صورة بطيئة للصبر في إعادة قراءة التاريخ الذي يتعلَّق بكلِّ واحد منَّا، ذلك لأنَّ الباحثين «الكونغوليين» لا يشكُّون لحظة واحدة بأنَّ «باروخ» ما زال حيَّاً إلى اليوم. إنه يعيش في «بروكسل وباريس وكينشاسا» كما يعيش في «أورشليم» أيضاً... من هنا نراه يشجِّع شعبه الذي يشعر بالقلق والاضطراب في مواجهة القناعات والآراء القويَّة التي «تزعق» بها النصوص الثقافيَّة الحديثة.

في «أمريكا اللّاتينية» كشف «اللّاهوتيُّون» الأحرار عن قدرة الذاكرة الحيَّة والذكاء الفعَّال على المقاومة ورفد المشاريع الجماعيَّة، وتعزيز الإدراك واليقظة لدى الشعب، والعمل على انتصار الحريَّة الاجتماعية. هذا يعني أنَّ رواية «الكتاب المقدَّس» يجب أن تكون يونانيَّة في اليونان، وإفريقيَّة في أفريقيا، كما يترتَّب على هذه الرواية أن تتجذَّر في الأرض التي تنمو فيها، وأن تتحلَّل، كما تتحلَّل الخميرة في العجين، أو كما نقول دائماً، كما يضيع «يسوع» بين الجموع!

4- أصالة:

يعترض «آرماند أبيكاسيس» بقوله:

- إنَّ «يسوع» لم يكن مسيحيّاً في يوم ما، فهو لم يدخل كنيسة قطُّ، ونراه اليوم يدخل إلى «الكنيس اليهوديّ» بسهولة أكبر ممّا يدخل كاتدرائيّة[1].

ولكنّنا لا نستطيع أن نتكلّم عن «المسيحيَّة» إذا لم يكن «يسوع» مسيحيّاً، ولا يمكن أن نتحدَّث عن المسيحيَّة دون «يسوع المسيح»!

تستند الخصوصية المسيحيَّة على شهادة استثنائية للألوهيَّة.

نجدها في «الإنجيل» تسمّي «يسوع - ابن الإنسان» سبعاً وأربعين مرَّة.

يلقي «ابن الإنسان» هذا على «اللّه» نظرة ألم فاضحة، ذلك لأنَّها نظرة لا تغيِّر اللّه فحسب، بل تغيِّر العالم أيضاً. تغيِّر الإنسان وتحيله إلى العالم ممّا يؤدِّي به إلى دوار مميت!

---

(1) Dans la preface du livre de Marie Vidal, Un juif nommé Jésus. Une lecture de l'Evangile à la lumiére de la Torah, Paris, Albin Michel, 1996, p. 18.

وردت هذه الكلمة في مقدمة كتاب «ماري فيدال» بعنوان «يهودي يسمَّى يسوع»، وهو قراءة في الإنجيل على ضوء ما تطرحه التوراة، باريس، منشورات ألبان ميشيل - 1996 - ص18.

هـذا يعـني أنَّ العـالم، في ثقلـه كعـالم، يشـارك «الإلـه» قسـمة العالم، وأنَّ الإنسان مهما كـان مزريَّـاً، منحطّـاً، شـريراً.. سوف يجد بصيص ضوء في نهاية النفق يقوده إلى الباب السامي!

«ابن الإنسان» هذا الذي اكتملت فيه «الصيغ» الأشـدُّ تطرُّفـاً في المعادلـة العكسيَّة التي تضمُّ «الإنسـان الإلـه»، هـو مـا تسـميه الوصيَّة الثانيـة «ابـن الله»؛ كمـا تطلـق عليـه اسـم «المسيح»، أي الـذي تلقَّـى المسح، وهو الذي سوف يسأل فيما بعد:

- «ما تقول عنِّي؟ من أنا؟ يجيبه «بطرس» متلعثماً:

- أنت المسيح!

إذن تستند «المسيحيَّة» علـى معنـى مـزدوج، وتـوتُّر في المعنـى، ذلـك لأنَّـه إذا كـان اسـم «يسـوع» يتردَّد علـى الـدوام اسمـاً لمـن يحـرِّر، فـإنَّ «المسيح» يظهـر أحيانـاً في الكنـائس كرايـة، كعنـوان للعظمـة تريـد التأكيد على هيمنتها! يقول «كريستيان ديكوك»:

- «لا يمكـن الفصل بين الاسمين، أو أن يتلاعب أحدهما بـالآخر، بل أنْ يتشبَّثا ببعضهما:

لأنَّه «المسيح» ظلَّ «يسوع» حاضـراً بيننـا، ولكـنَّه ««المسيح» الـذي كـان «يسوع الناصريَّ»[1]».

هي ذي نقطة الانطلاق، بعد أن مرَّت ألف سنة على محبيِّه، حتَّـى مع معرفتنا بأنَّ ألف سنة عند «المعلِّم» مثل يوم واحد:

ماذا يمكن أن نستفيد من تاريخ تتلاطم أمواجه إذا أردنا حقّـاً ألاَّ نُغْلِقَ علـى «المسـيحيَّة» أبـواب العـالم، ونحـدِّدها بأشـكال «متقنـة

(1) Christian Duquoc, Jésus, homme libre, Paris, Cerf, 1973, p. 130.
«كريستيان ديكوك»: يسوع، الرجل الحرُّ، باريس 1973، ص130.

الصنع»، وفي لحظات نأخذ فيه صوراً بدائية أو إصلاحيَّة أو حتَّى صوفيَّة.. بمعنى ثان، ما هو جوهر «المسيحيَّة» حين نقبل تجاوز بعض المراحل الخاصَّة؟ وما الذي ننتظره منها في بحثها الجماعيِّ عن معنى جوهري لها؟ يمكن لمرحلة «الكتاب المقدَّس» التي شهدت المشي على الماء أن تشير لنا على الطريق الأمثل!

تروي «الأناجيل» أنَّ «يسوع» صرف الجموع بعد أن شبعت من الخبز المقدَّس الذي قدَّمه لها، وأمر تلاميذه بالصعود إلى القارب بينما كان يصعد الجبل القريب منهم! يقول «مَتَّى» في إنجيله:

- «ولمَّا صار المساء كان وحده هناك، وأمَّا السفينة فكانت وسط الأمواج، لأنَّ الريح كانت مضادَّة، وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم «يسوع» ماشياً على البحر فلما أبصرْه التلاميذ اضطربوا قائلين إنَّه خيال ومن الخوف صرخوا، فللوقت كلَّمهم «يسوع» قائلاً تشجَّعوا، أنا هو لا تخافوا فأجابه بطرس وقال يا سيِّدي إن كنت أنت هو فمرني أن آتي إليك على الماء فقال تعال فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتي إلى يسوع ولكن لمَّا رأى الريح شديدة خاف وإذ ابتدأ يصرخ قائلاً يا ربُّ نجِّني، ففي الحال مدَّ يسوع يده فأمسك به وقال له يا قليل الإيمان لماذا شككت ولمَّا دخلا السفينة سكنت الريح والذين في السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت ابن الله»[1].

أتذكَّر أنَّ عبارة «لا تخافوا» وردت في الكتاب المقدَّس ثلاثمائة وسبعين مرَّة!

---

(1) إنجيل متَّى - الأصحاح الرابع عشر.

أنا أيضاً أؤمن بالمعجزات: إنَّ كلَّ واحد منَّا مدعو لأن يسير على الماء، بدءاً من «المسيحيَّة» التي منذ ولادتها لم تتوقَّف عن مواجهة الريح العاتية على بحيرة العاصفة!

يبدو لي أنَّ المشي على الماء بالنسبة لها يعني المشي على سطح الهشاشة، كما يعني أيضاً المشي على أمواه الجمال والحريَّة. إنَّ هذه الكلمات الثلاث [الهشاشة، والجمال، والحريَّة] لا تقول كلَّ شيء عن «المسيحيَّة»، ولكنَّني متأكِّد تماماً أنَّه ما أنْ تفقد أحدها حتَّى نرى جوهر «المسيحيَّة» نفسه يتلاشى ويضمحلُّ أمام عيوننا!

لا أجهل الخيانة وطعمها المرَّ، وأقيس تماماً الدرجة التي يمكن لها أن تظهر في حياتنا، وأن تعرقل «مصداقيَّة» ما نؤمن به على ضوء التجربة والتاريخ!

ولكنْ هذا هو الواقع: مجابهة حاسمة! إنَّ «المسيحيَّة» ظلَّت في قيلولة منذ البداية، وهي تمرُّ بالمخاطرة العاصفة دون أن تتأثَّر، وهي قريرة العينين، وفي راحة ضمير تسكن!

نظرة واحدة فاحصة حول «الهشاشة»، وأخرى على «الجراح» في جسدها البضِّ، تؤكِّد دعوة لتكرار التجربة لهذه الهشاشة بتلاحمها مع الجراح!

حتَّى «بطرس» تكلَّم عن الشوكة التي تنغرس في جسدها الغضِّ ذاك، وكان قد تحدَّث عن قوَّته بضعفه:

- «ذلك لأنَّني حين أكون ضعيفاً، أكون قويَّاً أيضاً»!

أعرف المعنى الكامن وراء هذه الكلمات: ضعف، هشاشة، وأعرف الخطر وراءها!

يمكن لها أن تجرَّ معها غموضاً جسيماً لا تُحمد عقباه! كما أنَّني لا أجهل المنحدر الذي قد يعرِّضنا للموت «مذهب الألم» والدعوة للبؤس!

ـ كم من الجرائم لم نرتكبها، والأكثر قسوة منها هي الجرائم الروحيَّة باسم العذوبة والفقر والدموع «الإنجيليَّة».. هنا أجدني مضطراً لأن أذكِّر الجميع بأن يأخذوا حذرهم من اعتقال السعادة وإيداعها السجن، كما كنَّا نفعل آنذاك!

نحن بحاجة إلى القوَّة! كيف نعيش دون أن نسند ظهورنا المُتْعبَة في بعض الأماكن؟ دون أن نعتمد على صديق أو رفيق درب أو التزام ما؟

لقد كان «ميشيل دوسيرتو» على حقٍّ حين قال:

ـ «على الرجل أن يجد بعض القوَّة في حياته..»! يعني أن يجد عناصر الصراحة والوضوح والصلابة والحزم في ذاته! إنَّ المجتمع نفسه بحاجة إلى هذه العناصر، وليس من الحكمة بمكان التخلِّي منذ البداية عن الاستقلاليَّة والتحكُّم بالتكنولوجيا وقدرتها على الإدارة، وهوسها بالعمل..

لا أتصوَّر أنَّ مسيحياً، باسم «مسيحيَّته» ينزوي في خيمته، ويرفض أخذ نصيبه من القيام بالمهمَّة التاريخيَّة التي تتمثَّل بإعادة اكتشاف الحياة، ومن ثمَّ امتلاكها دون تردُّد!

ولكن ما الذي نصنعه بالضعف الذي طرحناه منذ قليل في هذه الحالة من الدعوة إلى امتلاك الحياة؟

إنَّ الضعف الذي طرحناه لا يعني أبداً «التقاعد» عن الحياة ولا الهروب منها، بل العكس من ذلك تماماً.

حين ننظر إلى اللَّوحة أمامنا بوضوح، سنشاهد ثمار التعب والجدل الاجتماعيِّ الذي كنَّا نخوضه، ونفهم متطلَّبات العدالة والعقيدة «المسيحيَّة» التي لا تساوم، بل تصرُّ على قوَّتها من خلال «ضعفها» المزعوم! إذ تصرُّ على قوَّتها نراها تخلع الأبواب الموصدة،

كي تفتح الآفاق لدخول «الآخر» الذي يمكن أن يسبِّب لي القلق. ولكنَّه قلق يقدِّم الفرصة الذهبيَّة، إذ يمنحنا المستقبل الذي ننتظره!

لنعترف الآن: نحن بعيدون جداً عن «اليونان» التي حدَّثتنا بعذوبة وروعة عن الإنسان والوطن والزمن والآلهة! عن «أوليس» الباحث عن جذوره! «أوليس» الذي يتجلَّى فيه وعيُّ المكان!

أن نصغي أيضاً لمآسي «سوفوكل» و«بيكتيت وأفلاطون» وهي تمجِّد الذكاء البشريِّ والحكمة، وتدخل في تمزُّق داخلي حيث الإنسان والمثال والتقشُّف والصيرورة... وهي تتكلَّم لغة متطوِّرة بعيدة عن البلاغة الجوفاء والألفاظ التي لا يتجاوز معناها الشفتين!

لقد أُعْجِبَتْ «اليونان» بالهندسة والزاوية الحادَّة، وقوَّة التفكير التي تضفي على الإنسان قيمته المثلى.

أُعْجِبَتْ «اليونان» بالمسابقات والاصطفاء القائم على العدل، وكانت تحيِّي المنتصر، وتبجِّل البطل، وتعجب برخام «باروس» المشعِّ، وتصفِّق للأجسام الفتيَّة القويَّة وهي في طريقها إلى المجد والانتصار.

كانت «اليونان» ترى نفسها كبيرة عملاقة وسط الشعوب! ولا أريد أن أنسى بأنَّ هذه العظمة هي انعكاس لصورة البشريَّة أيضاً! ولا أريد أن أتجاهل الجانب «الديونيسوسيَّ[1]» في حياة اليونانيين الغامضة، ولا الغرائب، واللَّا عقلانيَّة، والأثواب الشفَّافة التي تظهر عري ومفاتن كاهنات «باخوس[2]»!

كانت «اليونان» تعيش مجتمعاً «تعدُّديَّاً»، ولم يكن «أفلاطون» لينكر على «إيريبيد» قيمته كشاعر عندما اتَّهموه بإهانة الآلهة!

---

(1) هو ديونيسوس، إله الخمر عند اليونان ـ وهو ابن «زيوس».

(2) كما أنَّ «باخوس» إله الخمر عند الرومان.

ولكـن كـلَّ مـا تقـدَّم لا يمنـع أنْ تقـع «اليونـان» في زوال الحظـوة والمصائب، إذ إنَّها لم تعرف كيف تحافظ على الهشاشة والضعف الذي تكلَّمنا عنه للتوّ، ولم تدر كيف تتكلَّم عن الآنيِّ، العرضيِّ في حياتها. لقد وقعت في شرك نصبته لنفسها، ولم يعد للفقير المعدم من وجود، بل وجد نفسه خارج حدود المدينة، وبالتالي خارج الإنسانيَّة نفسها!

لقد أطلقوا على العبد صيغة تعني في لغتنا «الإنسان بلا وجه»، أي الإنسان الذي لا نراه، ولا نعترف بوجوده!

هنـاك نفس الخطيئـة القائلـة في بلـد آخـر. إنَّ «الفلسطينيَّ» الذي يعيش بعيداً عن «أثينا» ليس له وطن، بل «المنفى» الذي ينتظره في كلِّ مكان، ليس لدى الفلسطينيِّ مكان ثابت ودائم يسكنه! إنَّ مكانه الحقيقي هو وجهه الذي يتجلَّى في العريِّ الكامل في عينيه دون دفاع ولكنَّه العريُّ الذي يستدعي عرياً آخر مفتوحاً على المطلق والسامي فيما وراء عقولنا[1].

سـوف يعمـل «الإنجيـل» علـى اسـتثمار هـذه الرؤيـا الـتي تعبر كالخيـال «الكتـاب المقـدَّس» حتَّـى نهايتـه، مـع الانتبـاه حـول الشـيء الأصغر في هذه الرؤيا.

في «الكتَّاب المقدس»، يأخذ «اللّه» شكل الإنسان، ولكنَّه فجأة، ودون سابق إنذار يتلاشى وجه الإنسان هذا، فيبدو للعيان دون وجه.

في البلاد السعيدة التي يغمرها ضوء الشمس والمحبَّة والألفة، يحظى كلُّ فرد فيها بقيمة ثمينة، والفقير هو أول السعداء بينهم!

---

(1) Emmanuel Levinas, Totalité et infini paris 1961, p. 173.
«إيما نويل لوفينا» ـ الكليَّة واللَّانهائية ـ باريس1961، ص173.

ولكن «أدولف جيسشي» يرى أنَّ «المسيحيَّة» هي التي «اخترعت الفقير» من خلال إضفائها صفات جوهريَّة على نفسها، وبذلك دخلت منعطفاً جديداً لأول مرَّة في تاريخ الحضارة البشريَّة.

تتضمَّن شريعة «موسى» عدَّة ملاحظات لصالح الفقير، ولكنَّنا ننسى، أو بالأحرى نتناسى هذه الملاحظات التي جاء بها الأنبياء من بعده، والذين غرسوا رِيَش الكتابة في حبر من الدم كي يكتبوها!

بيد أنَّ الفقر في «الكتاب المقدَّس» فقر مادِّي اقتصادي، هو استعداد داخلي وإمكانيَّة لاستقباله، إلى أن وصل «يسوع»، وكانت التربة صالحة كي يعلن على الملأ أنَّ هذا الفقر لم يعد له مكان بيننا، ذلك لأنَّه تمجَّد باسم «اللّه»!

عندها أصبح الفقير «مدلَّلاً» في ملكوت السماء، وأصبح غير آبه بالذهب والسلطان بعد أن رأى هذه الملكوت تتراءى أمامه كالحلم...

هكذا نجد أنَّ «أثينا» رأت في الإنسان جوهراً خالصاً، بينما رأت فيه «أورشليم» قدراً نهائيَّاً لا حدود له. تخاطب «أثينا» مواطنيها الشرفاء:

ـ «اقتصدوا، واحسبوا، وانتبهوا، إنَّ كلَّ كلمة تقولونها لها مقاييسها الخاصَّة»! بينما نسمع «أورشليم» تطالب رعاياها بالمستحيل والكدِّ وإجهاد النفس.

تضيف «أثينا» على كلامها أيضاً: «افهموا وستتجون»، بينما تقول «أورشليم»: «نادِ، فيُهْرَع لنجدتك، وستجد الخلاص[1]».

(1) Sur cette relation – opposition entre Athénes et Jérusalem, voir le beau roman de Jean Sulivan, L'Obession de Delphes, paris, Gallimard, 1967.

لا أتجاهل الميتافيزيقيا في رؤيتي للعالم، وأرى أنّنا جميعاً نتجنّب الضعف الذي يحيط بنا، ونراه يتقدّم، ويذكّرنا أنّ هناك ما هو أهمّ من خلود الروح: وهي الحياة الواقعيّة للإنسان الواقعي!

إذن، فتأكيد «المسيحيّة» على الضعف ليس نزعة ماضويّة:

أن تترك مجالاً للضعف يعني أن تدعو إلى المقاومة ورفض أوامر مجتمع تجاري ينظر إلى مجرّد الإشارة للضعف على أنّها فحش وبذاءة، هناك في جوهر «المسيحيّة» كلمة طالما تردّد صداها في ردهات التاريخ المظلمة! كلمة من حرفين اثنين، ولكن كلُّ كتب الأقدمين والمحدثين لا تتسع لها، كلمة «لا» التي تعيد صياغة العالم، هذا الوحش الذي لم يعد يُطَاق!

هذه التجربة ليست حكراً على الصوفيين أو الروحانيين الكبار، فالإيمان المسيحيُّ يدعو كلَّ واحد منَّا لقول هذه الكلمة دون ادِّعاء أو انتظار مكافأة أو خشية من عقاب.

إنَّ الإيمان المسيحيَّ ليس أيديولوجيَّة، بل هو ذاكرة للتاريخ، وهو لا يستند على الوعيِّ، وحين يعارضه فهو يثير الكوارث الأقسى والأشدُّ في حياتنا. هو يجرح الوعيَّ ومن ثمَّ يقطِّع أوصاله.

نحن لا نضيِّع الإيمان كما نضيِّع الشجاعة أو المِسْبَحة، فالإيمان هذا منطوٍ على نفسه، وهو يتكلَّم بصوت منخفض إذ يدعونا للذهاب إلى الصحراء، وهو يحرق أيضاً.. الإيمان هو قصيدة، وهذه القصيدة هي التي تشجِّع على الضعف الذي أرجو أن نكون قد فهمنا معناه!

حول هذه العلاقة المتضادَّة بين «أثينا وأورشليم» اقرأ الرواية الرائعة وساوس دلفيس - جان سيليفان - باريس - منشورات كاليمار - عام 1967.

5ـ أمواه الجمال:

ليس الجمال ببعيد عن الضعف.. ولكن، ما الجمال الذي طالما نتكلّم عنه في الكتب والأحاديث؟

أفتح الجريدة على الصفحة التي نرى فيها «ألوان الحياة» والتي تدعونا إلى لقاء الحاضر عند مفترق آخر للطريق، وعندها أكتشف تاريخ «فرانسوا».

على امتداد عامين و«فرنسوا» هذا يتوجّه إلى القمر وينادي كلّ شيء باسمه: الزهرة والعصفور والنملة. كان يمسك بذيل القطّة كي يضحك، وكان كلُّ شيء حوله يثير فيه الغبطة والسرور.

وحين ذاع خبره كقارع طبل، قدّم له أحباؤه أداة موسيقيَّة على ذوقه كي يعزف ما يريد دون أن يتقيّد بأوامر من أحد.

في عمر السادسة كان معجباً بالألوان، وكان يسرق طباشير المعلّمة كي يرسم على حيطان المدرسة قوس قزح، والأشجار التي ترفض الانحناء؛ ذات يوم رأوه يعانق تمثالاً في صالة «اللّوفر»! لقد كان مدهوشاً بصفاء الرخام ونقائه، وتناسق الجسم، وتعابير الوجه الذي يكاد أن يتكلّم! قال أبوه:

ـ «سوف يصبح مثل «فيكتور هيجو»! وقال الجارَّة المعجبة به:

ـ «سوف يكون مثل بيكاسو وروودان..»!

ثمَّ أنَّ شاعراً جاء ينصحه:

- «مجِّد الجمال، ولا تتردَّد بأن تندهش أمام شتلة السرخس»!

هكذا وقع «فرانسوا» أسير حبِّ «الدعقوسة» ذات ظهيرة صيفيَّة، بينما كان الضوء يمطر على الحدائق في «ليكسمبورغ[1]».

تجربة «فرانسوا» تعبر «المسيحيَّة» منذ أصولها الأوليَّة، لأنَّ الشهادات الأولى وأحداث القيامة هي التي توجس الخيفة في النفوس، وهي ترتدي صيغ الجمال وأبَّهة اللُّغة، وهذا ما ننساه دائماً.

أنْ نقول بأنَّ «المسيحيَّة» تدعو إلى الجمال هو قول للتأكيد على عدم اليقين. إذن، لا يستطيع التجربة «المسيحيَّة» التنكُّر للتأمُّل والدِّعاء والوجد والذهول.. أعرف الفرق بين هذه المفردات، والمعضلة التي يطرحها هذا الفرق، ولكنَّني أريد أن أتكلَّم عن شيء آخر، عن خلق ما، كالتكرار مثلاً، ولكنَّه تكرار بمعناه الموسيقيِّ الذي يظهر ويختفي على سطح حياتنا وطقوسنا الدينيَّة.

لا أتصوَّر حياتي دون طقوس دينيَّة وشعائر أحترمها. هذا لا يعني هجران الضعف والهشاشة الروحيَّة، بل يعني الزواج منها، ألاَّ ننسى ذلك: في الصلاة هناك ما هو مؤقَّت عارض يعرفه الجمال الذي لا يبتعد عن التجسُّد؛ بل يلازمه، ويظلُّ قريباً منه.

اسألوا الرسَّام أو الكاتب عن «الاجتثاث» الذي يقوم به الخلق الفنيُّ، وألم ولادة التكوين والإحباط واليأس أحياناً.. وأخيراً اسألوهما عن السعادة والنشوة في نهاية العمل بعد صبر وطول انتظار.

---

(1) Gilbert Delahaye, «Les couleurs de la vie», paris 1994. P103.
«جيلبير دولاي»: ألوان الحياة - باريس 1994 - ص103.

- ألم تهمل الكنائس الجمال بعد أن أعارته الكثير من الاهتمام في زمن ما؟

ــ بإهمالها الجمال، تنكّرت الكنائس للفنّان والموسيقيّ والكاتب.. دون سبب واضح يدفعها إلى ذلك، لماذا يا ترى؟

- ألأنّ «الحسيَّة» تبعدنا عن «الله»؟ يا لهذا الهراء!

هذه الحسيَّة هي التي تبعدنا عن الشرّ، وتدعونا إلى تمثُّل الطيبة في قلوبنا! لِمَ نريد إذن فصل الجمال عن الطيبة، ووضع الأخلاق في معارضة مع الجمال، والدين بمواجهة «إيروس»؟

- ألم يحن الوقت لتطوير «لاهوت الجمال» الذي طالما تكلّم عنه القدّيس «أوغستين» بقوله:

ــ «على الكتاب المقدّس أن يكون جميلاً قبل أن يكون حقيقيّاً»!

لقد انتزعت «دعقوسة فرانسوا» أناه، ولم تستطع تأمُّلاته العاشقة أن تبعده عن «اليوميّ» في حياته الذي فتح له الآفاق التي كانت مغلقة أمام عينيه.

لقد كبر ومشى على الماء، ماء الجمال السرمديّ، ودخل في بلاد المحبَّة والرأفة والحنان، وتعرّي، وعرف أنَّ هناك أرض أخرى، وبشر آخرون في العالم غير البشر والأرض من حوله. إنَّها لتجربة فريدة لا يمكن أن تتكرَّر، فهي تجربة الحريَّة في قلب الإنسان الذي عانى الأمرين من الاضطهاد والقمع والآلام..

بيد أنَّه علينا أن نأخذ حذرنا! علينا ألاَّ نتسرَّع بالكلام عن هذه الحريَّة، وإلاَّ قد نخاطر بالصراخ لدى رؤيتها:

- «إنَّها الشبح الذي نراه»!

يسألنا «كي آرشير» في كتابه بعنوان «شبح الحريَّة»:

- «أنريد هذه الحريَّة حقاً؟

- أنستطيع أن نحبَّها، وأن نسدِّد ثمنها الغالي»؟

كلُّ شيء يمرُّ كما لو أنَّ البشر يطالبون بسذاجة بمثال الحريَّة دون أن يدركوا الثورة الداخليَّة العارمة التي تنتظرهم[1].

تتطلَّب هذه الحريَّة الداخليَّة مكاناً عند «الآخر»، ذلك لأنَّنا «أحرار»، ولأنَّنا على موعد مع ذواتنا، كما يؤكِّد «لوفيناس» في القراءة الرائعة التي يقترحها الشعراء على «أبراهام» في سفر «التكوين» حين قال له «الله»: «اذهب إلى نفسك»!

ولكنَّ هذه الدعوة مغامرة خطرة في أرض بعيدة للمسؤوليَّة، إذ لا حريَّة دون مسؤوليَّة، وهذا ما أشار إليه «يسوع» في مناسبات عدَّة لتلاميذه حين أراد أن يشرح لهم كيف أنَّ شموخ الإنسان وسموُّه، ووقوفه على قدميه يعني تمجيد «الله» وتقديسه، لا الشكَّ في ألوهيته أو نكرانها!

- «هكذا نتأكَّد أنَّ «الإنجيل» يدفعنا دفعاً إلى الحريَّة، وأنَّ «يسوع» يريد منَّا أن نسلك الشعاب الضيِّقة للوصول إلى أهدافنا دون أن نقيم وزناً للمصاعب التي تنتظرنا هناك. لقد كانت حياته ملحمة عظيمة ضدَّ شرور العالم، والخوف والجبن والأعذار الواهية والأحكام المُسْبقَة والكسل والجمود.. بمعنى آخر، كانت حياته صراعاً ضدَّ «الهيكل» نفسه!

---

(1) Guy Haarscher, Le Fantome de la liberté. 1997, p. 85.

«كي آرشير»: شبح الحرية - 1997 - ص85.

لم يتوقّف «يسوع» عن دعوة تلاميذه أن يفتحوا عيونهم، وأن يعلموا بأنَّ العمل لا يتمُّ دون مخاطرة، ومواجهة، وبالتالي صراع مميت لا مفرَّ منه[1].

علينا أن نقف في وجه التعذيب والعنف، لا التعذيب والعنف الذي يقع علينا نحن فقط، بل الذي يقع على أعدائنا أيضاً!

هكذا نتأكّد أنَّ الحريَّة ليست شبحاً، كما اعتقدنا.

عندما يصيح «اليساريُّ» بأعلى صوته مستنكراً اضطهاد «يساري» مثله، يكون صوته دافئاً مليئاً بالصدق والاستقامة، ولكنَّه حين يرى «الآخر»، المعارض له، نسمع في صوته الجلبة والصخب الذي لا يريد أن يقول شيئاً!

إنَّ المسيحيين مدعوُّون اليوم إلى تجاوز الحواجز التي تفصل بين البشر، مهما كانت قيمهم وعقائدهم، وهم جديرون بذلك لامتلاكهم الإيمان، وقوَّة هذا الإيمان في الدفاع عن أعدائهم حين يتعرَّضون للاضطهاد والقمع!

لينزلوا إلى الشوارع ضدَّ التمييز العنصريِّ وطرد الأجانب واحتقار قيم الصورة التي أمامنا، وفي قلوبنا أيضاً، وهي تهتزُّ وترتجف، وتثير فينا الرغبة في البكاء.. صورة المصلوب من أجلنا!

حاولت أن أشرح أنَّ «المسيحيَّة» لا تريد فصل ضعف اليقين عن السعادة وضرورة الالتزام. فإذا كان الضعف يستدعي الجمال، فإنَّ

---

(1) Albert Bastenier, «Les figures historiques du christianisme», dans La Revue nouvelle, 1995, p. 121 – 122.

«ألبير باستونييه»: الصورة التاريخيَّة للمسيحيَّة، المجلة الجديدة ـ 1995 ـ ص121 – 122.

الجمال هو الذي يوقظ الحريَّة الغافية.. كما لو أنَّها في أعماقها، تفضِّل الوحدة التي تستند على التلاقي: التأمُّل والعمل، الابتعاد والتقارب، الاتِّفاق والانقطاع، اللَّحظة والأبديَّة!

نفهم إذن «موريس زيندل»، الصوفيَّ السويسريَّ المعاصر حين يتحدَّث عن «توازن مدهش في «المسيحيَّة» بين العلنيَّة والسريَّة، بين الوهج والخشوع، بين الجماعة والوحدة»! إنَّه يبحث عن جوهر «المسيحيَّة» نفسه، لا عن بعض التلاحم الذي قمنا بفعله، ولكن مهما اعتقدنا بهذا التوازن، سيكون هناك آخرون، خارج جدران «المسيحيَّة» يؤمنون بالمسؤوليَّة الشخصيَّة، والاهتمام بالآخر، وعمق العلائق الإنسانيَّة، والكفاح ضدَّ الشرِّ بجميع أشكاله، ومن ثمَّ الاعتراف خاصَّة بالخصوصيَّة الوحيدة واللَّانهائيَّة لكلِّ كائن بشري، وهم بهذا يُفَعِّلون تجربة ذات أهميَّة قصوى، وذاكرة تبعث الحياة في الآخرين الذين يشكِّل «العلمانيُّون» جزءاً رئيساً منهم.

لا نستطيع رغم كلِّ الخيانات والتشوُّهات التاريخيَّة التي لحقت «بالمسيحيَّة» أن ننكر عليها، حين كانت وفيَّة لكلامها آنذاك، أنَّها وضعت الإنسان في مكانه الصحيح، في مكانه الذي يستحقُّه فعلاً، وأضفت عليه قيمة استثنائيَّة لم يعد يحلم بها اليوم!

أريد أن أتأكَّد أنَّكم فهمتموني جيداً: هذه النظرة التي أعتقد أنَّ الحضارة الحاليَّة بحاجة إلى تجسيدها لا يمكنها أن تبعث الحياة في الحجر[1]، ولا في «المسيحيَّة» الضائعة!

---

(1) إشارة إلى الآلهة «ميدوزا» التي كانت نظرتها تحوِّل كل شيء إلى حجر - المترجم.

فإذا ما كان «للمسيحيَّة» من مستقبل سيكون مستقبلاً تائهاً متشرِّداً، وسيكون لها اكتشاف يسميِّه «الّلاهوتيُّون» في كثير من الأحيان «جوهرها المهاجر»، لأنَّها اليوم، وأكثر من أيِّ وقت مضى تنوي الخروج من «مصر» وعبور «البحر الأحمر» كي تلاقي الشعوب الغريبة، وكي تتقدَّم على طريق غير مرسومة، في البحث عن إمكانيَّة جديدة.

لا أحتاج الكثير من الثقافة والمعرفة كي أسبر أفكاركم واعتراضاتكم، إذ سوف تجيبونني:

- «بلى، يمكن نظريّاً فقط، أن تتمكّن «المسيحيَّة» من الخروج، ومن انفتاحها على الاختلافات، واللّحاق بالحقائق الغريبة عنها، وبالسفر على طريق مظلم! ولكن: هل تقبل الكنائس، وخاصَّة «الكاثوليكيَّة» منها هذه الهجرة، وهي التي تلاءمت مع الطعام «المصريِّ»؟ ألا نجدها اليوم مستاءة، حردة من الأشياء التي كانت قد طرحتها من قبل؟ هل تأمل هذه «الكنيسة» فعلاً بتجاوز مشكلاتها الداخليَّة، والانفتاح على التعدُّديَّة التي تدعونا إليها؟ وأخيراً، هل هي قادرة على الاعتراف بأنَّ جزءاً من الحقيقة فاتها؟

على الغابة الكثيفة التي تحيط بالقرى، وحدود المدن الغربيَّة ألا تحجب شجرة الحقيقة: إنَّ رقماً ما كافياً لتبيانها، وطرحها أمامنا بوضوح الماء: غداة الحرب العالمية الثانية شهدنا فرنسيّاً من كلِّ ثلاثة يشاركون فعليّاً بالقدَّاس. في السبعينيات من القرن المنصرم انخفضت النسبة إلى واحد على خمسة أشخاص. اليوم نجد فرنسيّاً واحد من بين اثنا عشر حاضراً بيننا.. وواحداً من بين ثلاثين شابّاً من هذا الجيل!

هذا المُعْطَى الرقميُّ ليس سوى إشارة بائسة لما يحدث، وهو يكشف بالطبع شَعْرَ الكنيسة الأبيض ولكنَّه لا يعبِّر تماماً عن

المـأزق الـذي تجـد مؤسَّسـة نفسـها حـين لم تـدرك في الوقـت المناسـب صعود المعرفة الذي ألقى به الفكر النقديُّ على طاولة الحساب!

المشكلة الأكثر خطورة تكمن في أنَّ «الكنيسة» لا تعاني فقط من اختلال بتوازنها، بل من قطيعة عميقة شبه تامَّة مع القيم التي تطبع وجودنا اليوم. ليست هي الطريقة وحدها في الكتابة والكلام، بل في الطريقـة الـتي نـدخل فيهـا في العلاقـة، وشـكل الحيـاة، والـتفكير.. وهذا ما يطرح المعضلات أمامنا، دون أن نستطيع فعل الكثير!

يشرح «بول جيرادان» بدوره التفسُّخ الطويل والبطيء الذي مرَّت به «الكاثوليكيَّة الرومانيَّة» ويشير، مع كثيرين غيره، إلى زوال تأثير «الإكليروس» وهيمنتهم على الوعيِّ، والذهنيَّة السائدة، ويتساءل فيما إذا كان هناك بعض الأوساط «الإكليروسيَّة» تتأمَّل، وتعتمد «سرّاً» فكر الحداثة التي بدأت تفرض وجودها على الواقع المعيش!

في أعماقها لم تتقبَّل «الكاثوليكيَّة» أبداً هـذه الحداثـة الـتي تدعو إلى فرح القلب، والحنين لنظام قديم لا يتردَّد بمغازلة العناصر الأكثر شبهة كدعاة للحداثة بطريقة فوضوية:

- أيتكلَّمون عن الحداثة؟

- نعم! ولكن بسموٍّ ونبل، وبمزيد من الشفقة والحنوِّ! بالنسبة «للكاثوليكيَّة» لا حـدود يمكـن فرضـها، إذ إنَّهـا تعـني الضـعف والتهاون وعدم قدرتها على اقتراح البدائل لما أمامها من حلول.

ولكـن متـى تكلَّمـت «الكنيسـة» عنـدما توجَّهـت إلى الثقافـة المدنيَّة، وما كان هدفها عندما رفضت بصورة قاطعة حضارة العمل؟ أهو النَفَس «الإنجيليُّ» الذي يوحي إليها بهذا، أم هي الغيرة التي تثيرها رؤية بعض من مقاطعاتها تفقد تأثيرها، كما لو أنَّ الحداثة قد انتزعت منها واجب الأداء!

ولكي نقول ما نريد قوله بطريقة أقلّ قسوة لا يسعنا إلاّ أن نسأل:

- ما الذي تلهمنا إيّاه «الكنيسة» الحقيقة اليوم؟

من الظلم والجور أن نعزل «الكنائس» عن حياتنا، فأزمة وجودها التي يتكلّم عنها علماء الاجتماع تؤثّر تقريباً بالمؤسّسات كافّة. نحن ندخل اليوم في ثقافة «النفور» من كلّ ما هو مؤسّساتي، يتطلّب الالتزام! نفور من الحقيقة التي عرفناها هناك، نفور من المستقبل، والأمل في الغد.. نفور حتّى من الآخر بالقرب منّا!

هناك بحث قامت به «جامعة لوفان الكاثوليكيّة» منذ بضع سنوات حول القيم التي يتبنّاها الطلبة، والتي تؤكّد على الوعيّ. هناك أربعة سطور نافرة في هذا البحث:

- إنكار وعدم الاعتراف بعالم العمل الذي يبدو أنّه مظلم وغير أكيد: إنّ «غداً» يدعو للخوف، ولذا فمن العبث الدخول فيه بهذه السرعة التي نراها.

- الحاجة الملحة إلى علاقات عاطفيّة دائمة وقويّة، حتّى عندما نقيس عوامل الضعف فيها.

- الإصرار على ما هو قريب ويومي، يطرح نفسه ماديّاً، وبشكل مباشر.

- التأكيد على المسؤوليّة الشخصيّة: في الفعل لا في الكلام من فضلكم! واتركوا لنا مهمّة طرح الفرضيات!

إنّ أكثر من يفقد رأسه في المغامرة هم رجال السياسة الذين نعدّهم «بعيدين عن الواقع»، وما رجال «الكنيسة» إلاّ ضحايا مؤسّسة

لا يعرفون ما الذي يقولونه فيها[1].

هكذا وجدت جميع المظاهر الاجتماعيَّة نفسها محطّ تساؤل وشبهة، وساد شعور عبَّر عنه «غابريل مارك» بقوله:

- «لم نعد نطيق وجودنا كقطع ميتة في المتحف بسبب كنيسة لا تفعل شيئاً سوى الكلام منذ العصور الوسطى»!

علينا ألاَّ نستهين بالأذى الذي ألحقه «الإكليروس» بنا: إنَّه عميق أكثر مما نتصوَّر.

أعتقد جازماً أنَّ الكثيرين من «المسيحيين والعلمانيين» والقساوسة يعانون الألم من التزامهم بكلام عام قالته «الكنيسة» بعيداً عنهم، دون حضورهم، ومن علٍ.. سمعوه!

«هو كلام لا يتعرَّفون فيه دائماً على روح «الإنجيل»، كلام «يحجر» على الكلام المؤمن الجماعيِّ، مؤسَّساتيَّاً، كلام يعطي الأولويَّة لأعمال «المَجْمعَات الكنسيَّة»، ويضع المسائل الحيويَّة بين قوسين! لا عجب إذن أن نرى منذ الآن تدهور «الكنيسة الأمِّ»، وانحدارها في المهاوي البعيدة.. حيث لا أمل!

(1) Liliane Voyé, «Les étudiants de I'UCL», 1994, p. 41.'

«ليليان لوي»: طلبة الجامعة الكاثوليكيَّة في لوفان - 1994 - ص41.

6ـ ثوب الكاهن وأحمر الشفاه:

مـرَّة ثانيـة أجد أنَّ الأشياء ربما تكـون أكثر قتامة وسوءاً ممَّا نعتقد.. هناك صورتان أستطيع من خلالهما أن أفهم:

الأولى تلك التي تقودنا إلى «الفاتيكان» عام [1978]، وتحديداً بـ [23 تشرين الأول منه].

في ذلك اليوم كان «البابا جان بول II» الذي لم يكن قد تعوَّد على «مهنة البابا» هذه يستقبل مواطنيه «البولونيين» بحماسة قيل فيما بعد «أنَّه لم يخرج منها سليماً معافى»، لأنَّه كان هناك الكثير من «المواطنات» بين المواطنين! أريد أن أقول بأنَّ هؤلاء المواطنات كنَّ يصافحنه ويقتربن منه كثيراً حتَّى إنَّ أحمر الشفاه ترك أثره على ثوبه الأبيض. كان بين الحضور مطران شاهد ما حدث، وسمع كلَّ ما دار من أحاديث، وقد روى في ذكرياته أنَّ «ثوب البابا» كان ملطَّخاً بأحمر الشفاه!

الصورة الثانية المدهشة أستعيرها من «جان سيليفان»، وهي قصة تحكي عن أسقف أراد أن يبدِّل دولاب سيارته، في هذه الأثناء مرَّت سيِّدة أرادت أن تساعد هذا السيِّد العزيز، فاقتربت منه كي تصافحه، وحين مدَّ لها يده قبَّلت خاتمه «الأنكليكانيّ» الثمين، في حين قال لها «مضطرباً»: إنَّه في صندوق السيَّارة مع مجموعة الأغراض، كان يريد أن يشير إلى الدولاب!

هاتان الصورتان للثوب الأبيض الملطّخ بأحمر الشفاه، والخاتم «الأنكليكانيّ» يمكن أن يمثّلا للكنيسة حكمة ورمزاً ذا معنى: هو معنى الخوف من العالم، والخشية من الإغراء، ونبذ الجسد، واليد النظيفة واليد القذرة، والمقدّس الزائف. إنّ «الكنيسة» تجد نفسها اليوم في مواجهة الحداثة.

هذا يشير لنا إلى حدود وانفتاح، إلى معنى ما. إنّ التناقض الذي تواجهه «الكنائس» اليوم هو أنّهما في الوقت الذي تطالب فيه بمعنى لما يحدث تشعر بزوال المحبّة والعطف نحوها.

يريد معاصرونا معنى لما يحدث، ولكنّهم يرفضون الفكر المعياريّ، و«الكنيسة» هي الأخرى تقوم بإنتاج معناها دون معايير له.

هو ذا التبدُّل المطلوب من «الكنائس» أن تقوم به، الذي أفهم أنّه تبدُّل يثير الدوار في الأذهان كتغيير!

أن نطرح المعنى دون أن نغلق عليه، وأن نقدّم معنى يفتح لنا النوافذ على الهواء وأن نتوقّف عن الكلام مثل القساوسة الطغاة[1].

هو مثال للراعي السيء الذي يترك النعجة الضائعة كي يظلّ بالقرب من التسعة والتسعين نعجة، وهو نفسه الذي سيظلُّ بالقرب من الثمانية والتسعين ويترك النعجتين الضائعتين... وهكذا سيفقد كلّ يوم نعجة جديدة حتّى يجيء اليوم الذي سيظلُّ بحوزته نعجة واحدة!

- ما الذي تنتظره «الكنيسة» كي تهبَّ لاستقبال التسع والتسعين نعجة؟ لا لكي تستعيدها بأيِّ ثمن، ولا لكي تعيدها إلى الحظيرة

---

(1) Jacques Neirynck, Le Manuscrit du Saint Sépulcre, Paris 1994.
«جاك فيرنيك»: مخطوطة القدّيس سيبيلكر - باريس 1994.

رغماً عنها، ولكن لكي تتحدَّث معها، والأفضل أن تترك لها حريَّة الكلام.

بهذا سوف تكبر «الكنيسة»، وسوف تقدِّم دليلاً على شجاعتها إذا سألت اليوم «المسيحيين» الذين تركوها:

ـ : «لماذا»؟

إذا تجرأت على الإشارة لهم، لا فرضها عليهم، إذا تجرأت على المواجهة.

إذا تجرأت على التفكير

إذا تجرأت على الابتكار وخلق ما هو جديد

إذا تجرأت على أن تحظى بدورها، مثلنا جميعاً!

إذا تجرأت على الإشارة لهم، لا فرضها عليهم، أعني أن تقترح معالم، ومعايير بَصِيْرة، وتوجيهات للعمل.

لقد قال «سيمون ويل» ذات يوم بكلِّ شجاعة:

ـ «أعترف بمهمَّة «الكنيسة» وحقِّها باتِّخاذ القرارات حول بعض المواضيع الأساسيَّة، ولكن فقط كمرشدة للمؤمنين بها، ولا أعترف لها بالحقِّ بفرض التفاسير على هواها..»!

إذا تجرأت على المواجهة، واستطاعت أن تلعب دورها في الرأيِّ العام، والقبول بحقِّ الآخرين بميولهم وتطلُّعاتهم، والعمل على بناء «تجمعات كنسية» أصيلة، وأن تتحرَّر قبل أن تقرِّر، وأن تتقبَّل بروح «إنجيليَّة» العيش مع الصراعات التي تدور حولها، وأن تسمع، كإشارة صحيَّة الكلام الذي لا يعجبها من ناقديها!

إذا تجرأت على التفكير، وذلك كي تستطيع الاستمرار في الكفاح، والتغيير الحقيقيَّ للبراهين والأدلَّة، دون فرضها بالقوَّة

والهيمنة. عليها أن تشجِّع تجربة الوعيٍّ، وأن تقوم بالتهذيب والتعليم، ومطالبة الناس بتقديم عرض وتقرير عن ذكاءهم!

إذا تجرأت على الابتكار وخلق ما هو جديد، بمعنى آخر ابتكار تنظيم أقلّ «إكليروسيَّة»، وإقامة رفقة ومصاحبة مع ذوي «الأسرار المقدَّسة»، والعمل على اختيار وزراء جدد، وحياة جديدة بأشكالها المتعدِّدة.

وأخيراً، إذا تجرأت على أن تخطئ بدورها، مثلنا جميعاً! هنا أريد أن أسأل:

- لِمَ حين نقرأ نصَّاً رسميَّاً يبدو لنا أنَّه نص محدَّد، مغلق وغير قابل للنقاش، وكأنَّه يريد منَّا أن نطبِّقه دون اعتراض على جملة واحدة منه!

على «الكنيسة»، إذا ما أرادت أن تقترح فكرة ما، ألاَّ تقول كلَّ شيء دفعة واحدة حول هذه الفكرة. ألاَّ تفرضها عنوة، ألاَّ تقيسها على مقاييسها الخاصَّة، على الكنيسة أن تتعوَّد الخطأ، أن تخطئ بدورها كما نخطئ نحن جميعاً:

- أيُّها السادة، إنني لأشعر بالقلق والاضطراب لأنَّكم لا تخطئون أبداً! اخطأوا وستحظون بأكثر من فرصة تجدون فيها أنفسكم على حقٍ... فعلاً[1].

- ألاَّ يعني كلامنا هذا أنَّنا نولي أهميَّة كبيرة للـ«الكنيسة»؟

اتَّفق مع «برنار فايي» بأنَّ «الكنيسة» تأتي في المرتبة الثانية، وأنَّها نسبيَّة، مثلها مثل الدين!

(1) Jean Sulivan, Matinales. Itinéraire spirituel, Paris, 1976, p. 335.
«جان سيليفان»: صباحيَّات - المسيرة الروحيَّة - باريس 1976، ص335.

لا هي ولا الدين يمكن أن يأخذا الكلمة الأولى! لا هي ولا الدين يمكن أن يحيطا باسم «الله».

ولكنّنا نتساءل ما إذا كان الدين يدافع عن «الكنيسة» والكنيس والجامع كما يرافق البشريّة في بحثها الدؤوب عن الروحانيّة بمفهومها العميق..

بلى! نريد الإصلاح! ولكن انتبهوا: إنّ الإصلاح يهرم ويشيخ باكراً أسرع ممّا نتصوّر، وهو قادر على أن يختفي إن لم يكن باستطاعته الولوج إلى عمق الأشياء.

إذن، نحن لسنا أمام تأقلم بسيط، أو محاولة للحداثة كما يراها البعض، بل هو القلب الذي يتعرّض للمساءلة والتمحيص، هي شكل الوجود نفسه، مع «الله» والبشر معاً.

المشكلة ليست في السلطات التي يمكن أن تتغيّر غداً، ولكن في «الحبّ» الذي عليه أن يستولي على تلك القلوب الفارغة إلاّ من الهواء.

إنّ كنيسة «يسوع» فقيرة من الخارج، ولكنّها أكثر غنى من الداخل ممّا تبدو عليه! هي مُنَظَمةٌ تبعاً لتراتبيّة اعتادتهما، ولكنّها أكثر حياة ونبوّة!

ربما تكون قد أفلست ماديّاً، ولكنّها ملأى بالكنوز الروحيّة الغريبة، ولسوف تعود يوماً إلى الحياة مثالاً للإيمان والعقيدة والأمل. ربما علينا أن نلمس العمق كي نجد بنية البناء[1].

---

(1) Jean Mouttapa, Dieu et la revolution du dialogue, p. 114.

«جان موتابّا»: «الله» وثورة الحوار ـ ص116.

أتذكّر الآن إحدى المدرِّسات التي أرادت أن تلد في المنزل بعيداً عن المشفى والأطباء والجلبة، كان حملها هذا هو الثالث، ولكنَّ الولادة كانت طويلة وصعبة!

ولد الطفل وحبل السرَّة ملفوف حول عنقه. لم يستطع التنفس ولا الصراخ. عندها أسرعت الممرضة إلى المطبخ كي تأتي بالماء الساخن، ولكنَّ المرأة ركضت عارية في دمها وانتزعت الحبل الواصل بيديها فحرَّرت الجنين الذي بدأ بالصراخ، وهي تقول له:

«تعال، تعال يا صغيري»! عندها فقط قرَّر الطفل أن يولد، وأن يحيا!

ألا يمكن لهذا النداء «تعال، تعال يا صغيري» أن يجعل «الكنيسة» تولد، وتحيا؟

لا يمكن لنا أن ننسى النداء الذي يثير الدوار في النفوس وهو يتردَّد في «أسفار» الكتاب المقدَّس، ويوجِّه كلامه اليوم إلينا:

- «اذهب. اذهب للبلد الذي أعطيك إيَّاه! انهض وتقدَّم إلى عمق الأمواه! للأعمى منذ الولادة لم يقل «يسوع» يومها: «انظر، لقد أنقذك إيمانك»، بل قال: «اذهب» لقد أنقذك إيمانك»!

- هل باستطاعة «المسيحيَّة» الخروج؟

- أيمكن لها أن تستمدَّ القوَّة من ضعفها وهشاشتها؟

- أيمكن لها أن تجد نفسها في لحظة ضياعها؟

عليها أن تجد نفسها، لأنَّ مستقبلها كلّه يتوقَّف على ذلك!

لم يكن الخروج من «مصر»، وعبور «البحر الأحمر»، واختلاطها مع الغرباء، ومواجهة التعدُّدية.. من أجل هداية الشعوب، ولكن من

أجل أن تهتدي هي، ومن أجل أن تكتشف ذاتها التي كانت شبه غامضة مبهمة!

كان الخروج من «مصر» يعني لها التجوال والتنقّل، ولكنَّه ليس التجوال والتنقّل الذي يأخذ معنى التشرُّد والشطط والهيام على الوجه.. بل هو التقدُّم البطيء والصعب على طريق دون إشارات!

إذن نحن ههنا بحاجة إلى الجذور وتحجُّر القلب. لقد وعت «إسرائيل» في «بابل» كونيَّة آلهتها. وفي بابل ربما تكون «المسيحيَّة» قد حظيت بنفس جديد، وينابيع جديدة.

لم تكن «بابل» بعيدة دائماً، ولم يكن «يسوع» قد تجاوز حدود «إسرائيل»، إنَّ «بابل» في الداخل، وشواطئ «البحر الأحمر» تبدأ من المنزل.

الخروج من «مصر» وعدم العودة! تذكَّروا امرأة «لوط»، ووصول المَلَكَيْن لمنزل ابن أخ «أبراهام»: لم يكن قد نام بعد حين أحاط بداره ناس المدينة «فنادوا لوطاً وقالوا له أين الرجلان اللَّذان دخلا إليك اللَّيلة، أخرجهما إلينا لنعرفهما فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه وقال لا تفعلوا شرّاً يا إخوتي، هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم، وأمَّا هذا الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنَّهما قد دخلا تحت ظلِّ سقفي فقالوا أبعد إلى هناك، ثمَّ قالوا جاء هذا الإنسان ليتغرَّب وهو يحكم حكماً، الآن نفعل بك شرّاً أكثر منهما، فألحّوا على الرجل لوط جدّاً وتقدَّموا ليكسروا الباب، وأمَّا الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير، فعجزوا عن أن يجدوا الباب.

وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا أصهارك وبنيك وبناتك وكلّ من لك في المدينة أخْرِجْ من المكان لأنّنا مهلكان هذا المكان، إذ قد عظم صراخهم أمام الربِّ فأرسلنا الربُّ لنهلكه، فخرج لوط وكلم أصهاره الآخذين بناته وقالوا قوموا اخرجوا من هذا المكان لأنَّ الربَّ مهلك المدينة، فكان كمازحٍ في عين أصهاره، ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجّلان لوطاً قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلاّ تهلك بإثم المدينة، ولمّا توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الربِّ عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة، وكان لمّا أخرجاهم إلى خارج أنّه قال اهرب لحياتك، لا تنظر إلى وراءك ولا تقف في كلِّ الدائرة، اهرب إلى الجبل لئلاّ تهلك، فقال لهما لوط يا سيِّد هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظّمْتَ لطفلك الذي صنعت إليَّ باستبقاء نفسي، وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل، لعلَّ الشرَّ يدركني فأموت، هو ذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة، أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة فتحيا نفسي، فقال له إنِّي قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلّمت عنها، أسرعِ اهرب إلى هناك لأنّي لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك، لذلك دُعِيَ اسم المدينة صوغر.

وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الربُّ على سدوم وعموريَّة كبريتاً وناراً من عند الربِّ من السماء، وقلب تلك المدن وكلَّ الدائرة وجميع سكّان المدن ونبات الأرض، ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح..[1]».

---

(1) سفر التكوين ـ الأصحاح التاسع عشر.

بعد قليل سيخرج «يسوع» من «الهيكل» وسيغادر المكان، بينما يحاول تلاميذه استبقاءه، ولكنَّه ظلَّ سائراً في طريقه دون توقُّف، ودون أن ينظر خلفه!

ليس الهيكل لحظة نقضيها، يقول «يسوع»:

- «الحقيقة أقول لكم، إنَّه لا يُتْرك ههنا حجر على حجر لا يُنْقض[1]»!

الخروج من «مصر» وعدم العودة إلى ما هو بالٍ، دون قيمة!

الخروج من «مصر» يعني بالنسبة «للمسيحيَّة» ليس فقط الوجود، بل هو خلق شكل جديد له، وطريقة مثلى لملء الفضاء، والاستماع، والتنفس، والنظر، أي كلَّ ما يمكن أن نسميه ببساطة «نمط حياة»!

إنَّ التأكيد على أنَّ الجهل وعدم الخبرة ليس حالة اختياريَّة لا يمنع العمل على تجاوزها وتثويرها، لأنَّها ليست حكراً على فئة اجتماعيَّة دون أخرى، ولا على شعب دون آخر.

هي شكل من أشكال الحياة لا يهدف إلى فرض نفسه على أحد دون موافقته والتأقلم معه.

هذه الحالة من الجهل صيرورة ديناميكيَّة، ومواجهة تجد «المسيحيَّة» نفسها أمامها، وهي مثخنة بالجراح بيد ثقافة أخرى تتقبَّلها مع مرور الأيام! «إنَّ حالة الجهل هذه تولِّد بالضرورة خلقاً جديداً» على حدِّ تعبير «بيدرو أريب».

(1) إنجيل مَتَّى - الاصحاح الرابع والعشرون.

أتقدَّم بالشكر في هذه المناسبة لأصدقائي «البروتستانتين» وخاصَّة «الفرنسيين» منهم، والذين نجحوا بالتوفيق بين الالتزام بالمواطنة وثقافة لهويَّة مفتوحة. أشعر بصدى صوت هذه «البروتستانتيَّة» الصادق يؤكد على وفاء حقيقي «للعلمانيَّة»! لا أقول بأنَّ «البروتستانتيين» يقفون بعيداً عن عاصفة الحمَّى التي تهبُّ من وقت لآخر، فهم أيضاً عانوا من انغلاقهم على أنفسهم في مرحلة ما، ولكنَّهم اليوم يحاولون «هضم» مبادئ «الثورة الفرنسيَّة» والوقوف مع العامَّة، وهذا حدث يبدو لي أنَّه سيحمل الخير والسعادة للجميع.

علينا أن نتذكَّر أنَّه ليس هناك من طريقة «رومانيَّة» لصناعة «اللَّاهوت»، وأنَّ الطريقة الغربيَّة ليست وحدها القادرة على تنظيم المؤسَّسات وإدراك فحواها، إنَّ الخروج من «مصر» بهذا المعنى هو دخول إلى «بابل» السيئة الثقافة، والتي تتذوَّق عصرها دون أن تجهل ظلمتها الشديدة السواد، وهي تحمل شعارها المفضَّل: «كلَّما كنت شرساً، متذمِّراً، عابساً، كلَّما كنت مسيحيَّاً بحق»!

الخروج من «مصر» هو ابتكار نمط! وإيجاد «مسيحيَّة» خصبة أيضاً: «إذا لم تكفَّ الكائنات البشريَّة عن كونها أطفالاً للمذبح، أو نساء راهبات، أو قساوسة، أو علمانيُّون وإكليروسيكيُّون.. سوف لن يتغيَّر شيء في حياة الشعوب»، كما يقول «جان سيليفان».

ليعذرني أطفال المذبح والنسوة الراهبات والقساوسة والعلمانيون «الإكليروسيكيُّون»، فأنا أحبُّهم كثيراً، وأعتقد أنَّني أعرفهم أكثر ممَّا يظنُّون، لأنَّني قضيت معهم وقتاً طويلاً! ربما يكونون هم أيضاً يريدون التغيير الذي أبحث عنه، إذن، لنخرج سويَّة، ولنلق بخلافاتنا في الطريقة التي ننتظر بها «المسيحيَّة» عرض الحائط.

انظروا إليهم، انظروا هؤلاء المبشِّرين الجدد وهم يتكلَّمون بأصوات مرتجفة، وكلمة «يسوع الوديع» ملء أفواههم، انظروا ابتساماتهم «الدعائيَّة» المتزلفة، ودعواتهم التي تفوح منها رائحة «التقتلين»! يقول «جان سيليفان»:

- عندما أسمعهم أتصوَّر رجلاً راشداً ينحني على طفل كي يسرق منه السلسلة الذهبيَّة في عنقه، وأرى النظرة الساخرة بعينيِّ الطفل، وهو يقول:

- «اعتدل، أيُّها المسيحيُّ»!

- إلام نظلُّ نحتقر «الصغار»، ونجيب على أسئلة لم يطرحوها، ونقدِّم لهم اللَّحم المسلوق كي لا يُصَابوا بالاضطراب؟

عندما أرى الحالة الطفوليَّة التي وضعنا «المسيحيين» بها، والغباوة والجهالة اللَّتين فرضناهما على عقولهم أحسُّ بعقدة الذنب تنشب أظفارها في قلبي، مع شعور بالسخط والغضب يتملَّكني بعنف. لا أستطيع أن أتحمَّل كيف حوَّلنا «الإنجيل» إلى مَرَق وحساء من أجل الموتى.

الخروج من «مصر» يعني أيضاً تعلُّم الحبِّ الذي لم نباركه!

هناك طرق عدَّة للحبِّ. ليست «الكنيسة» وحدها التي تمتلك مفاتيحه وهي التي تدعو علانيَّة إلى الصلاة والعبادة، أتستطيع فعلاً التفكير في ما لا يأتي منها؟ أيمكن لها أن تشعر بسعادة لم تعمل على خلقها؟ أتقدر على مباركة الرغبة الجنسيَّة، والإشارة بالعواطف بين البشر؟ أيَّة روعة نحسُّ بها في كلمات «أوليفييه كليمو» وهو يتحدَّث على «مسيحيَّة الغد» قائلاً:

ـ «سوف تحترم أهواءنا الأكثر جنوناً، دون أن تجهل عواقبها، وسوف تعلم أنَّ الذين يحييون ويموتون مع هذه الأهواء هم بشر يحملون ختم المطلق[1]».

لتتوقَّف «الكنيسة» عن إرهاقنا بتذكيرنا «بقوانين المبادئ»! لِمَ كلُّ هذا التحذير والإجراءات الوقائية؟

لِمَ كلُّ هذا الترصُّد، والتربص بأقوالنا وأفعالنا؟

لتترك مسألة «الجنس» على راحتها. من الطبيعي أنَّنا ننمو في خير وشرِّ الحياة. إذن! أين تريدون منَّا أن ننمو؟

ليس هناك متَّسع من الوقت كي نقف في معارضة بعضنا، إنَّ آفة الرذيلة والشرِّ طبيعية، وكذلك التفاهة والنقص. هناك ما هو أهمُّ عندنا:

وهو أن نلقي بكلمتنا، وندعو إلى البداوة والهيام الروحانيين، أن نشجِّع «الموقَّت» في عالم لا يريد سماع صوتنا، أن نقول للجميع بأنَّ هناك ينبوعاً.. هناك على مقربة منَّا: يمكن أنَّنا لا نراه، ولكنَّه يتدفَّق بين الأعشاب التي تتنفس ماءه، وهو ينساب في أغنية ضفدع الشجر، وجناح الطائر...

الخروج من «مصر»، والإبحار نحو اللَّايقين، والاستمرار والمثابة في سبر المجهول، واكتشاف اللُّغة الشعرية المصابة بعدوى الغبطة، والتي تنشد تسبيحة «التبول»:

---

(1) Olivier Clément, Rome autrement. Un orthodoxe face à la papauté, Paris, 1997, p. 124.

«أوليفييه كليمو»: «روما» بصورة أخرى ـ أرثوذوكسي في مواجهة البابويَّة، باريس 1997، ص124.

ـ «فلتعظِّم نفسي الربَّ»! علينا أن نتمتَّع بقليل من المسِّ والجنون كي نفهم هذه الحالة من الإيمان!

ولكن مهلاً: لقد حدث شيء مدهش: نسمع أنَّ «المسيحيين» يزدادون كلَّ يوم في تحرُّرهم من العقيدة «الدوغمائيَّة»، وأنَّ «المشَّائين» بدأوا بفرض وجودهم العلنيِّ[1].

أمَّا اليوم فأتلقَّى رسائل من جميع الجهات، أسمعها، وأراها، بالمعنى الذي أفهمه، وهو إيجاد حريَّة للحركة، واستنشاق رائحة جسمها... هكذا ربما تظلُّ «المسيحيَّة» بحاجة إلى إعادة اكتشاف، بل إلى إعادة خلق وابتكار.

ظلَّت «المسيحيَّة» طيلة ألفيْ عام تحت إشراف الغرب، من يقول بأنَّها لا تظلُّ كذلك غداً، إذا ما وُجِدَتْ في طرف البداية، في الواقع ما زال «الإنجيل» بيننا، ولكنَّه لم يحاول أن يقوم بدوره بعد.

اليوم، هناك سؤال يطرحه البعض:

ـ لِمَ نصرُّ على وجود «الكنائس»؟

ـ ألا ننجح بالخروج مجدَّداً من «مصر المسيحيَّة» دون هذه «الكنائس»؟

لدينا الكثير من الذين يصرِّحون لنا بانتمائهم «للمسيحيَّة» روحيّاً، دون أن يشعروا بالحاجة للذهاب إلى «الكنيسة».

ـ ما الذي ستحتفظ لنا به العصور القادمة من هذه «الكنائس»؟

---

(1) «المشاؤون» حركة دينيَّة نشأت في «ألمانيا» في القرن السابع عشر، أكَّدت على دراسة «الكتاب المقدَّس» والخبرة الدينيَّة الشخصيَّة.

- من يقول بأنّه في قلب الغرب، في القرن التاسع شعر، لم نر إعادة تشكيل غير مسبوقة للعَمَه المسيحيِّ، حتّى إنّ «دتريش بونوفيه» تكلّم عن ظهور «مسيحيَّة» غير دينيَّة، أي مسيحيَّة تهتمُّ بالنفس «الإنجيليِّ» وتحاول التخفيف من حدَّة المفردات التي يستخدمها «الكتاب المقدَّس» حول نمط الحياة والتفكير الحديث العهد.

لا أستبعد هذا النوع من التطوُّر، ولكنَّني أستشعر أيضاً مخاطره، ومخاطر «اللّاأدريَّة» دون «كنيسة» أو قربان مقدَّس.

أنْ تتشبَّث بالبعد الصوفيِّ «للمسيحيَّة» مع ستر دورها الاجتماعيِّ القويِّ، وأن نتنكّر لتاريخها في مقارعة الظلم والاستبداد عبر التاريخ أيضاً، وأن ننسى، أو نتناسى المسؤوليَّة والحريَّة، وكلَّ ما يتعلَّق بالمفاهيم التي تعلّمناها من هذه الكنيسة، يعني أنَّنا ندخل بسرعة إلى بلاد الطائفيَّة!

قد نرى أنَّ هذه الطائفيَّة تلامس أحياناً، بل تهدِّر «الكنائس» من داخلها، على الأقل في بعض تيَّاراتها ولكنَّ هذا لا يمنع، وأنا شاهد على ما أقول، إنَّ «الكنيسة» تشهد اليوم كلاماً يتردَّد صداه في ردهاتها، وجدلاً حول «التعدُّديَّة» يهزُّ أركانها، وهذا ما أراه بشير أمل يبعثها من جديد.

تجد «الكنائس» نفسها اليوم في مواجهة الجماهير المتطلِّبة والناضجة أيضاً، وهي الجماهير التي تنتظر إنقاذ حريَّة العمل في قلب انتماءاتها نفسه، والجماهير التي تنادي بحريَّة الفكر دون أيِّ استثناء بين ظهرانيها، أخيراً الجماهير التي تريد غذاءً دسماً يقوِّي عزيمتها في البحث عن المعرفة.

هنا، لا أطرح جماهيراً خياليَّة، فهي موجودة بيننا، بالأحرى، هي نحن، بكلِّ ما نمثِّله من تيَّارات وعقائد، ربما نكون أقليَّة حتَّى الآن، كما يقول البعض، وهذا أمر يتطلَّب البحث والتدقيق، ولكنَّها أقليَّة حيَّة على أفضل وجه، خاصَّة وأنَّها تكاد أن تلتحم بالأقليَّة «العلمانيَّة» والتي سوف تكون عوناً للمجتمع التعدُّديِّ، وسوف تُبْعد عنا شبح التعصُّب الطائفيِّ، ولا العنصريَّة المقيتة التي لا عمل لها سوى شحن الكراهية والبغضاء بين الشعوب.

يمكن للشجاعة التي تتطلَّبها «المسيحيَّة» اليوم، والتي ستكون رمزاً للنضوج أن تتجلَّى بتناقض بسيط: وهي القبول بوجودها كأقليَّة دون أن تتحوَّل إلى طائفة أو مذهب!

7 ـ ألاّ تتكلّم كثيراً:

في قلب «التعدُّديَّة» الميمونة التي تزعزع المسيحيَّة الآن، هناك سؤال رئيس يطرح نفسه على الحوار مع الديانات الأخرى، والعالم العلمانيِّ الذي يسأل والدليل أين هو الدليل؟

ليس هناك من اتِّفاق حول معنى الدليل!

أن تستند «المسيحيَّة» على «البشارة السعيدة» التي عليها أن تُعْلَن؟ يكفي أن نفتح الوصيَّة الثانية كي نقتنع بهذه البشارة. إذن، ليست المسؤوليَّة «المسيحيَّة» في بنائها هي التي تطرح المشكلة، ولكنَّها المسؤوليَّة التي نتوصَّل بها إلى الإيمان. هنا نقول باختصار إنَّ الانطباعات المتداخلة كثيرة، ولكنَّ اثنين منها يظهران بوضوح:

هناك موجة المبشِّرين الأوفياء «للإنجيليَّة الجديدة»، وهي الموجة التي تطرح الأسئلة حول حالات الروح! علينا أن نتكلَّم، وأن نرفض برودة العواطف، وأن نتعامل مع جميع «المسيحيين» على قدم المساواة، بما فيهم رجال الكهنوت.

الفئة الثانية من «المسيحيين» تبدي تحفُّظاً لهذه الأيديولوجيَّة التبشيريَّة، وتنأى بنفسها في طي الكتمان، وتأخذ موقف الصمت في كثير من الأحيان.

«محاولة الصمت» هذه التي تكلَّم بإسهاب عنها الكثير من الكتَّاب والمفكِّرين وعلى رأسهم «باتريك جاكمو» جديرة بالاهتمام،

والبحث عن كثب، لأنّها تشكّل اليوم ظاهرة اجتماعيَّة أكثر من أيّ يوم مضى. محاولة الصمت هذه تأخذ وجوهاً عدَّة: التردُّد، الشكُّ، الاحترام الشكليُّ، التساؤل..

صمت التردُّد يعكس القلق الذي يشعر به البعض أمام قضية الإيمان نفسها، وهم ليسوا واضحين أمام أنفسهم، وهم مع الآخرين، في وسطهم الاجتماعيّ، مع الأصدقاء والزملاء في العمل يبدون لا مبالاة واضحة لهذه القضيَّة [الإيمان]، ويتشدَّقون بمثل الالتزام الاجتماعيّ، وتغيير المجتمع، وما هو «مُعَاش» اليوم.

الصمت الذي يرتدي وجه الشكّ، إن لم أقل وجه السخط والهياج أمام الرغبة الملحة التي يبديها «الإكليروس»!

لقد تكلّمنا كثيراً، خاصَّة حول «الهيمنة»، ورأينا أنَّ على «المسيحيَّة» أن تقدّم الدليل عن اعتدالها وتحفُّظها، لأنّه ليس من الممكن بعد الآن العودة على بلد «المسيحيَّة» بأشكال جديدة لوضع يد «الإكليروس» على وعينا البشريّ.

أسمّي النوع الثالث للصمت «الاحترام الشكليُّ»، الذي يبحث ببساطة عن مكان له بين القناعات المختلفة.

مهما نقول أحياناً، لا بدَّ أن نعترف بأنَّ مفهوم التسامح تطوَّر كثيراً في العالم «المسيحيّ» وبدأ كلام «الآخر» يأخذ طريقه إلى العلن بالرضى والموافقة.

في هذه النقطة بالذات نواجه الشكل الرابع للصمت، أعني صمت التساؤل الذي يتبع جوهريّاً مسألة «الدليل» التي طرحناها للتوّ:

- لماذا الإصرار على «الإيمان»، وهل هذا الإصرار ضرورة مطلقة؟

- لِمَ يجب على «الآخر» أن يؤمن بما أؤمن به؟

أحُسُّ في هذا النوع من الصمت رائحة الشكّ وعدم اليقين فيما يتعلَّق بالدعوة إلى الدين، وأشعر بأنَّه ينطوي على رفض للقاء مع «الآخر».

ولكن كيف تتمُّ المصالحة بين هذا الصمت الذي يطرح نفسه بتواضعه ونقده الذاتيِّ، مع مسؤولية «الإنجيل» التي تدَّعي المسيحيَّة بأنَّها وريثته الشرعيَّة؟

أهو التاريخ الذي يستطيع أن يفتح الطريق، كما فعل دائماً، للكوَّة السماويَّة التي ينبعث منها نور «الله»؟! لا أحد يستطيع التوكيد على ما لا يعلم!

إنْ لم أنسَ، هناك قصة ظريفة تروي أنَّ «الله» أراد أن يخلق العالم بعد أن ينام. وحين استيقظ وجد تحت عرشه ورقة مكتوب فيها الاثنا والعشرون حرفاً عبريَّاً مع «التوراة» في حالتها الجنينيَّة، والتي هي بين أيدينا الآن!

أخذ «الله» الحروف واحداً تلو الآخر بدءاً من الحرف الأخير وخلق منه العالم، وخلق من الحرف الثاني «باء» beth والذي يعني «البيت». لنتذكَّر [بيت إيل - بيت «الله» _ Bêtef] و[Bêt- lehem _ بيت الخبز]، إذن فبيت تعني المنزل، الخيمة، المسكن!

وجد «الله» في الحرف الأول aleph وهو حرف ساكن، أنَّه سيكون «إقامته ونفسه الذي لا نسمعه ولكنَّه دائماً بيننا، وفيه يستريح «الله»، ويتوارى في صمت غياب في أعمق أعماق العالم، وفي كلِّ واحد منَّا!

دون [aleph, beth] لم يكن «الله» ليَسْكُن، وهذه حقيقة يعرفها المهندس المدنيُّ والبنَّاء والفنَّان والشاعر! لكي يصبح المنزل جميلاً، ولكي تصبح المدينة حيَّة، ولكي تزهر الحدائق، يجب أن يتَّحد حرفا الأبجديَّة: «آ»، وهو الصمت والحجاب والنور البدائيُّ، مع «ب»، وهو المادَّة والديمومة والصراع وتراجيديا العالم.

ربما أكون قد فهمتُ «كلودفيجي» حين تكلَّم عن هذه الحكاية بقوله:

- «طيلة حياتي، وأنا أشعر بالرغبة في العودة إلى مملكة «الألف - آ» الصامتة. ربما يكون شعوري ناجماً عن الحاجة والعطش والسعادة، وربما يكون عملي الأساسيّ الذي أقوم به، ورغبتي التي تلازمني في أحوالي كلِّها.

كانت هذه تجربتي المباشرة، والرائحة التي لا مثيل لها.. لقد أنقذتني من ظلام العالم، ودون شك، لقد أنقذتني أيضاً من ظلمة الموت[1]».

- أليس هذا صمت رائع؟ صمت خامس، وصمت دليل نسمعه في كلام «داوود»، وهو يبحث عن أذن تستطيع سماعه!

هذا الصمت المهيب الذي سوف يسمعه النبيُّ «إيلي» على جبل «حوريب»، صمت يخيِّم على العالم بعد الرياح والنار، كان «لوسيان كيسار» قد أثاره بطريقته الخاصَّة، على المثال المدهش للمدرِّس الذي أصبح راعياً.

---

(1) Claude Vigée, Dans le silence de l'Aleph, Paris, 1992.

«كلود فيجي»: في صمت الألف آ - باريس 1992.

هذه ليست قصَّة هروب، كما يخبرنا الكاتب حين يقول:

- «لم يتخلَّص الراعي من العالم وهو أعلى الجبل، ولكنَّه ظل يرعى الخراف»..

ولكنَّ هذه القصَّة تتعلَّق بالدليل والكياسة اللَّازمة في الكلام، كما نسمعه في كلام الراعي الأخير الذي يتحدَّث فيه مع ضيفه:

- «ألاَّ تتكلَّم كثيراً! حين تهبُّ الرياح سوف نراها على ملامح الوجه»!

ألاَّ تتكلَّم كثيراً.. كثيراً لا تتكلَّم! هذا لا يعني أن تصمت. ولكن يعني أيضاً أن تتكلَّم بما يكفي للتعبير عن الموضوع الذي تتصدَّى له، كما يعني أن تستضيء بالقنديل الصغير الذي يحمله «الفلسطينيُّ» إليك، وهو القنديل الوحيد في داره، والذي قال عنه «الإنجيل»:

- «تلكم الحقيقة، فلا تخفوها»!

- «ألاَّ تتكلَّم كثيراً» تتطلَّب منا الدخول في الديمومة الطويلة للاستماع!

لا أؤمن كثيراً بالحوار، أعني بالحوار الدائر بين «المسيحيين والعلمانيين» دون أن يكون حواراً بطيئاً، متمهِّلاً.. كي نجيز للإجابة الأخرى أن ترى النور علينا بالديمومة، والمثابرة، والثقة، والقدرة على التشبُّث بالحوار في حالات عدم الرضى والموافقة، أعتقد، مثل مؤلفيْ كتاب «زمن الصبر» أنَّه علينا أن ندافع عن «صمت زمن الوجود»، وأن نتجاوز الشكليَّات، والتصنيفات، وأن نخلق الجوَّ المثاليَّ لسماع الكلمات النابعة من القلوب أيضاً، والإيمان بأنَّ «الآخر» يمكن أن يكون قد هيأ لنا مفاجأة سارَّة.

- لماذا نتسرَّع في تصريحاتنا، كما لو أنَّها الوحيدة التي جاء بها «الإنجيل»؟

- أليس هو الخوف الدائم الذي يدعونا إلى تكرار ما نقوله، للتأكيد عليه؟

«ألاَّ نتكلَّم كثيراً» تعني أن نختار كلامنا الذي نريد قوله دون تزيين: لقد كرَّرت «المسيحيَّة» أقوالها، وقد حان الوقت أن تخفِّف من آلامها: ما الذي يمكن أن تقوله لقادة «الرومان»، بالقرب من «كفر ناحيم» حين يطلبون منها اليوم: «قولي كلمة واحدة فقط»!

- ما الكنز الذي أخفيه في حقلي؟

- ما الجوهرة التي تستأهل منِّي أن أضحي بكلِّ ما عندي من أجلها؟

كان «كيركغارد» قد طرح هذا السؤال في مذكَّرته:

- «ما الكلمة الوحيدة التي يمكن أن تقال»؟

الوحيدة، والجديرة بالاستماع. لتكن كلمته! هذه ليست لعبة أبداً، ولكنَّها المسؤوليَّة بعينها: إنَّ اختيار الكلام يستلزم كلاماً آخر في ظلِّ الصمت، كما يستلزم أيضاً التركيز، والتوجُّه مباشرةً إلى الغاية مع احتفاظه بالأفق المفتوح على مصراعيه.. للتعدُّدية!

على كلِّ واحد أن يطرح خارطة لطريقه!

أخاطر إذ أقول بأنَّ جثوَّ «الله» وركوعه مساء «الخميس المقدَّس» هي الحركة الأشدُّ غرابة وذهولاً في «الإنجيل»، وهي الحركة المحيِّرة الأكثر تشوُّشاً وجنوناً وعدم فهم: [« إله » يضع جبينه على الأرض، ويسعد أن يكون على مستوى الإنسان] كما يقول «جان إيف كليك»!

نرى صورة دراماتيكيَّة في مشهد غسل الأقدام، ذلك لأنَّ مرافقيه لم يكونوا قد فهموا بعد مستوى الإنسان «يسوع» في وصيَّة مثيرة، يائسة تقريباً، سوف تحاول أن تنتزع الوفاق النهائيَّ.

في جاذبيَّة اللَّحظة التي أدرك فيها نهايته، كان عليه أن يغسل أرواح تلاميذه، لأنَّ هذا أسهل بالنسبة له، وهو بحاجة إليه فعلاً، ولكنَّه أبى إلاَّ أن يغسل أقدامهم بقليل من الماء: هو ذا إله من وراء شعار يحطِّم العلاقة القديمة بين العنف والمقدَّس، ذلك لأنَّ الأمر لا يتعلَّق بالركوع، بل على العكس، هو النهوض لأنَّ «الله» ينخفض!

فجأة، تتشقَّق الجدران، ويبدأ العالم بالتأرجُح والانكفاء، إذ يهرب الخوف لأنَّ الإنسان وجد نفسه ثابتاً على قدميه:

- «انهض وامشِ»! هي ذي جوهرة «المسيحيَّة» النادرة، وعريُّ «الله» الذي وضعته «رسالة إلى «الفيليبيين» بأنَّه «أفرغ نفسه، واتَّخذ شكل عبد»!

كي نحاول شرح هذه الحركة التي يتجلَّى فيها الخروج من الذات لا بدَّ أن نفهم «اللَّاهوتيين» حين يتكلَّمون عن «الخواء» حين يختبئ وراءه الكثير من العلماء، هي مفردة تستحيل ترجمتها بطريقة عرضية، وعلينا انتظار أكثر من انحناءة «الله» العاري من صفاته التي أرى فيها موت الغيرة وولادة صداقة نادرة:

- «لم أعد أسمِّيك خادماً، بل صديقاً».

بالروح نفسها ، أريد أن أثير «استراحة الله» بعد خلقه العالم: هنا يتناقض «الله» مع نفسه، ويحدِّد ألوهيَّته حين يفتح فضاءً أمامه، في الوقت الذي يجد الإنسان نفسه في حدود هذه الألوهيَّة. لم يكن «الله» قد تشتَّت في أجزاء العنصر الإنسانيِّ:

- «نحتاج إلى القدرة الّلا نهائيَّة لخلق «آخر» ليس مجرَّد «آخر»، كما نحتاج إلى ضعف غرائبي كي نعطي هذا «الآخر» حدود حسيَّته الّلا محدودة[1]».

في مشهد الركوع ليلة الخميس اقترب الضعف الغرائبيُّ كما لم يقترب من قبل، وفتح المسافة التي تجيز الدخول إلى «السامي» في عليائه!

الركوع هنا هو كلام يعبِّر عن التحوُّلات التي ستحدث فيما بعد؟

لم أنس يوماً «الغريق الأجمل في العالم»، والقصص التي تداولها الناس هي قصص حولهم أيضاً، إنَّ كلَّ جسم بداية لحوار طويل، وجسم الميت سوف يبعث الحياة في أحلامهم!

ليس جماله وحده الذي يتكلَّم، ولكنَّه كلامهم أيضاً:

- أكانوا حقّاً يتمتَّعون بالجمال مثله في يوم ما؟

إنَّ «الغريق الأجمل في العالم» يجعلهم ينسون اللَّحظة التي كانت الحياة تعيش أصعب أوقاتها! لا أدينهم بشيء، بل إنَّ كلَّ ما أريده لهم هو حياة سعيدة وسهلة. إنَّني أحاول أن أتشبَّث بروحي في اللَّحظة الصعبة تلك، وأن ألامس الحكمة الغافية في أعماق كلِّ واحد منا، أريد أن أتكلَّم عن هذه الحكمة التي ستصبح كفراً وزندقة، كما فعلت القداسة مع الدين: تطرُّف في العيش!

---

(1) Olivier Clément, La Révolte de l'Esprit, Paris, Stock, 1979. P. 26.
«أوليفييه كليمو»: تمرُّد الفكر ـ باريس 1979 ـ ص26.

على «المسيحيَّة» أن تشعر أنَّها تعيش في زمن صعب، ولا أقول في زمن معقَّد! أنا أيضاً بحاجة إلى الهواء والراحة، ولكنَّ الزمن الصعب لا يستبعد السعادة، بل ينادي عليها في كثير من الأحيان:

- «إذا لم تصبحوا كالأطفال..»! هي دعوة للسير نحو اختصار ما هو صعب، وتبسيط للأشياء من حولنا، وهذا يتطلَّب عودة طويلة، وكفاحاً مريراً أيضاً.

على «المسيحيَّة» أن تجد طفولتها الضائعة، أن تجد عنفوانها، وقدرتها على قلب الموازين التي تتحكَّم بها، عليها أن تعيش وتفكّر بطريقة مفتوحة!

أعتقد بانَّ الحوار مع «العلمانيَّة» يمكن أن يشجِّع «المسيحيَّة»، كي يجدا معاً بعض السعادة في «تطرُّف العيش» الذي يحلمان به.

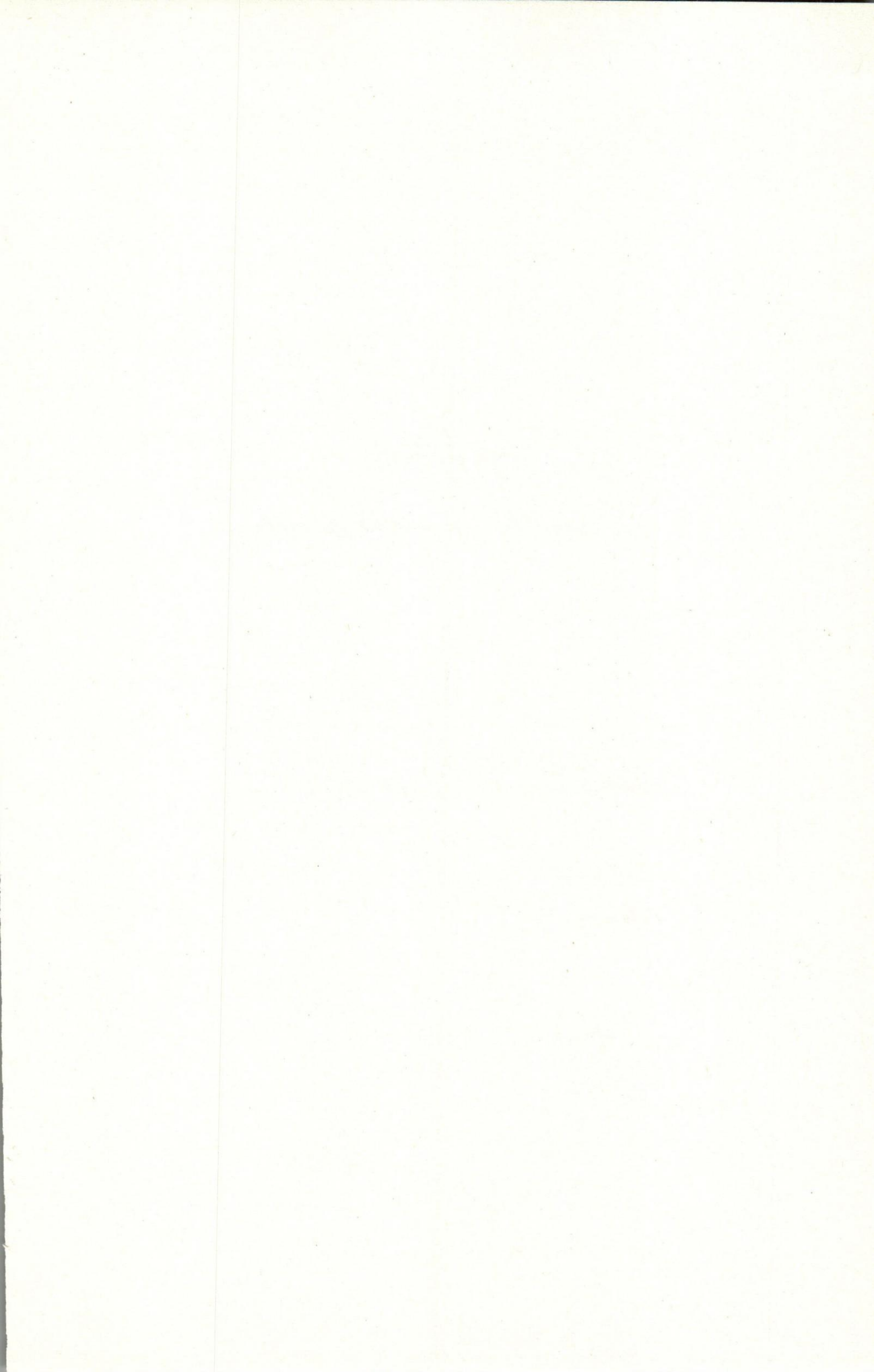
الفصل الرابع

عبـــور البحـــر الأحمـــر

ـ «القرآن نص مفتوح، وكلُّ جيل يحقُّ له أن يفسِّره كما يفهمه»!

الشاعر الباكستاني

محمد إقبال



1 ـ الصبر والهوى:

إذا تذكَّرنا جيِّداً ما قلناه، فإنَّ على القاطرة التي تعبر هذا الكتاب أن تجرَّ معها «المسيحيين والعلمانيين» إلى أرض العمل المُشْترك بينهم، لأنَّهم بعيداً من إضعاف بعضهم بحاجة إلى حوار مفتوح لا يلغي أصالتهم.

ولكنَّ الأمر ليس بهذه السهولة التي نتصوَّرها، فالرهان هو أن نذهب «بالعلمانيَّة» إلى ما بعد تطلُّعاتها، والبحث عن معنى يتعلَّق بنا، خاصَّة في «أوروبا»! إنَّ اللِّقاء بين «المسيحيين والعلمانيين يمكن أن يأخذ شكلاً أفضل حين نقول اللِّقاء بين المسيحيَّة والعلمانيَّة، وهو لقاء علينا أن نضعه في قلب المشكلة، وأن نجعل منه «المحرِّك» لمواعيد ثلاثة صعبة التحقيق، تعلن حضورها في فجر القرن الآتي: لقاء بين «المسيحيين» أنفسهم، ولقاء بين الديانات، وأخيراً لقاء بين المؤمنين واللَّا مؤمنين!

تلك حالة طارئة؛ فالعالم كما نشاهده اليوم يشكِّل مخزناً للبارود والمتفجرات، وعلم الوراثة يتطوَّر بسرعة مذهلة.

إنَّ المال، أعني قوَّة المال تسيطر على العالم بوحشيَّة غير مسبوقة، وتهيمن على البشر، وتقتل أرواحهم بصمت مطبق، على مرأى من المؤسَّسات المُتْعَبة، والديموقراطية التي تستجدي الأنفاس.

إذا أردنا في هذا المجتمع المشتَّت الذي يبعث على الرثاء والشفقة حيث المعالم المعياريَّة واضحة للعيان، ولكنَّها دون رابط أيضاً، أن نتجنَّب العودة إلى ما عشناه من قبل من أنظمة استبداديَّة علينا أن نضع كلَّ مصادرنا في خدمة البشريَّة، وأن نبتكر مشاريع جديدة، وأن نطرح فرضيَّات تساعدنا على النهوض من كبوتنا هذه التي طال أمدها.

ولكي نحقّق هذه التطلُّعات مجتمعين، لا أحد منَّا يستطيع أن يحدِّد «وحده» ما هو صحيح وما هو خاطئ، ولا أحد له الحقُّ «وحده» أن يقرِّر أساس السلوك الأخلاقيِّ.

إنَّنا جميعاً على طريق البحث عن الحقيقة، وجميعنا يعلم أنَّنا في مواجهة مع اختلافات قد تكون «قدريَّة»، ولكنَّ الحوار ليس مستحيلاً أمام الخطر المُشْترك.

نحن بحاجة للهواء الطلق! ألا تشعرون أنَّ معالم جديدة تبحث عن نفسها، وأنَّ تناغماً وانسجاماً يحاول أن يعبِّر عما يجيش في نفسه، وأنَّ الكثير من البشر يأملون بعلاقات إنسانية راقية، وبعيش تسوده المحبَّة والسلام؟

هي اللَّحظة المناسبة الآن لتجاوز الانتقادات اللّاذعة والانغلاق الأيديولوجيِّ المقيت، كي نتمُّ التصالح بين الحريَّة على اختلاف أنواعها، والجراح القابلة للشفاء.

تلك حالة طارئة! ولكن التسرُّع ليس شرطاً للتقدُّم، إذن، كيف نستطيع فهم التزاوج بين الهوى والصبر، على حدِّ تعبير «توماس ميرتون»، والتوفيق بين حياة «شرقيَّة»، وإرادة نتائج مرئيَّة، مباشرة على الطريقة «الغربيَّة[1]»؟

---

(1) Jean Mouttapa Dieu et la revolution du dia- logue p. 206.
جان موتَّابا: الله وثورة الحوار، ص206.

لا تدّعي التأمُّلات القادمة أنَّها أحاطت بالمسألة من جميع جوانبها. ومع ذلك عليها أن تتقدَّم، وتقترح وتخاطر بطروحات ماديَّة، قابلة للعمل.

كي نعبر بحر الحوار الأحمر اليوم بين «المسيحيين والعلمانيين» على «موسى» أن يرفع عصاه، ويمدَّ يده لكلِّ الجهات. أقترح عليه أن يشقَّ الماء على ثلاث جهات: فلسفيَّة، سياسيَّة، روحيَّة!

حين أتكلَّم عن الجهة الفلسفيَّة لا أستخدم الكلمة بمعناها التقنيِّ الوحيد. أريد أن أقول بأنَّه قبل أن نذهب قدماً إلى الأمام في أرض السياسة الغريبة، علينا أن نتحلَّى بالجرأة ونطرح الأسئلة الصعبة حول الشرِّ والحياة والموت.

وأن نتعلَّم كيف نقيم العلاقة بين الوعيِّ والقناعة:

- ألم يكن لدينا إرث مُشْترك يساعدنا على إقامة هذه العلاقة بنجاح في قارَّتنا العجوز هذه؟

إنَّ الجهة السياسيَّة ليست سهلة التحديد، ليس فقط لأنَّ المواقف متصلِّبة، جافَّة، وصعبة التجاوز، ولكن للفروق الكبيرة بين بلد وآخر.

رأينا بهذا الصدد أنَّه يجب الكلام عن علمانيَّة «بصيغة الجمع» طالما أنَّها تأخذ سياقها الخاصَّ في بلاد مختلفة.

دون الدخول في التفاصيل، والاكتفاء ببساطة بتلخيص ما نريده من «السياسية» أن تجيب على بعض المشاكل التي تتعلَّق «بالإسلام»، وافتتاح مدارس ذات ثقافة دينيَّة وعلمانيَّة.

من هنا نكاد أن نرى الطريق المؤدِّي إلى الحياة الروحيَّة التي نشتاقها: بالإيمان وعدمه، هناك الكثير من الرجال والنساء يتساءلون

حول لغز الحياة، ومعنى الوجود، دون أن يحصلوا على إجابات شافية!
إذن، هو المكان الذي يتيح للهوى الذي يواجه هذه التساؤلات النهائيَّة، مع الصبر للدخول في رفقة يأخذ الإيمان مع الدين، أو دونه، معناه الإنسانيَّ الشامل!

2ـ في أروقة الفلسفة:

صرخ بعض المارَّة ذات يوم مشمس بفارس يمتطي جواده المحتدم:

ـ «أين تذهب بحصانك هذا الشبه المجنون؟».

أجاب: «اسألوه! هو أدرى منِّي[1]».

يبدو لي أنَّ حضارتنا الغربيَّة لا تدري إلى أين تذهب هي الأخرى، وكلُّ ما نراه أنَّها تركض بسرعة إلى حيث لا ندري!

حضارة منهكة، متشنِّجة، ترزح تحت وطأة القلق والخوف من الآتي، وهي ترتدي أثوابها الزاهية التي لا تخفي بحثها عن اتِّجاه ما! ولكن أيُّ اتِّجاه؟ أهو «الشرق» الذي نبحث عنه؟ ولكن أيُّ شرق هذا الذي نتكلَّم عنه؟ أين هو هذا الشرق الخرافيُّ الذي لم يكفّ الغرب عن سؤاله دواءً ناجعاً لألمه! أي شرق هذا الذي يقودنا إلى مشرق الشمس، مهد طفولته، وهو ينتظر منَّا، نحن المُتعَبين أن نأخذ بيده لشاطئ النجاة؟

لا أريد أبداً أن أستبعد الشرق عن اجتماعنا البشريِّ في بحثنا عن الخلاص. إنَّ فكره حول «الوحدانيَّة»، وفهمه لمعنى «الذات»، وبحثه عن الهدوء والسكينة لمعرفة «الله»، وحريَّة فكره في سبر آفاق الحياة

(1) Jacques Vigne, «Nous avons vu son étoile en Orient», 1992, p. 20.
«جاك فينيه»: رأينا نجمته في الشرق ـ 1992 ـ ص20.

الغامضة... كلُّ هذا يمثِّل «رئة» ثانية نحتاجها هنا في غربنا الماديِّ ذي الحضارة التي بدأت آلاتها تستدرج أشباح الظلمة من مهاوي لا نعرف قرارها: يحتاج الإنسان لرئتين كي يتنفّس، والشرق هو هذه الرئة الثانيَّة، وهي رئة سليمة معافاة، ولكنَّها تحتاج إلى بعض «الصيانة وقطع الغيار»:

ألا نرى الشرق اليوم يتنفَّس من رئة «الغرب»، وهو يشرب «الببسي كولا»، والبيرة المثلَّجة؟

لنقارن ذهنيَّتنا الغربيَّة بذهنيَّة «آسيا البوذيَّة» لنكتشف الحقيقة المؤسفة، وهي المقارنة بين ما هو أفضل لدينا، وما أفضل لديهم، مقارنة سوف تدلُّنا على ما يفصلنا! أليست هي الأهميَّة التي نضفيها على جميع أفراد المجتمع، نقرأ بعض ما كتب «جان كروسجان»:

ـ «نحن لا نهتمُّ كثيراً بفهم الكون كشعب «الهند والشرق الأقصى». نحن ننظر أبعد قليلاً إلى تجربة الفراغ، وممارسة الّلا مبالاة، ولطالما رأينا صوفيينا يتجنَّبون الهلاك والذوبان في ذات «الله»، كما يفعل صوفيُّو الشرق! إنَّ ذهولهم و«انجذابهم» مجرَّد حركات، وما زال لدينا فلاسفة يتكلَّمون عن «الكائن»، كما يتكلَّمون عن أحد ما[1]».

عليكم أن تفهموني جيِّداً، فأنا لا أستشهد «بجان كروسجان» كي أضع نصف «الساميَّة» في مواجهة النصف الآخر «للبوذيَّة»، ولكن فقط لأنَّني أؤمن تماماً أنَّ على الغربيين أن يعيدوا اكتشاف

(1) Jean Grosjean, Les Versets de la sagesse, 1996, p. 29.

«جان كروسجان»: علاقات الحكمة ـ 1996 ـ ص29.

الغرب، لا أن يقفوا ضدّه، وذلك من أجل حوار سيصبح غداً حواراً كونيّاً.

منذ خمسة عشر عاماً، وقف رجل «إيرلندي» أمام تمثال «بوذا» وهو يحدِّثه بقوله: «حين أراك لا أجد حاجة للتحليل وتنسيق الأفكار. أجدني أكتفي بالغوص إلى أبعد ما تمدُّ لي من أمواه»!

ربما يكون الغرب قد حلّل بسرعة أكثر ممّا ينبغي، ولكنّه نسي المركز، وتجاهل الثقب الذي أصاب دولاب عجلته!

- ولكن ألا يعني التركيز تجاهل التحليل؟ هنا تستطيع القارّة العجوز أن تقدِّم الكثير ممّا لا يتوقّعه أحد!

بلى! إنّ الأصالة «الأوربيّة» ليست فرصة ذهبيّة لأوروبا فحسب، بل للعالم كلّه، فرصة لبناء حياة مشتركة لجميع بني البشر.

انظروا هذه الأرض التي مرّت عليها الأحداث الجسام، لقد حرثوها بالدم والسلاح، ومرّت عليها أمم وحروب وسلام وحضارات: «أثينا» بكلِّ ما تعنيه من فكر ما زال يلهمنا إلى اليوم، وموسكو وغيرها.. ولا ننسى أنّ العالم الجديد بدأ في «أوروبا» التي لم تغلق أبوابها يوماً بوجه التاريخ، لتكتشف الآخر![1] إنّ إرادتها بالخروج إلى المجهول، وجرأتها على المضي إلى هناك أعطاها القدرة بالانفتاح الاستثنائيِّ على العالم.

أخيراً، قد نجد في «أوروبا» الفرصة لانتقاد الذات وإعادة النظر بكلِّ شيء، ذلك لأنّها تتغذّى من جذور مختلفة. لقد أشار «ريكار»

---

(1) كان على هذا «النبيِّ الجديد» أن يعترف بملء فيه أنّ «أوروبا» هذه لم تغلق أبوابها بوجه التاريخ، لتكتشف «الآخر» بل لكي تضع في أذنيه الأقراط.
- المترجم -

إلى نقطة لها كثير من الأهميَّة وبهذا الصدد، وهي أنَّ «أوروبا» نجحت بتفوُّق بتأسيس حقيقي للتعايش بين «المسيحيَّة» والفكر النقديِّ، وهي ظاهرة لا نجدها في كثير من البلدان.

لقد بُنيت «أوروبا» على مفرق الدرب المؤدِّي إلى الحكمة «اليونانيَّة» والنبوَّة اليهوديَّة، واليوتوبيا الإنجيليَّة، إنَّ أوروبا والحالة هذه، بحث عن المعرفة لا ينتهي، وسؤال يتردَّد دونما انقطاع.. وهو لا يصمت أبداً!

ومع هذا فالإنسان الأوربيُّ يشعر بالمرارة وخيبة الأمل!

أما زال يستطيع أن يوفِّق بين الوعيِّ والقناعة، وأن يجد معناه الحقيقيَّ في كشفه للبصيرة وزوال الوهم؟

أما زال قادراً على الخلق، والعطاء؟ بصيغة أخرى، كيف له أن يعيد الأمل للعناصر الثلاثة التي أسَّست لهذه «الأوروبا»: تعدُّديَّة المصادر، الفضوليَّة بمعناها الإيجابيِّ، والقابلة للنقد الذاتي!

وأخيراً، هل تتمكَّن «أوروبا» مجدَّداً من إقامة التعايش بين «المسيحيَّة» والفكر النقديِّ، كما فعلت ذات يوم، وبأيَّة طريقة يمكنها ذلك؟

لا أقول إنَّ باستطاعتها فعل ذلك، بل أزعم أنَّ من واجبها فعل ذلك!

ولكن دون إرادة جادَّة بتهيئة برنامج عمل خلَّاق، أخاطر بالقول، مع الكثيرين من أمثالي، إنَّ الأصالة «الأوربيَّة»، قد فقدت بريقها، ولم تعد قادرة على بناء مشاريع ثقافيَّة، إن لم أقل لم تعد «تجرؤ» على التقدُّم إلى الأمام في عالم مضطرب... حيث الحيتان!

كنت قد تكلّمت سابقاً عن «التطرُّف المزدوج» الذي أصاب العالم اليوم: التعصُّب الطائفيُّ، والتمييز العنصريُّ، والقوَّة الغاشمة لرأس المال بكلِّ ما يترتَّب عليها من نتائج مريعة: الفقر، الحروب، استلاب الإنسان بالذات..!

إنَّ «الفردانيين» الذين ينسون معنى التاريخ يضربون صفحاً بعرض الحائط بالروح البشريَّة التي ترزح تحت وطأة المادَّة، دون أن يعيروا اهتماماً للبعد الاجتماعيِّ، وهو الأساس الذي يستندون عليه. من هنا نشهد اليوم مظاهر الّلا عقلانيَّة، وهي تفرز أشكالاً غريبة من المذاهب الباطنيَّة، والتي لا هدف لها سوى الإبحار في أمواه غامضة، سديميَّة... بعيدة كلَّ البعد عمَّا يدور حولها من تطوُّر للعلوم، وخوف على التوازن البيئيِّ لهذا الكوكب، وعلى مستقبل «الروحانيَّة» التي يتشدَّقون بتمجيدها؟

ما زلت على «ضلالي القديم»!

ما زلت أؤمن بأنَّ المسيحيَّة بحاجة «قسريَّة» للقاء مع «العلمانيَّة» بكلِّ ما تطرحه من مبادئ حول حقوق الإنسان، والمعنى الكبير لفضائل الجمهوريَّة.

ما زلت أرى «المسيحيَّة والعلمانيَّة» يسيران جنباً إلى جنب، وهما يحرثان التربة «الساميَّة» المُشْتَركة، ويستمعان معاً إلى الأنبياء وهم يتكلَّمون مع بعضهم دون تحفُّظ أو أحكام مُسْبَقة حول اعتراض «عديمي الإيمان» ومعنى المسؤوليَّة!

ما زلت أعتقد بأنَّ لدى «المسيحيَّة والعلمانيَّة» كثير من الأشياء على هذه الأرض، عليهم استثمارها، وتقديمها لهذا الإنسان البائس، هدفهما المُشْترك! عليهما أن يجمعا بين «دويستوفسكي وألبير كامي»

والتراجيديا اليونانيَّة ورؤيا يوحنَّا المعمدان.. عليهما أن يتفهَّما هشاشة «الإنجيل» وضعفه، بالتزامن مع «عصر الأنوار»، والإحاطة بمسألة الشرِّ.. مثلاً!

ليس «الَّلا مؤمنون» وحدهم الذين يواجهون غرابة الشرِّ هذا، ولكنَّ «المؤمن» أيضاً، يعاني بدوره من هذه المعضلة، لأنَّ الشرَّ يتجاوز الحريَة، أعني حريَّة الإنسان، فيما وراء المجازر الجماعيَّة في كلِّ مكان، فيما وراء الخزيِّ والعار والفضيحة على جبين التاريخ الذي يطأطئ رأسه بخجل أمام ما يحدث.. إنَّ الشرّ كوني صارخ، وهو يتجاوز البشريَّة في كلِّ المعايير التي نضعها!

- إذن، أنستطيع مثل الشابِّ «إيفان كرامازوف التخلّي عن هويَّتنا البشريَّة، وإعادتها إلى الله؟!»[1].

هناك الكثير من الملحدين يفكرون بإعادة هويتهم إلى «الله»، وبعض من المسيحيين أيضاً!

- أيمكن أن يكون «الله» أسوأ من أسوأ البشر؟!

ولكن «الله» يتألم لآلام البشر وأوجاعهم! إذن لِمَ لا يتدخَّل بكلِّ قدرته الَّلا نهائية، أو عجزه على الأقل؟

لقد حاول «ميشيل دوكاسيتو» أن يتصدَّى للإجابة على مسألة الشرِّ هذه بقوله:

ــ «لا يدهشني البتَّة ما أراه من شرٍّ يدمِّر هذا العالم، بل ما يدهشني فعلاً هو أنَّ البشر ينهضون في وجه البربريَّة والجنون كي

---

(1) بطل رواية دوستوفسكي «الأخوة كرامازوف». المترجم ـ.

يقولوا: «لا» أمام التحدِّي الذي يمثِّله الشرُّ للفيلسوف! هنا تتأرجّح المسألة، ويأخذ السؤال معنى آخر: إنَّ المشكلة ليست في معرفة من أين يأتي هذا الشرُّ، بل في الكيفيَّة التي نتبعها كي نتخلَّص منه».

إذا اختار «المسيحيُّون والعلمانيُّون» أن يجدوا المعنى التراجيديِّ للتاريخ، فهم سوف لن يتجنَّبوا الإجابة على هذا السؤال:

- كيف نعيش معاً مع مآسي الشرِّ وفضائحه، وكيف نتكاتف كي نواجهه بصورة أفضل؟!

ما زلنا نتذكَّر الفارس على صهوة جواده المحتدم، وسؤال المارَّة له:

- «إلى أين تذهب؟»

إنَّ أولى الخدمات التي تقدمها «أوروبا» للقارَّات الأخرى هي أن تقول لهنَّ أين يذهبن، وبالتالي تأسيس حوار جاد وعميق مع «حضارة العمل»!

«أمريكا» في بلدنا! وأكاد أن أقول بأنَّها تكمن فينا، وذلك من خلال لغتها، وصمتها، وتنظيم إداراتها، وطوائفها، وأعلامها.. ولكن أيضاً من خلال لا عقلانيتَّها، وأخلاقيَّاتها وإنتاجها..

نحن ننتج أيضاً، ولكن ماذا ينتج؟

ننتج أشياءً كثيرة وخاصَّة ممَّا نتخيَّله، وما يمثِّل لنا!

- ولكن من يطلب هذا الإنتاج منَّا؟

هم رجال الأعمال أنفسهم، ورجال المال، والمهرِّبون!

- ولكن من يقودهم، من يشرف عليهم؟

أعتقد مع «بيللي» أنّه القلق الذي يقودهم، ويشرف عليهم! بمعنى آخر، هو «العنف الذي يأخذ شكل القلق وصورته»، وحين يغادر هذا العنف مقاطعات كاملة على أرض المعركة التي شاهدها التاريخ مذهولاً دون أن يستطيع فعل شيء، لا مجال إذن للحديث عن الوعيِّ والعقلانيَّة!

- هل تكمل هذه المسيرة - المأساة؟ أي هل سنظلُّ لفترة طويلة، نقلِّد أمريكا؟

لا أريد أن يُساء فهمي، إذ إنَّني أؤمن تماماً بكثير من القيم الأمريكيَّة الثمينة. إنَّ «أمريكا» أكثر من «أمريكا»، هي طريقة تفكير أولاً! وطريقة التفكير هذه يجب ألاَّ نتهرَّب منها، بل أن نواجهها، في قلب فعاليَّتها بالذات، وفي المفهوم التقنيِّ لعمل الإنسان.

- ألم يحن الوقت بعد للالتزام بعقد زواجنا مع الأرض، والكفِّ بالنظر إليها ككنز ينتظر استخراجه، أو كاحتياط طاقة صناعيَّة لا ينتهي؟ وهذا ليس صحيحاً أبداً.

لذا أستطيع أن أسأل للمرَّة الألف فيما إذا كانت «أوروبا» أي أنا وأنت وهم.. ستجد الشجاعة الكافية على تقليص إنتاجها وتوجيهه، ومن ثمَّ أن تخلق نموذجاً جديداً للتطوُّر؟

هل هي جاهزة اليوم لتجديد عقدها مع العلم بالروح نفسها التي كانت تتمتَّع بها يومذاك؟

في بضعة قرون أكَّد العلم بشكل واسع على انتصاره على الدوغمائيَّة، وأعطى درساً لا مثيل له بتواضع العلماء حول الحقائق المؤقَّتة، والتي تتلوها حقائق مؤقتَّة أخرى وهم يتعرَّضون لشتَّى أنواع الإهانات والاضطهاد.

أمام نشوة الممكن، وأمام التحدي الاقتصاديِّ المذهل لم يتخلَّص القلق من قيوده. إنَّ تجربة القرن العشرين الرهيبة تدعونا للتساؤل مجدَّداً عن مفهوم الحضارة نفسه، تلك الحضارة التي نعدو وراءها، مثل حصاننا المجنون، دون أن ندري إلى أين ستقودنا!

ليست «المسيحيَّة» وحدها التي تسبح في أمواه عميقة، وهي عمياء لا ترى أمامها من شيء. هناك «الأنوار» هي الأخرى التي تأخذ طريقها نحو الظلمة.

لا «المسيحيَّة» وحدها ولا الأنوار استطاعتا أن تعيق المذابح عن التكرار، ولم يستطع التقدُّم التقنيُّ الذي استفدنا منه الكثير أن يردم هوَّة البؤس المرعب التي تتَّسع وتتَّسع حتَّى ليخطر لي أنَّها ستبتلع البشريَّة، كما يبتلع الوحش طريدته!

أعجب بالتقدُّم العلميِّ، ولطالما أدليت بشهادتي هذه أمام الطلاب في جامعتي، وأعجب أكثر بالباحثين الذين يعملون بلا انقطاع، يلهمهم فكر خلاَّق، وقدرة غريبة على الخيال. من هنا نشهد أهميَّة توجُّه البحوث العلميَّة، والفكر العلميِّ من أجل الحريَّة التي ستكون في خدمة الإنسان كي يحقِّق شروط الحياة السعيدة، بالتضامن الكبير مع أبناء جنسه.

إنَّ التضامن بهذا المعنى هو الكلمة الأولى النابضة في قلب الحضارة، أعني حضارة العمل، حين تتوصَّل العقلانيَّة إلى تفتيت وجه الإنسان نفسه، وتترك آثار مرورها على درجات السلّم: إذن، هل ستعقد «أوروبا» معاهدة مع التضامن الذي سوف يسعد بتحقيقه أطفالنا، وأجيالنا القادمة.

كي نتمكّن من بعث الحياة في هذه الحضارة ومن ثمّ توجيهها، ونزيل العراقيل من أمامنا، ونتحلّى بالشجاعة كي نسمّي الأشياء بأسمائها، علينا أن نكون جاهزين للردّ على هذه المتطلّبات الطارئة، وأن لا نخشى على أيدينا التلوُّث بزيت الغيار والشحوم!

هذه ليست مسألة إرادة طيِّبة، ولا شهامة أو عزيمة.. هي قضيَّة تتطلَّب نَفَساً ومشروعاً لها: مشروع أوربي ثقافي كبير، قال عنه ذات مرَّة «جان مونيه»، وهو أحد آباء «أوروبا» الكبار:

ـــ «أنَّه مشروع لا كالمشاريع، وهو ليس اتِّحاد سياسي أو اقتصادي بسيط لا يستطيع ضمان مستقبل متين وثابت للديمقراطيَّات الأوربيَّة»!

إنَّ الإرث الأوربيَّ كبير وغير متناه الأطراف، وهو متنوِّع في جميع جوانب الحضارة، وهنا تكمن قوَّته وضعفه بآن واحد:

- هل نحن ذاهبون بهذا الإرث إلى مستقبل مُشْتَرك أم إلى انفجار ثقافي حيث تقبع كلُّ ثقافة وأثنيَّة في مكانها خشية البرد والعواصف؟

نعلم إنَّ الشعب، بل الشعوب «الأوربيَّة» عبرت التاريخ في أحلك لياليه المظلمة، وواجهت عصوراً من التحدِّيات والمصاعب التي لا تحصى! المسألة اليوم هي في معرفة كيف تعيش بتلاؤم وانسجام تقاليدها الآتية من «عصر الأنوار» وإشعاعات «الإسلام» و«البوذيَّة» و«اليهوديَّة المسيحيَّة». ثمَّ ما نراه على طاولة البحث من جداول عمل تركتها «العلمانيَّة» للمسيحيَّة للتداول والمشورة، وهي تعرف سلفاً أنَّ «المسيحيَّة» بحاجة إليها أيضاً، وهما لا يستطيعان الخروج من فوهة الزجاجة إن لم يعملا معاً، وبإرادة طيِّبة دون أحكام مُسْبقَة، أو نصب أشراك وفخاخ هنا.. وهناك!

تجد «المسيحيَّة» نفسها في تطوُّر مذهل: منذ قليل كانت تشكِّل أقليَّة، وها هي ذي اليوم تأخذ مكانها في «ما بعد الأيديولوجيَّة»، أو على حدِّ تعبير «أوليفييه كليمو»، ما بعد علم الاجتماع، لأنَّ هذه «المسيحيَّة» لم تهتمُّ سوى بالماضي، بما يحمله من «روحانيَّة» بدأ ريقها يتلاشى شيئاً فشيئاً.

أرى أصالة حقيقيَّة في «أوروبا الثقافيَّة»، وأرى أيضاً أنَّه من أجل التقريب بين التعدُّديَّة الدينيَّة والتعدُّديَّة الإنسانيَّة علينا اكتشاف أو تطوير المختبرات التي تتمُّ فيها «صناعة الحوار» بين العلمانيين ونظرائهم المسيحيين، وذلك في جوٍّ علماني عام، تأخذ فيها أصالة ازدهار القناعات تنوُّعاً لم نره من قبل في جمود علائقنا المتناقضة.

3ـ كواليس السياسة:

لطالما قلت، وكرَّرت ما قلت، وأريد أن أكرِّر الآن ما قلت أيضاً:

إنَّ الحوار ليس جلسة تصالح، ولا تسويَّة أو مراضاة، ولكنَّه الاعتراف بعدم الكفاية والتأكيد على الحاجة والنقصان فيما عندنا. إنَّ لقاءً لا يذهب مباشرة إلى أصالة الآخر هو لقاء كاذب بلا مستقبل.

في الصفحات السابقة، حين تكلَّمنا عن إعادة تشكيل «الغرب» وإيجاد معنى جديد للتراجيديا التي يعيشها، والإشارة إلى المكان الذي نحن ذاهبون إليه، حاولت إثارة فكر ما، باعتقادي أنَّ العبور الحقيقيَّ المُشْتَرك يمرُّ من خلال التقارب حول المسائل ذات البعد العميق، عبر تأمُّلات جادَّة.

ولكن على هذه التأملات ألاَّ تبقى حبيسة في غرف الأبنية الفارهة، لأنَّه كي نطوِّر «الذهنيَّة» التي تتحكَّم بنا علينا الخروج من الدغل الذي وجدنا أنفسنا عالقين به، ومن ثمَّ علينا أن نتقدَّم من عدَّة طرق، وأن نطرح، ولو على مستوى متواضع، مبادرات عمليَّة، قابلة للتطبيق!

حين نتكلَّم عن طرق مشتركة، نثير عادة الكلام حول الميدان الأوسع لحقوق الإنسان، والانفتاح على العالم الثالث، واستقبال ما هو مستبعد ومنبوذ، وطلائع العدالة، وتنكُّب هموم النزعة الإنسانيَّة،

والصراع الثقافيّ، باختصار، علينا أن نثير الكلام حول كلّ ما ستقع عليه أبصارنا في المستقبل.

لا أريد أبداً أن أقصر هذا الميدان الأهمّ، حيث «العلمانيُّون والمسيحيُّون» داخل حكوماتهم واجتماعاتهم الكثيرة يعملون من قبل على البناء المشترك لمدينتهم التي يحلمون جميعاً بها كمدينة «فاضلة» طال انتظارها...

من الرائع أن نقاتل معاً من أجل أن يصبح «الفرد» البشريُّ «إنساناً» كامل الإنسانيَّة. ولكنَّ المشكلة أنَّ ممارسة العمل من أجل النزعة الإنسانيَّة هذه تستدعي فهماً عميقاً يجد نفسه اليوم في مجتمع متفسّخ بلا هويَّة! إذن، أليس من العدل أن يبحث كلُّ واحد منَّا عن ملجأ في طائفة أو حزب أو جمعيَّة يجد نفسه فيها، وقد حقَّق بعضاً من وجوده الإنسانيِّ؟

هذا يستلزم أيضاً معرفة للآخر، وبالتالي الالتزام بعمل يستند على «التعدُّديَّة»، والذاكرة الجماعيَّة أيضاً.

مضى زمن كانت فيه بعض الأوساط «المسيحيَّة» لا تريد حتَّى سماع كلمة «تعدُّديَّة»، لأنَّها كانت ترى فيها جميع أنواع الخيانة والهجران المنهج للهويَّة «المسيحيَّة».

الآن، تغيَّر الزمن، والكتابات أيضاً..

هكذا نجد عام [1997]، وخلال الاجتماع السنويِّ لأبرشيَّة مدينة «أنفير» أنَّ جدول الأعمال كان مكرَّساً لتعريف «الهويَّة المسيحيَّة» في مجتمع «التعدُّديَّة» التي طالما أنكروها!

قال يومها القسُّ «فان دن بيرغ»:

- «قليلاً ما نفكّر، أو نفكّر بطريقة غريبة حول ما تحمله التعدُّديّة لنا»!

وفي اليوم نفسه أشار القسُّ المسؤول عن أبرشية «أنفير» إلى «ضرورة اهتمام» الكنيسة بحقوق المذاهب والطوائف على اختلاف أنواعها، وأن تضع «الكنيسة» نفسها في خدمة المجتمعات الحديثة القائمة على التعدُّديّة.

من الطبيعيّ أنَّ التصريحات هذه لا تكفي، بل المطلوب هو ممارسة الأقوال، خاصّة فيما يتعلّق بالحركات الرمزيّة التي تعزِّز الثقة بين «الكنيسة» والنزعة الإنسانيّة التعدُّديّة.

منذ سنين عدَّة في «فرنسا»، وبعدها بسنين في «بلجيكا» قَبِلَ القساوسة الحوار مع هذه الحركات، وكان حدثاً مشهوداً استطاعت به «الذهنيَّة» المنفتحة عند كلا الجانبين تحقيق خطوة إلى الأمام على طريق ألف ميل التعدُّديّة، هدف البشريَّة المنشود!

إنَّ تعميق النزعة الإنسانيَّة يحتاج إلى حقيقة في المسعى، كما يتطلَّب عملاً هامّاً في الذاكرة. بهذا الخصوص أرى أنَّ ما هو حقيقي في الحوار بين الأديان يساوي الحوار بين «المسيحيين والعلمانيين»: لا يكفي البحث عن تقاليد تهمُّ الطرفين، ولكن الهامَّ هو مدُّ الجسور بين التقاليد والوعيِّ المعاصر، وبالتالي تحليل هذه التقاليد على ضوء مبادئ «العلمانيَّة»، وهذا لا يطرح أيَّة مشكلة إذا أردنا أن نسمع خلف كلمة «تقاليد» المعنى الحيَّ الذي اقترحه علينا «جيروم فينيون» بقوله:

- «هي الإرث الخلّاق المبدع عبر الإلهام المُشْترك الذي يهدف تحديداً إلى تجاوز الأزمات[1]».

---

(1) Jérome Vignon, «La démocratie- chrétienne et l'Europe» 1996, p. 7 – 16.

«جيروم فينيون»: الديموقراطيَّة المسيحيَّة و«أوروبا». ص7 – 16.

ولكنَّ هذا الإرث، بكلِّ غناه وتاريخه لم يستطع إلى الآن إيقاف صعود التعصُّب الطائفيِّ الذي نراه في نموٍّ مطَّرد يدعو إلى القلق والخوف. إنَّ التحاليل الهادفة لشرح النجاح الذي يحقِّقه المبشِّرون بالخراب تؤكِّد لنا أنَّ عملهم مُبْهَم وكثيراً ما يستخدمون العنف لفرض آرائهم.

كان «برنار لفي» قد اثار موضوع «النقاء الخطر» للإشارة إلى «الشرِّ الذي يتربَّص بالمجتمعات»، وهذا الشرُّ له اسم نعرفه جميعاً، وهو رفض الاختلاف.

هناك تحاليل أخرى طرحت أسئلة ما إذا كانت «الَّلا مبالاة» مصدراً لجميع هذه الشرور التي تنخر في عظامنا؟ في هذه الحالة علينا أن نتصرَّف، وأن نحذر من الوجه الذي يرتديه هذا الشرُّ بدفاعه عن النقاء والتقاليد وإرث البلاد..

أمام تعاظم الظواهر الصعبة التحديد، سوف لن نستطيع الخروج عن طريق الشعارات السياسيَّة، أو ترديد الجمل الجاهزة، بل علينا أن نتعاون، وأن نثبت لأنفسنا أولاً، وللحياة فيما بعد أنَّنا عازمون على الانتصار ودحر جيوش الظلام.

لا أدَّعي من حيث المبدأ أنَّ التعاون مع «المسيحيين» هو الأكثر فاعلية، ولكنَّني أؤكِّد على أنَّ «خبرتهم» في هذه المسألة تغذِّي بقوة النقد الذاتيَّ الذي يستحقُّ أن نأخذه بعين الاعتبار إذا أردنا فعلاً الانتصار!

لديَّ قناعة راسخة ضدَّ الأفكار المُسْبَقة، وهي الأفكار التي أعتقد أنَّ على «العلمانيين» أيضاً أن يحذروا من الوقوع في حبائلها هم أيضاً:

- كي نزيح الأضرار التي تعاني الحريَّة منها، ألا يترتَّب علينا أكثر من أيِّ يوم مضى، أن نضمَّ الخبرتين معاً، خبرة حقوق الإنسان التي ابتكرها «العلمانيُّون» دون أن نهمل النظرة «الإنجيليَّة» القادرة على إضاءة عمل الديانات، وفهم محتواها الأشدِّ غموضاً وغرابة.

عندما نتكلّم عن أحاديَّة الفكر، أو عن التشدُّد فيه، يخطر في بالنا فوراً العالم الإسلاميُّ، وتلك طريقة تعلَّمناها كي نضفي على الإسلام «شيطنة» لا علاقة له بها.

لا نستطيع أن ننكر العنف الذي تلتزم به بعض الجماعات الإسلاميَّة، ولا تجاهل الأزمة الحقيقيَّة للفكر الإسلاميِّ، والتي على «دعاة الإسلام» أن يتخلَّصوا من دنس النظرات النقديَّة باسم الوفاء لينابيعه وأصوله، وهي نظرات لا تسهِّل الحوار والتفاهم مع العالم الآخر الذي لم يفهم الإسلام، بعيداً عن «دعاته»!

حين نرى هؤلاء الذين كرَّسوا أنفسهم دون دعوة من أحد لحماية الدين وعرش «الله» نتذكَّر أنَّنا نحن أيضاً مررنا بهذه الشعاب الوعرة ذات مرَّة، يوم كانت الكنائس «المسيحيَّة، والكاثوليكيَّة» خاصَّة تغرف من مائها الآسن وتسقي البشر العطشى لمحبَّة «الله»، ويوم كانت «الكنائس» ترسل بمبشِّريها كي يلقِّنوا شعوب «آسيا وإفريقيا» الجمل الدوغمائيَّة ويبثُّوا روح الكراهيَّة، كما يفعل «دعاة الإسلام» اليوم وهم يستخدمون الأدوات نفسها من تحريض على العنف وتدنيس اسم «الله» بما يدعو للخجل والشفقة!

ألاَّ ننسى سريعاً ما كنَّا عليه منذ بعض الوقت وما أصبحنا عليه اليوم، وهذا بفضل «العلمانيين»، الذين استطاعوا أن يدفعوا بعجلة التطوُّر الفكريِّ إلى الأمام بالسرعة التي شاهدناها.

ثمَّ إنَّه يجب ألاَّ ننسى سريعاً أيضاً أنَّ «الإسلام»، كان ذات يوم متعدِّد الظواهر الفكريَّة، وكان أكثر تحرُّراً ممَّا نعتقد، أو بالأحرى ممَّا لا نريد الاعتراف به!

صحيح أنَّنا لا نستطيع تجاهل ما يحدث في «إيران»، والحرب الأهليَّة في الجزائر و«العلمانيَّة» الكسيحة في «مصر وتركيا» و«طالبان في أفغانستان»، والحجاب الذي يغطِّي رؤوس الصبايا، المنفتحات على الحداثة.. لا نستطيع أن نتكلَّم عن «إسلام» عرفناه منذ قرون، وهو ينشر المعرفة على أسطح منازلنا في «أوروبا» التي كانت تغطُّ في نومها العميق!

ـ كيف لنا أن ننسى أنَّ كلمة «إسلام» تعني أول ما تعنيه «الاستسلام الكامل لله»؟

ـ كيف لنا أن نتغاضى عن دفق المشاعر الإنسانيَّة حين تسمع تلاوة من «القرآن»، حتَّى ونحن لا نفهمه؟

ـ كيف نتجاهل أنَّه منذ البدء، وعبر قرون عدَّة امتدَّت إلى نهاية القرن الحادي عشر وجد «الإسلام» نفسه في علاقة «مريحة» مع الوعيِّ النقديِّ، والتحليل القائم على الفكر؟

ـ أليس بفضل «الإسلام» استطاع الغرب التعرُّف على الفكر اليونانيِّ؟

لنتذكَّر الطبيب الكبير، والفيلسوف «ابن سينا» الذي لم يترك علماً في زمنه إلاَّ ونهل منه ما استطاع! ولنتذكَّر أيضاً بعد قرن من الزمن ظهور أولى شروح «أرسطو» في «الأندلس» التي عرفت كيف تضمُّ بين جوانحها الديانات الثلاث [اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلاميَّة] دون أن تجعل من «الله» ملكية خاصَّة لإحداهن!

أخيراً علينا ألاّ نغضّ الطرف في عصورنا الحاضرة من التيّارات الصوفيّة، ذات النزعة الإنسانيّة العالية الرقيّ في قلب «الإسلام»، وهي تنبض بالمحبّة، والخير، والسلام، وتبشّر بعالم يتعايش فيه جميع البشر على اختلاف عقائدهم وألوانهم!

إنّ «الإسلام» يتطوّر أكثر ممّا نتخيّل، كما تؤكّد «إكزافيير رماكل» الأخصائية في «الإسلاميّات»، والتي تحاول أن تمدّ الجسور بين ثقافة «المهاجرين» والمجتمعات الغربيّة. والتي ترى أنّه «فيما وراء اندفاعة الشباب والحداثة هناك ولادة مُنْتَظَرة «لإسلام جديد»، على عكس ما يريد البعض أن يقول لنا، ذلك لأنّ «الإسلام»» طالما أثبت تأقلمه مع الوضع الجديد الذي يرى نفسه فيه، واليوم نراه يتحوّل بشكل سريع في تأقلمه هذا.

لنأخذ مثلاً «الحجاب» الذي ترتديه الفتاة «المسلمة» والتي تبحث فيه عن هويّتها، وفي الوقت نفسه تحاول أن تعرض استراتيجيّتها التي تتلخّص بالخروج من المنزل والدراسة، والانفتاح على العالم الخارجي[1].

ولكن مع هذا لا يسعنا إلاّ أن نؤكّد على ضرورة إعادة النصوص الأساسيّة، «فالإسلام» بحاجة إلى «الآخر» الذي يجلس أمامه، وهو يسمعه، ويصغي إليه، لذا عليه أن يتماشى مع النقد، ويضع خطاً فاصلاً بين الكتاب [القرآن] وتفسيره!

(1) Xaviére Remacle, Comprendre la culture musulmane, 1998, p. 8.
«إكزافيير رماكل»: فهم الثقافة الإسلامية - 1998 - ص8.

ـ «إنَّ «الإسلام» اليوم بحاجة إلى كسر العزلة»، يضيف المؤرِّخ المسلم «محمد أركون[1]»! ونحن أيضاً نريد أن نسأل بدورنا لِمَ لا نأمل أنَّه في القرن الحادي والعشرين سيكون هناك تيَّارات وأجيال جديدة، سوف تنجح بتحقيق ما حلم به «الأوائل» الذي تجرأوا في القرن العاشر على عقد القران الشرعيِّ بين الحياة الروحيَّة للأمَّة مع حريَّة الفكر!

قبل أن نؤكِّد على الأشياء المستحيلة، ربما يكون من الأفضل لنا أن نسمع ما قاله الشاعر والفيلسوف الباكستانيُّ الشهير «محمد إقبال»، وهو أحد كبار مثقفي العالم الإسلامي أيضاً:

ـ «القرآن نص مفتوح، وكلُّ جيل يحقُّ له أن يفسِّره كما يفهمه»!

هكذا نستطيع أن نتساءل حول إمكانيَّة تدريس «القرآن» في المدارس الجمهوريَّة، وأن نعرِّف التلاميذ بشخصيَّة «محمَّد» الفذَّة، ومعنى كلمة «سورة» الواردة في القرآن؟

أجد من الغريب فعلاً أن نتكلَّم، في دراستنا العامَّة، عن الآلهة «المصريَّة»، أو اليونانيَّة، وأنَّ أجيال مستقبلنا تعرف «إيزيس وأوزوريس»، وقصص الحبِّ عند «زيوس[2]»، ولكنَّهم يجهلون تماماً ما الذي تعنيه «إرم ذات العماد»، والمزامير، وغيرها من مكوِّنات الحضارة الشرقيَّة.

يقاسمني دهشتي «ريكير» حول معرفة التلاميذ في المدارس الخاصَّة والعامَّة «للعلمانيَّة»، وما تعنيه كمفهوم يتداوله الجميع! إنَّ

---

(1) Mohamed Arkoun Ouvertures sur l'islame, Paris, 1992.

ـ «محمد أركون»: الانفتاح على الإسلام ـ باريس 1992.

(2) إيزيس وأوزوريس: آلهة مصريَّة قديمة.

زيوس: كبير الآلهة عند اليونان.

التحدّي كبير إذن، إذا ما نظرنا إلى ما يدور حولنا من تناقضات في قلب المجتمع المدنيّ الذي نعيش فيه.

يبدو لي أنّه من الملائم إيجاد طريقة لتدريس «الأخلاق» و«التمدُّن» و«الدين»، وفتح مدارس جديدة للثقافتين، «الدينيّة والعلمانيّة» بنفس المستوى التعليميّ. هنا لا بدّ من الإشارة إلى أن الثقافة التي نتكلّم عنها لا تعني تكديس وتجميع المعلومات السريعة، والبعيدة عن الدقّة والصحّة، بل نعني بها العودة إلى التربة الصالحة، القابلة للزراعة المثمرة، والتي ستقدّم بدورها طريقة سليمة للعيش المُشْتَرك!

تدريس الدين والعلمانيّة في المدارس يعني بعث الأمل بالمستقبل، والحقائق، والكفاح ضدّ الأيديولوجيّة الانطوائيّة، وتقريب وجهات النظر! إذن نستطيع أن نساعد التلاميذ على فهم ما يدور حولهم، وأن نبيّن لهم مخاطر العنصريّة وكلّ ما يسيء لإنسانيّة الإنسان ببضع دروس إضافيّة، هي في واقع الأمر التي ستشكّل القاعدة الفكريّة والروحيّة للأجيال القادمة.

أسمع صراخاً حادّاً آتياً من ردهات المعارضة:

- «من سيعطي هذه الدروس؟ ومن سيموّلها؟ وما الشكل الذي ستأخذه؟»..

سيقولون أيضاً: لدينا الكثير من هذه المعرفة التي تتعلّق بالدين والعلمانيّة فما حاجتنا إذن لإدخال «حصان طروادة» إلى جدول أعمالنا المليء سلفاً بالأطروحات؟

ستكون إجابتي واضحة، دون مواربة، وهي أنّ تكوين هويّة مفتوحة يتطلّب اختلاف عدّة طرق. إنّ مدخلاً إلى الثقافة «الدينيّة

والعلمانيّة» لا يمنع التعمّق في قناعة أو التزام خاص، بل إنّ بناءه لا يستلزم هدم ما هو قائم من قبل، وسيكون صلة وصل بين مدخل أكثر شمولية حول الدين و«العلمانيَّة» والقناعة الخاصَّة بالفرد، وهي قناعة لا يمكن أن تتأذّى من صلة الوصل هذه!

أمَّا الاعتراض النسبيّ حول من سيعطي هذه الدروس مشروعا، وهو جدير بالاهتمام حقّاً.

ولكنَّ المعترضين ينسون كم لدينا من الأخصَّائيين بهذا الشأن، كم لدينا من علماء الاجتماع. ومؤرخي الديانات، والفلاسفة، واللّاهوتيين، وحملة الشهادات في العلوم الدينية على اختلاف أنواعها...

- هل سنقوم بإنتاج ملحدين في مدارسنا الدينيّة والعامَّة، أو سنقبل الاختلاف والتمايز في المدارس الإسلاميَّة، وهل سنسمع يوماً شدو العصافير التي آمنت بالتعدُّديَّة وهي تغنِّي للإسلام والمسيحيَّة واليهوديَّة «بروح المساواة والعدل.. هل سنرى القسَّ والإمام والحاخام والمستشار العلمانيُّ يجلسون معاً، وهم يرتشفون القهوة ويتبادلون الآراء حول «الله» والإنسان والمجتمع، بهدوء وسكينة تبعث الأمل؟!

لا شيء يدعو للدهشة والعجب، طالما أنَّ الكائن البشريَّ في تطوُّر مستمر، وهو يسير نحو غاية لا يمكن أن تُحدَّ بزمان أو مكان!

لدينا الفرصة الاستثنائيَّة الآن لابتكار صيغة جديدة، أصيلة تقع بين شبكات وانتماءات فلسفية: يوجد في الجامعات، وخارجها أقسام لدراسة الّلاهوت والفلسفة، وهناك معاهد للعلوم الدينيَّة، بالإضافة إلى تاريخ الأديان والنزعة الإنسانيَّة! يمكن لنا أن نتصوَّر في كلِّ بلد يهتمُّ بهذه المسألة إضافة مواد أخرى مُشْتَركة حول مادتيْ «الدين والعلمانيَّة».

أعرف سلفاً مدى الصعوبة التي ستواجهنا بهذه الخطوة، وأفطن لجميع الأشراك والفخاخ التي سوف تعترض مسيرتنا هذه، ولا أتغاضى أو أغضُّ الطرف عن النظم القانونيَّة الدستوريَّة، الاقتصاديَّة والتشريعيَّة.

ولكنَّني أتوجَّه إلى الإرادة السياسيَّة بسؤال حول ما تتفقه على تعلُّم احترام الاختلاف والتمايز؟

نتكلَّم طيلة الوقت عن «الثمن»، هل تساءلنا يوماً حول الفائدة التي نجنيها من احترامنا للاختلاف والتمايز؟

إنَّني هناك لا أقدِّم مشروعاً مرتجلاً، بل مشروعاً أُعِّدَ بعناية فائقة، لأنَّه يستدعي الكثير من الجدال والاجتماع كي تتمَّ الموافقة عليه.

أفترض أيضاً نضوجاً في الذهنيَّة التي ستناقش هذا المشروع، مع تجربة طويلة تضاف إلى هذه الذهنيَّة!

لدينا المبادرات المحليَّة، ولدينا مدارسنا العامَّة، والخاصَّة، وكلُّ ما يلزم للبدء والشروع في العمل، لأنَّنا كما أعتقد نمرُّ بمرحلة خطرة في تاريخنا المعاصر، لا نستطيع فيها التخلِّي عن واجبنا، وقدرنا كبشر بنوا الحضارة التي نراها شاهقة تناطح السحاب.

ألاَّ ننسى أن افتتاح مدارس دينيَّة علمانيَّة يشكِّل استثماراً على المدى البعيد، وبانتظاره ستشغل المنافسة السياسيَّة والنقابيَّة والتعليميَّة والصحيَّة والجامعية الميدان كلَّه!

سنرى كلَّ هيئة تدافع عن حصَّتها في السوق، وعن زبائنها ومتاريسها التي سوف تنصبها في كلِّ الجهات.

في «بلجيكا» هناك طاولة للولادة، تتوسط قاعة للمأتم، سواءٌ أكان الموتى «مسيحيين أم علمانيين»!

يلعب التاريخ لعبته في أوضاع مماثلة كهذه، لذا نرى في ميدان التعليم مثلاً أنَّ جميع البلدان «المسيحيَّة» قديماً لم تكن تعرف أهميَّة محطَّات تلفزة تبثُّ أفكار العقيدة التي نجدها في إيرلندا وبلجيكا وهولندا.

أمام المعضلات التي أخذت أشكالاً مختلفة من منطقة لأخرى أجد نفسي بعيداً عن إطراء الوضع الراهن. ولكنَّني أدعو إلى ظهور أشكال جديدة للمؤسَّسات، والذهاب إلى ما هو أبعد من التعايش في الفصل بين الدين والدولة.

علينا أن نحدِّد معاني الكلمات التي نستخدمها بدقَّة، إذا أردنا اعتبار التعدُّدية قيمة تشكِّل طريقة للعيش!

يعجبني تقاربها كحالة فكريَّة، تساعد على إدراك التطوُّرات التي تتمُّ داخل المؤسَّسات المفتوحة أبوابها للجميع، أعني المؤسَّسات الدينيَّة و«العلمانيَّة» التي تعرف «التعدُّديَّة» الخارجيَّة أيضاً من خلال «مجنَّديها» ودعاتها، والداخليَّة أيضاً في المقياس الذي يحترم فيه المدرِّسون والموظَّفون والمدراء تنوَّع واختلاف اختياراتهم! ها نحن إذن نجد أنفسنا شيئاً فشيئاً أمام حالة مُبْتَكَرة من التلاؤم بين أشكال «التعدُّديَّة» هذه!

هي حالة معقَّدة، مبهمة، يمكن فهمها بعدَّة قراءات:

هل الأمر يتعلَّق بإضعاف الدولة، أم أنَّ المؤسَّسات قادرة على إنقاذها من اختلاف القناعات؟

- ألم يحن الوقت بعد لطرح مفهوم «مسألة وجود» كان اللّاهوتيُّ «هانز كينغ» قد أثارها في معرض حديثه عن الحوار بين الأديان؟

مسألة الوجود هذه تختلف عن التعايش السلميِّ الذي طالما تحدَّثنا عنه! إنَّها منهج حيوي يدرك أهميَّة ما يحمله «الآخر» عن تجربة أيضاً.

مع مسألة الوجود نبتعد كثيراً عن الماضي، ولا نعود نختفي وراء ستائر مخادعة، أو نقبع حالمين في أبراجنا العاجيَّة... الأيديولوجيَّة، ذلك لأنَّها تتطلَّب منَّا الوضوح والانفتاح: علينا الذهاب إلى أبعد في تبادل التجارب التعليميَّة، وتقاسم الخدمات، وخلق برامج جديدة مُشْتركة، ودعوة «الدولة» لتقديم حوافز ودوافع محرِّضة بهذا الخصوص، ولكن دون أن ننتظر من الحوار أن يتقدَّم عن طريق مؤسَّساتها. أعتقد أنَّنا نتعلَّم ونحن نسير، وأنَّ الخيال والعمل والمثابرة فيه سيقدم الحلول المناسبة في وقتها، وسنرى كيف أنَّ المواطنين أنفسهم يأملون بتجاوز الحدود المعتادة، وينظرون بأعين مفتوحة إلى المسائل الحيويَّة التي تقرِّر مصيرهم.

- كيف نقتسم السلطة والمعرفة، وكيف ندير المجتمع؟

هو ذا سؤال طرحه الغائب الأوربيُّ «بييرموسكوفيسي» الذي يرى «أنَّنا نتَّجه نحو حركات قد تهزُّ المجتمعات الأوربيَّة» لأنَّنا لم نعد نكتفي بحزب أو عقد توفيقي للمسائل المتعدِّدة التي تمسُّ مباشرة الحياة الاجتماعيَّة.

نستطيع أن نسهب في كلامنا حول القائمة السياسيَّة، ونتابع التساؤلات حول إعادة تكوين المجتمعات الذي يطالب به الجميع. ولكن المشكلات الحقيقيَّة لا تفرض وجودها هناك، بعيداً عنَّا، بل نراها تشتعل في حقول سياسات بلادنا، داخل إنساننا، وبين أناسنا الذين قرَّروا بحزم وصلابة أن يقفوا بوجه هذه المشكلات، وأن يضعوا حدَّاً لها!

4ـ الروحانيَّة.. نصفنا الآخر:

دعوني أحدِّثكم عن قصَّة الراوي..

كان يا ما كان رجل اسمه «يعقوب». وكان يعيش حياة الفقر والعوز سعيداً، دون هموم، حرَّاً كبهلوان، وهو يحلم بلا انقطاع بأحلام تتجاوز حدَّ أنفه.

في الواقع كان «يعقوب» هذا يحبُّ العالم، رغم أنَّه يرى فيه عالماً داكناً موحشاً، وأكثر من ذلك كان يرى فيه عالماً بلا روح.. بلا قلب!

لقد كان يتألَّم منه، وكثيراً ما كان يتساءل: ما العمل، وكيف يمكن أن يصبح هذا العالم أفضل ممَّا هو عليه؟ وما الذي يمكن فعله كي تشرق الشمس في وجوه هؤلاء الرجال والنسوة!

يا لهذي الوجوه المتجهمة!

يا لهذا القحط الذي يبسط رداءه على حياة البشر، وهم يعدُّون أيامهم البائسة!

ولكن، ذات يوم، خطرت في بال «يعقوب» فكرة ما: «ماذا لو أروي لهم قصصاً مسلِّية؟ وعلى الفور جلس على مصطبة، وبدأ يروي.

في البداية كان يرى الشيوخ والنسوة والأطفال يتردَّدون في السماع له، وكانوا يتابعون طريقهم.. وعيونهم تتَّجه نحوه!

كان «يعقوب» يعلم بقرارة نفسه أنَّه لن يستطيع تغيير العالم في يوم واحد، ولكنَّه لم ييأس، ولم يشعر بالإحباط من عدم اكتراث الآخرين له.

في اليوم التالي عاد إلى مكانه، في الوقت نفسه الذي كان فيه البارحة، وبدأ يتحدَّث من قلبه!

من قلبه بدأ يتحدَّث.. ما جعل البعض يتوقَّفون حوله وهم يسمعون.. كان البعض يضحك منه، والبعض الآخر نظر إليه كمجنون، ولكنَّه لم يكن ليسمع لهم، أو يأبه لما يقولون عنه، بل كان مؤمناً بأنَّ كلامه الآتي من جنبات القلب، كلامه الذي يزرعه اليوم سوف ينمو وينمو، وسوف يدخل عاجلاً أم آجلاً قلوبهم، تلكم المغلقة!

ظلَّ «يعقوب» على حاله يتكلَّم ويتكلَّم، ويروي قصص الحبِّ والمغامرات، وهو جالس في مكانه المعتاد.. وهكذا مرَّت السنون دون أن يلقى نجاحاً يُذْكَر!

ذات مساء شتائي، وكان وحيداً على مقعده الخشبيِّ يروي قصَّة جديدة إذ شعر بوجود أحد ما يستمع له، كان طفلاً صغيراً واقفاً بالقرب منه فسأله الطفل قائلاً:

- «ألا ترى بأنَّه لا أحد يستمع إليك! لِمَ تضيِّع وقتك، ولِمَ تبعثر ما تبقَّى من حياتك هكذا؟ ألا تعلم بأنَّهم يعتقدون بأنَّك رجل مجنون»؟

أجابه «يعقوب»:

- «بلى، أعلم ذلك، وأعرف أنَّني كنت مجنوناً بحبِّ أمثالي، كان ذاك يوم لم تكن قد وُلِدتَ، وكنت أريد أن أسعدهم»! أجابه الطفل:

- «أهم سعداء الآن»؟ قال الراوي:

- «لا. هم ليسوا سعداء»!

- «إذن»، استطرد الطفل بعذوبة:

- «لِمَ تصرُّ على المتابعة»؟

فكّر «يعقوب» لحظة قبل أن يجيبه، ثمَّ قال:

- صحيح أنّني أتكلّم كلَّ يوم، وسأظلُّ أتكلّم إلى نهاية حياتي، كان ذلك في الماضي كي أغيِّر العالم..! ثمَّ أنَّه سكت برهة، بينما كانت عيناه تشعَّان.. وقال:

- «اليوم أتكلّم وأتكلّم خشية أن يغيِّرني هذا العالم»!

تصوَّروا معي الآن «مسيحيَّاً وعلمانيَّاً» واقفَيْن وسط ساحة «الباستيل» يرويان قصصاً غريبة للمارَّة الذين يتناقص عددهم شيئاً فشيئاً.

علينا ألاَّ نخطئ!

هذا التقليد اليهوديُّ القديم[1] أقلَّ منه تشاؤماً ممَّا يبدو للوهلة الأولى: لا أعتقد أنَّ «يعقوب» محرَّر من الوهم، أو أنَّه مكشوف البَصِيْرَة، ولا أعتقد أيضاً بأنَّه يرفض كلام الآخرين والتأثير عليه. إنَّ «يعقوب» الذي نتكلَّم عنه رجل مقاومة لا ينثني، ولكنَّ هذه القصة تحكي تاريخ العقيدة «البروتستانيَّة» المتشدِّدة حول الحريَّة الداخليَّة للإنسان، هي قصَّة وفاء للذات:

---

(1) هي قصة «يعقوب» نفسه التي وردت منذ قليل، وهي قصة يهودية في أصولها - المترجم.

- «اليوم أتكلّم وأتكلّم خشية أن يغيِّرني هذا العالم»! وهي طريقة أخرى لتغيير العالم أيضاً.. حين يستمرُّ «يعقوب» بسرد حكاياه، يقوم بحراسة البشريَّة من شرورها التي تتربَّص بها في جميع مراحل تاريخها!

- ألسنا في قلب حاضرنا نحيا، ونموت؟

- ألسنا في مركز اللِّقاء بين «المسيحيَّة والعلمانيَّة»؟

علينا أن نغيِّر العالم. أن نحاول تغييره على الأقل! وإذا ما نجح «المسيحيُّون والعلمانيُّون»، مع غيرهم من فئات المجتمع، في إضاءة ظلام العصور، والقضاء على «نسبيَّة» الإنسان، وإعطاء «الإسلام» مكانه الجدير به، وتعزيز الديموقراطيَّة في «أوروبا» المتعدِّدة الأجناس والطوائف، عندها سوف يصبح من حقِّنا رفع العلم ذي النجوم.

بيد أنَّه لكي ننجح بتحقيق هذا الطموح الكبير، لا يكفي تهيئة الجوِّ للاحترام المُتَبَادل الذي تكلَّمنا كثيراً عنه، بل علينا أيضاً، وهذه مسألة للغد، أن نسمح «للمسيحيين والعلمانيين، لـِّلا أدريين والملحدين» ولكلِّ إنسان على وجه البسيطة أن يتساءلوا معاً حول «المقدَّس» الذي يجمعهم، والقوَّة السامية للتجلِّي التي تتجاوزهم، والتي تسكن في ذواتهم بآن واحد!

علينا أن نتقبَّل الرهان، وأن نحلَّ معضلة معاني الكلمات باستخدامها السليم، حتَّى عندما تكون كلمات متلعثمة، متجلجلة بين الشفتين.

- كيف نقرِّب، بصيغة أخرى، كلَّ واحد بطريقته، وحسب عقيدته من داخله كإنسان؟

- كيف نسمِّي ما هو أكبر من الإنسان داخل الإنسان نفسه؟

أقترح مؤقتّاً سبر أغوار الداخل، وما ينطوي عليه من سموٍّ، مع علمي بأنَّ لا أحد منَّا حاول هذا السبر الذي أتجرأ بأن أسميه «روحي»، والذي هو، بعيد عن المنهج العلميِّ، وأنوار الوعيِّ!

ـ أيمكن أن تكون «روحانيَّة ناقصة» كما وصفها «لوك فيرِّي[1]»؟

بالنسبة «للمسيحيين» يتعلّق الأمر بالرهان على إمكانيَّة التوفيق بين «حريَّة النقد» و«الوحيِّ الإلهيِّ»، ذلك لأنَّه لا وجود لنصف حريَّة للنقد!

أما بالنسبة «للعلمانيين» يمكن أن يأخذ الرهان هذا شكل ثورة تصهر النزعة الإنسانيَّة بالروحيَّة، وتؤلِّف بين حريَّة الوعيِّ والشعور بالاستعلائيَّة في قلوب البشر، وهي التي تعزِّز القيم الأكثر عمقاً.

إنَّني، مثل «لوك فيِّري»، أختار ما هو غير محدِّد، مبهم، بعيداً عن التداول العاديِّ، وهذا ما «يزعج» العلمانيين الماديين كما يضايق «المسيحيين التقليديين»!

أن تسكن بالقرب من المنعطف لا يعني أن تعيق حركة المارَّة أو تمنع الحوار. أعتقد أنَّ على كلِّ واحد منَّا أن يتبع في نهاية الأمر أقواله الخاصَّة به، ويحترم الاختلاف مع الآخر، فلا يمسَّ «غيريَّته» أو «استعلائيَّته» بما لا يقبله على نفسه!

أرى أن نعيد قراءة ما كتبه «جان كلود رونار» إذ يقول:

---

(1) Luc Ferry, L'Homme- Dieu ou le sens de la vie, Paris, 1996.
«لوك فيِّري»: الإنسان الإله، أو معنى الحياة، باريس 1996.

- «إنَّ ما يفصل الإنسان عن محتواه البشريِّ العميق، هو نفس الفاصل الذي يفصله عن «الله»[1].

قبل أن نتعمَّق في البحث عن هذا العجز المشترك علينا أن نزيل بعضاً من سوء التفاهم، وتحديد ماهيَّة الحياة الروحيَّة التي أريد أن أتكلَّم عنها.

منذ بضعة سنوات، وخلال مهرجان أقيم في مدينة «أفينيون» الفرنسيَّة، طرح في نقاش محتدم السؤال التالي:

- «ما طبيعة «الروحانيَّة» في العام [2000] يا ترى؟

أشار «ريجيس دوبريه» إلى أنَّ «الروحانيَّة» هذه تبدو «كبطارية استبدال لحركة التاريخ، وكأرض موعودة للذين فقدوا جذورهم»، وهذا ما نراه في قلب بيوت المال الكبرى، والمختبرات العلميَّة الأكثر عناية بمظهرها.

لم نعد نرى ما يكفي من الإشارات في الحياة المهنيَّة، حتى وهي ناجحة، أو من أحد معاصرينا يبحث عن الروحانيَّة في مكان آخر!

كان «هيجل» الفيلسوف قد استخدم كلمة قاسية تتعلَّق بهذه «الروحانيَّة الزائفة»، الروحانيَّة الثقيلة الظلِّ، المسهبة في الكلام عن أوجاع القلب وأتراحه!

يمكن أن يأخذ اللُّجوء إلى هذه الروحانيَّة شكل قصر منيف، كما يمكن أن يتحوَّل إلى جو يكاد أن يخلو من إمكانيَّة الحياة فيه.

---

(1) Jean- Claude Renard, Le Lieu du voyageur, p. 91.

«جان كلود برنار»: إله المهاجرين. ص91.

إنَّ الروحانيَّة التي أريد أن أتكلَّم عنها ليست في موقع الدفاع عن نفسها، ولا هي في حالة هروب من المواجهة مع أضدادها من مختلف المفكِّرين والفلاسفة، ولا هي الروحانيَّة التي تختبئ وراء ألفاظ وصيغ «مقدَّسة» مللنا سماعها في الأديرة والجوامع والكنيس اليهوديِّ وفي مختلف أمكنة العبادة، حيث تحوَّل «الله» إلى مادَّة استهلاكيَّة لم تعد تغري البَصِيْرَة الحيَّة!

إنَّ الروحانيَّة التي أتحدَّث عنها هي الروحانيَّة المتواضعة، البعيدة عن الادِّعاء والتعجرف والغرور، هي الروحانيَّة التي لا تنظر لما يدور حولها من حداثة بعين الاحتقار أو اللاَّمبالاة، لأنَّها ابنة الحاضر، «الممتلئة بنعمة التعدُّديَّة»، والباحثة دونما كلل عن أرض الثقافة العلميَّة والتقنيَّة التي تعرف كيف تحوِّلها إلى أرض خصبة للحياة الداخليَّة، إنَّها الروحانيَّة التي تشبه الحبَّ، كما تكلَّم عنها ذات يوم «بولس القدِّيس»!

لا مجال إذن لتبنِّي «لاهوت الجمل» الوحيد السنام التي يندِّد بها «ميشيل هيبو» والتي ترى في الحياة الداخليَّة ازدواجيَّة تتمثَّل في أنشطة روحيَّة، وأخرى دنيويَّة، كالجمل الصحراوي الذي نملأ بطنه بالماء كي نستخدمه في عبور الصحراء اللاَّهبة! أمَّا أنا فأتكلَّم عن روحانيَّة الجمل ذي السنامين، ولا أقول بأنَّ الحياة الروحيَّة ليست بحاجة إلى واحة خصبة لهذا الجمل في عبوره صحراء الحياة، ذلك لأنَّ الروحانيَّة، كما أراها، ليست بناءً للاهوت أو لدين، ولكنَّها خاصيَّة الحاضر الذي تحياه الذات، وطريقة في العيش بكلِّ ما تحمله هذه العبارة من اتِّساع وامتداد روحي.

لقد عرفنا كلَّ ذلك من خلال التجربة، من خلال هبة الوجود، ولذا فقد اخترنا قيمنا، وعاداتنا، في بحثنا عن التلاحم، ولم نعد نأبه لما يقوله الباحثون عن المشاكسة:

ـ ما الخطُّ الأحمر؟

ـ من الذي يقرِّر لون الحياة، وثقلها، وحريَّتها في نهاية الأمر؟

أليست هي «الروحانيَّة» التي يجب أن نتكلَّم عنها، وبالتالي يجب أن ننتظرها بكلِّ ما يملكه القلب البشريُّ من أمل؟

بلى، هي «الروحانيَّة» كما أراها، «شريطة» أن نفهم الكلمة في سياقها المتناغم، المنسجم، وأن نجعلها أيقونة على بوَّابة علم الاشتقاق!

ـ ما حياة الإنسان في هذه الشروط التي تضيق عليه شيئاً فشيئاً؟

هي ما يتنفسه، وما يقدِّمه له هذا التنفُّس من تطوير لذكائه وحساسيَّته وعاطفته وإيمانه.. ويضيف «دانييل سالناف».. و«قراءاته»: «ذلك لأنَّ تجربة الكتب تساعد الإنسان على الدخول إلى أعماقه، ونبش خفايا ذاته.. كإنسان»! هنا يتعلَّق الأمر بالروح.. وهنا يخطر في بالي ما رواه موريس ديلفورج عن عالم طبيب حاول أن يشرح لتلاميذه معنى الروح، فقال، وهو يتذكَّر الأيام التي قضاها في الجيش، في سلاح المدفعية:

ـ «روح المدفع تكمن في فوهة النار، لأنَّ المدفع عبارة عن ثقب داخل أسطوانة من البرونز، فإذا ما تعطَّل المدفع لم تخرج هذه الروح، مثلها مثل الدم في الشريان الذي يتصلَّب، ومن ثم يمنع الدم من التدفُّق[1]».

لا أقول إنَّ الإنسان الروحيَّ ثقب في أسطوانة برونزيَّة، ولكنَّني أقول بأنَّه كائن «مثقوب». أجل، مثقوب، ولذا فهو يترك مجالاً للمرور، لاستقبال غرابة «الآخر» القابع أمامه، وهو دائم الاستعداد

(1) Maurice Deleforge, «L'àme du canon 25 mai 1991.

«موريس ديلفورج»: روح المدفع ـ 25 حزيران 1991.

للطارئ الذي قد يحدث له، ذلك لأنّه لا وجود لتغيير عميق في الميدان الروحيّ إذا لم يكن له طارئ فيما سلف من حياة الفرد.

إذن، فالإنسان الروحيُّ مفتوح على التساؤلات، وهو يحمل في ذاته القابليَّة الدائمة لها، وهو الذي يتعلَّم ألاَّ يخاف من الصمت أو الفراغ، وألاَّ يخشى اللّايقين وألاَّ يتجنَّب الظلمة والنور، مثل آخر قصَّة كتبها «بيكيت» بعنوان «نهاية اللُّعبة» والتي تروي حكاية رجل يجتاز طريقه في الظلام، وفجأة يسمع صوتاً يبدو بعيداً، وأحياناً يسمعه قريباً منه، وكان هذا الصوت كلَّما اقترب منه بدا ضوء النهار بالظهور، وكلَّما ابتعد عنه عادت الظلمة من جديد!

هي لحظة في المسرح! ولكنَّها لحظة تنطوي على حياة كاملة.. أي عراء، وأي حرمان نعيشه أليست هذه قصَّة تاريخنا؟ أليست طريق الفكر فينا؟

أرى الرجل الروحيَّ ممدَّداً على ظهره في الظلام، والصوت من حوله، وداخله، وهو يقترب، ويبتعد..

ليس هناك من حياة روحيَّة دون انفتاح، دون بداهة داخليَّة!

ليس هناك من حياة داخليَّة أيضاً دون سفر! «إنَّ الغاية هي الطريق»، كما يقول «جاك شيير» الأخصائيُّ في دراسة التقاليد الآسيويَّة: إنَّ ما يهمُّنا، ويحرِّرنا هو المشيُ، حيث تتنوَّع الطرق. هكذا يتجلَّى في كتاب «سجلُّ الأحداث» المسيحيُّون الأوائل، كمريدي طريقة!

في بحثه عن الطرق المتشعبة، قد يضيع «الظبيُّ الروحيُّ» ويفقد الاتِّجاه الصحيح. قد يتعرَّض للجراح، وقد يحدث أنَّ هذا «الظبيَّ» الجريح، خلال مسيرة حياته، يعاني دواراً في رأسه، وهو يستنشق الهواء المعطر برائحة المسك في أعالي الجبال حيث ينتظر «الله»!

هو لا يعرف من أين تأتي هذه الرائحة، ولكنَّه حين يشمُّها يبدأ بالقفز والوثوب من مكان لآخر باحثاً عن مصدرها.

خلال هذه الفترة يظلُّ يركض عبر الوديان والوهاد دون أن يفكِّر بالطعام أو النوم إلى أن يضنيه الجوع والتعب، فيبدأ هذا الظبيّ المسكين بالترنُّح والتمايل بين الصخور.. ثم ها هو ذا يسقط جريحاً، وقد غاب من الوعيِّ!

تمرُّ اللَّحظات ببطء وركود، ويبدأ الظبيُّ باستعادة قواه، وهو يتنفس بعمق رائحة العطر المقدَّس علّه يشفى، ولكن هيهات! لقد فات الأوان، إذ إنَّ الموت بدأ يقترب منه حاملاً الوعد الإلهيَّ: لا بدَّ أن ترى «الله» الذي طالما حلمت برؤيته!

هذه القصَّة القصيرة ليست حزينة كما تبدو للوهلة الأولى، إذ نسمع بعدها «الإنجيل» يردِّد أصداءها البعيدة فيقول:

ـ ابحث في ذاتك! هناك كنز مغمور في حقلك، نحن جميعاً يمكن أن نكون مصدر الرائحة ذات المسك.

ـ أتدركون بما يكفي إلى أيَّة درجة يمكن أن تقودنا الحياة الروحيَّة، والثمن الذي علينا أن ندفعه من أجلها؟

ـ أي اختباء علينا أن نقوم به؟ وأيُّ تجوال وتنقُّل نضطرُّه في بحثنا عن اللَّامرئيِّ، واللَّا مدرك، واللَّا يمكن لنا أن نحيط به!

ـ أمن الحكمة أن نركب أهوال الطريق دون أن نتزوَّد بالمؤونة اللَّازمة، والاَّ نحمل سوى العصا، والعباءة على ظهورنا المحنيَّة؟

لم يحمل «متَّى ولوقا» شيئاً، وهما يغادران، لم يحملا حقيبة ولا حذاء، حتَّى إنَّهما رفضا أن يحملا العصا. لم تكن تلك «مهمَّة»

يقومان بها، ولا بحث عن الرائحة ذات المسك، كانت مجرَّد رحلة طويلة وشاقَّة إلى دواخل كلٍّ واحد منهما.

بعصا أو دونها، على كلٍّ واحد أن يختار طريقته في المسير. ومع ذلك أقترح بعض الإشارات التي قد تفيد «السالك» على هذا الدرب.

بادئ ذي بدء عليه أن يحدِّد وجهته، وإلى أيَّة أرض موعودة هو ذاهب إليها.

لا أطلب من «المهاجر إلى الله» أن يعود أدراجه، أو أن يمشي إلى الوراء، ولكنَّني أقول له بأنَّ الحياة الروحيَّة الثابتة، والتي تستند على أعمدة الديمومة، تتطلَّب اختيار الجهة والموقع.

نقرأ في «الإنجيل» أنَّ التلاميذ غادروا اثنين اثنين، وهناك أقصد أن نسير على طريقتهم، بل أن نستكشف ما فعلوه، وأن نفهم «حدسهم» الخاصَّ الذي كان وراء سلوكهم في هذه الدرب.

- ألا يكون من الأفضل لنا أن نسير «اثنين» اثنين على الأقلِّ لعبور الصحراء الموحشة المظلمة في دواخلنا، لكي نتأكَّد أنَّ وجهتنا التي اخترناها هي الصحيحة، ذلك لأنَّ الحقيقة تظلُّ نسبيَّة مرتبطة بعلائقها!

من ثمَّ، على السالك أن يختار المعنى. أعني المعنى الكامن في ذات رفيق دربه. عليه اكتشافه قبل أن يخطو الخطوة الأولى، وقبل أن يتقاسم معه رغيف الخبز!

لا أنسى أنَّني أتحدَّث الآن عن بحث مطلق مع «الله» أو.. دونه!

إنَّ الكبار يتشابهون في ذواتهم. انظروا الموسيقيين والشعراء والروائيين والصوفيين وهم يسيرون على المنهج نفسه في الحياة. إنَّ الحياة الروحيَّة تتطلَّب «أبوَّة» فيما وراء الاعتقادات والقناعات. هي لا

تفرض «يسوع» على اليهوديِّ، ولا تطلب من السادة أن يتقبَّلوا «الحلاَّج»، ولا من «أمنحوتب» المصريِّ أن يناقش «رامبو» أو أن يعقد صفقة فكريَّة مع «نيتشه»!

هذه مجرَّد كلمات لا معنى لها على أرض الواقع: إنَّ ذبالة قلب الشاعر حتَّى لو كان مجهولاً، يمكن أن تشعل النار في جبل من حطب.

بيد أنّني أقف أمام سؤال محيِّر:

ـ هل باستطاعة كلِّ واحد منَّا أن يعبر صحراء ذاته، هذه المظلمة؟

ـ وما الذي نعنيه بـ «كلِّ واحد منَّا»؟

ما يفصلنا هنا ليس الدين، ولا الثقافة، ولا ما اكتسبناه عبر التجربة، لأنَّ الحياة الروحيَّة ليست حكراً على المثقفين والكتَّاب وخاصَّة المفكرين، إنَّها ميدان للجميع، ميدان غير تجاري مفتوح أمام الجميع: الزاهد ورجل الأعمال، ولا حقّ لأحد أن يدَّعي ملكيَّة خاصّة بهذه البقعة المباركة من أرض «الله» المُشْتَركة!

في بداية القرن الخامس عشر ونهاية القرن العشرين كان الحديد والدم على موعد، وكان الصيارفة وأصحاب رأس المال مدعوِّيْ شرف..

ما جدوى إخلاصنا للعقيدة، وما أهميَّة الورع والتقوى في زمن موحل كهذا؟

لنكن واضحين! إنَّ مشاكل الإدارة تكاد تخنقنا: رجال السياسة، مدراء المشاريع، النقابيون، أنتم، أنا، أعتقد أنَّ الجميع يدخل في هذا المعنى البسيط المقتضب، وأولهم هو الجيل الجديد! إنَّ المشكلة ليست في الهروب، إنَّما في «التهرُّب»، والدعوة إليه.

يذكّرنا الصوفيُّون والنُّساك والفنَّانون والشعراء.. أنَّ هذا التهرُّب ليس راحة أو فترة استجمام. إنَّ التأمل هو حالة من الصراع، والدخول في الحياة الداخليَّة بمثابة تمرُّد وعصيان للرقابة والكسل الروحيِّ، حتَّى إنَّ الناسك الأمريكيَّ «توماس مرتون» سمَّاه حالة «هدم وتخريب»، ولكنَّه هدم وتخريب إيجابي. يقول في رسالة وجَّهها إلى «البابا يوحنا الثالث والعشرين»:

- «أفهم من طريقة التأمُّل هذه الحركات الاجتماعيَّة والسياسيَّة والثقافيَّة والفنيَّة لهذا العالم»!

الناسك في حالة كهذه مثل الشاعر تماماً، يتمرَّد، ويثور، ويعلن عصيانه من خلال مقاومة شرسة لكلِّ ما هو زائف وآني!

هذه المقاومة الروحيَّة تهزأ من حدودنا، وإذا استطاع الناسك أو الشاعر الصمود فذلك لأنَّهما يعرفان سلفاً أنَّ هناك في مكان ما، في زاوية ما من هذه المعمورة رجالاً ونساء صامدين في وجه الأعاصير والنوائب.

هم مُرْهَقون، وهم يحترقون من الداخل، ولكنَّهم مع ذلك يضيئون عتمة الغرفة الصغيرة في منازلهم.

المقاومة عندهم تعني مقاومة الروحانيَّة أيضاً. ولكنَّها الروحانيَّة السقيمة، الداعية إلى الزهد والانسحاب الخجول إلى ما خلف هذا العالم..

إنَّ الروحانيَّة التي ينشدونها هي الروحانيَّة المثمرة في صحراء القلوب، لا الرخيصة التي تجهد أصحابها في «تَصَحُّرِ» حيواتهم أكثر ممَّا هي عليه من التَصَحُّر!

بقدر ما نكون بشراً نعمل ونكدُّ في هذه الدنيا، بقدر ما نكون بحاجة إلى كلمات ذوات نكهة ومذاق لذيذ، كلمات تداعب أحلامنا جميعاً، من «مسيحيين وعلمانيين ومؤمنين وغير مؤمنين»، كلمات هنَّ على صورة فظّة، جافّة، أكثر ممّا يبدون عليه، ولكنهنَّ ينتزعن من الحياة اليوميَّة ما يعيق نقاءها وبهاءها الطبيعيَّ، ويقرِّبها من السموِّ أكثر فأكثر.

«دانييل بو»، شاعر قضى حياته في «البحث عن الجنَّة» كما كان يحلو له أن يقول، وصف الحياة الروحيَّة «بالعمل على خلق العلاقة» مع الآخر، كالفنَّان الذي يصنع لوحته أو تمثاله الذي يدور في ذهنه!

تدعو الحياة الروحيَّة أصحابها إلى خلق هذا النوع من العلاقة، والبحث طويلاً في أعمق أعماق الذات عن ذاك «الأنا» الكامن فيما وراء الغياهب والعصور، وقد تراكمت عليه ما لا يحصى من سنين القحط والجدب والخراب، حتَّى أصبح لا يعلم من ماضيه شيئاً، سوى أنَّه كان ذات يوم «أنا» تنبض فيه روح «الله» الذي خلقه على شاكلته[1].

يفترض العمل المُشْتَرك منَّا تَقَبُّل وجودنا، كما يفترض أن نكون قادرين على مغادرة أنفسنا، وعلى إعطائها كذلك! مثل ما فعل هؤلاء المجهولون في مدينة «ميونخ» عام [1943] غداة اليوم الذي قطعوا فيه رأس المدرِّس مع ثلاثة من تلاميذه حين كتبوا على حائط المدينة الجملة التي ما زال صداها يرنُّ آذاننا إلى اليوم:

- «ومع ذلك ما زال الفكر حيّاً»!

---

(1) سفر التكوين.

في هذه اللّحظة بالذات شعّت الحريّة الداخليّة، وأصبح كلّ واحد من الحضور فريداً من نوعه، لا يمكن استبداله أو الاستغناء عنه[1].

إنّ العمل المشترك لا يضرّ بالمجتمع الذي يعمل جاهداً على التشبُّث بالتوازن بين الحرب والسلام، كما يقول «جان سيلفان» - «اعطِ ما للقيصر لقيصر، ومن ثمّ مساء الخير»!

هذا يعني أنّ العمل المشترك يتجاوز حدود الفردانيّة وغريزة القطيع التي كان «غاندي» ضحيّتها في بداية إقامته في «إفريقيا الجنوبيّة» عندما أجبروه على ترك مكانه، والسير على قدميه، كي يصبح فيما بعد «وثناً» للحريّة الداخليّة في العالم أجمع!

أتذكّر قول «أندريه مالرو» حول بناء هذا الوثن الإنسانيّ من الداخل: - «لا يبني الإنسان نفسه إلاّ بمتابعة ما يتجاوزه»! وهذا يتطابق مع المثل الذي تعلّمناه منذ الطفولة، وهو أنّه «من المستحيل عزل الزوان عن الحنطة»..

من الصعوبة بمكان التوصّل إلى قلب المفاهيم التي تتعلّق بالنزعات الإنسانيّة وتعزيزها دون اللّغة، أي دون اللّغة الشعريّة، واللّجوء إلى الخيال دون الوقوع بحبائل الغموض والإبهام!

إنّ اللّغة الشعريّة التي أشير إليها هي التي نسميها في استخدامها التوفيقيّ بين العقيدة، أو الإيمان أيّاً كان شكله، والحالة الشعريّة بما تنطوي عليه من حقيقة الروحانيّة التي تنعكس بصور شتّى، وأهمّها صور الفنّ الذي يبحث عن الخلود! يقول «ميلان كيندرا»:

---

(1)Maurice Zundel, Croyez- vous en l'homme?, Paris, 1992, p. 32 et 87.

«موريس زندل»: أتؤمنون بالإنسان؟ باريس 1992 ص32 – 87.

ـ «لا أريد أن يُسَاء فهمي: فأنا لست بصدد الكلام عن «أدب مسيحي»، ولكن عن البحث عمّا هو شعري في أجراس «الكنيسة» التي يتردّد أصداؤها كي يوقظ موتى القلوب.. أبحث عن لغة الطفولة التي لم نعد نتذكّر أبجديّتها، وبراءتها الأولى[1]».

في خضم الأحداث المتتالية، والتيارات الفكريّة التي تتلاطم من حولي لا أنسى «العلمانيّة»، وهي التي تشكّل بنفس مستوى المسيحيّة، النصف الآخر للمسألة التي ندور حولها.

يرى «جان كلود بولونية» أن للعلمانية وجهة نظر جديرة بالاحترام، وهي أنّ الله والآداب والموسيقا والحبّ والتقشّف حصى يكسر الزمن الّلا نهائيّ للّحظة والمحيط الضيق الذي يفصل الإنسان عن الكون.

قد لا أتّفق معه حول تمييزه بين الصوفيّة والتقدُّم الروحيّ، وإذا أكون قد سمعته جيداً فإنّه يقول: إنّ الروحانيّة، وخاصّة «المسيحيّة» منها «تمشي إلى الله» خطوة خطوة من خلال بحث طويل جدّاً بينما تريد الصوفيّة الاتّصال المباشر والشامل مع الّلانهائي!

الانتقال إلى ميدان الأدب يعني أنّ الصوفيّة التي يتكلّم عنها «جان كلود بولونييه» في علاقتها مع الروحانيّة، مثل النثر بمقارنته بالشعر!

أستمع جيداً لهذه الشهادة، ولا أريد أن أقصر جوهر التجربة الصوفيّة، أو أن أتغاضى عن بريق ووميض التجربة الشعريّة التي

(1) Milan Kundera, Les Testaments trahis, paris, 1993.

«ميلان كيندرا»: الوصايا المخدوعة ـ باريس 1993.

تتماشى معها على طول الخطّ، ولكنَّني لا أعتقد بأنَّ الروحانيَّة هي صوفيَّة الفقير [وهذا ما لم يقله بولونييه] ، إذ أنَّها ، هي الأخرى، تسير في طريقها الذي اختارته.

أدرك أهميَّة الاعتراضات، والجدل الذي يحتدم، ويثير «العلمانيَّة» نفسها! هم يقولون: «نحن لسنا بصدد طرح دين جديد أو بناء كنيسة أخرى»! وهنا أتَّفق معهم تماماً، ذلك لأنَّني طالما كرهت الشعائر التي تضع على كواهلنا ثقل مسؤولية «مسخ المسيحيَّة» التي نؤمن بها، ولكنَّني أيضاً بحاجة ماسَّة إلى «طقس ما» كي أفصح عن حبِّي الذي يأتي ويروح، ولكي أغذِّي العاطفة التي تجيش في صدري حين أحسُّها بدأت تجفُّ وتذبل في زحمة الحياة ومتاعبها:

- لِمَ هذه المقابلة التي تأخذ معنى المعارضة في كثير من الأحيان بين العاطفة والوعيِّ؟

العاطفة هي التي تتحرَّك، وتتنقَّل، ولا أريد أن ألقي بقفَّازة الوعيِّ بوجهها. هو مفهوم رائع «الوعيُّ» هذا الذي أفهمه! إنَّه وجد الفهم، ودخوله في معارضة أو تواطئ مع ذكاء الأشياء أمر حيوي ومحتَّم!

ولكن حين يأبى «الوعيُّ» أن ينتقل، أي حين يتحوَّل إلى عقلانيَّة باردة، أفلا يجد نفسه قد فقد قيمته السامية، وأنَّ الحداثة التي يستند عليها ستواجه النبال من كلِّ حدب وصوب؟

أتقاسم القناعة مع الأستاذ «بيران» الشهير في دراسة العواطف حين يقول:

- «لقد شرح علماء النفس طبيعة العاطفة، ولكن لن يكون أحد تلاميذ «فرويد» من يشرح لنا ماهيَّة الزواج.

من المؤسف حقّاً أنّ «العلمانيَّة» لم تجد إلى اليوم طريقها إلى واحة الغرابة والروعة، إنَّ الإنسان بحاجة إلى «المقدَّس»، ولكنَّ العقلانيَّة لا تريد أن تفهم هذه الحاجة.

«اللّاهوت» مصلحة كبرى في حرث أرض الواحة هذه، وعقد قران الوعيِّ على العاطفة بأسرع ما يمكن.

لا أطالب الوعيَّ بالتوقُّف عن التفكير، لأنَّ الحماسة للأسف لا تحلُّ محل الذكاء، ولكن «التفكير» هو أيضاً إعادة تفكير، ومراجعة للمفاهيم المُتْعَبة، وتشظٍ للُّغة! يقول «بولونييه»: إنَّ «الجرأة على الإبحار» تستدعي معرفة البحر، لا الوقوف على المرفأ ومراقبة الأمواج. إنَّ الذين لا غاية لهم سوى الموت في العدم اللّانهائيِّ هم البَّحارة الذين أتكلَّم عنهم. إنَّ «كريستوف كولومبوس» لم يكن لاهوتيّاً، كما تعتقدون! اللّاهوتيُّ كان «ماجلان» العظيم[1].

أعتقد أنَّ على «اللّاهوت» أن يفقد نفسه، أن يضيع في آفاق بعيدة عن الآداب، لا لكي يبدِّل فلسفته، ولكن من أجل أن يرى، ويسمع بشكل أفضل، أن يتذوَّق ويحسَّ ويلامس بدقَّة لم يعهدها من قبل، شريطة أن يبتعد عن الشكلانيَّة، وأن يستعيد أصالتها المفقودة منذ أن بدأت الغيوم الداكنة تلطِّخ سماءه.

هي المغامرة الداخليَّة التي تحدَّثنا عنها امرأة اسمها «آن»، تخضع لعلاج من مرض السرطان، وتعلم أنَّ أيامها معدودة!

يروي لي أحد زائريها فيقول:

---

(1) Jean- Claude Bologne, Le Mysticisme athée, op. p. 62.

«جان كلود بولونييه»: الصوفيَّة الملحدة ـ ص62.

- «سألتني برقّة أن أتناول العلبة الموجودة على الطاولة، وأن أضعها على ركبتيها، ثمَّ قالت لي:

- انظر، إنها مجرَّد علبة من الخشب، في داخلها قليل من التراب.. فقط قليل من التراب النديّ. إنَّ صديقاً لي جاءني به بعد ظهر اليوم، وقال لي: «آن، حملت لك هذه التربة من حديقة منزلك، هي التربة التي طالما اعتنيت بها طيلة حياتك، ضعي اصبعك فيها الآن».

شاهدت أثر التراب على أصابعها، وكنت في حالة من الذهول فقلت في نفسي: «أيَّة شجاعة وجرأة، أيَّة ثقة بالحياة، بالموت بـ «آن»! إنَّ هذا الصديق يدعوها لاستقبال اللّحظات السعيدة في وجودها من خلال حركة بسيطة، ويجعلها تعيش!

رطوبة القبر قبل أن تصله. كيف يحدث هذا؟ هل تتمتَّع الكنيسة بشجاعة كهذه؟

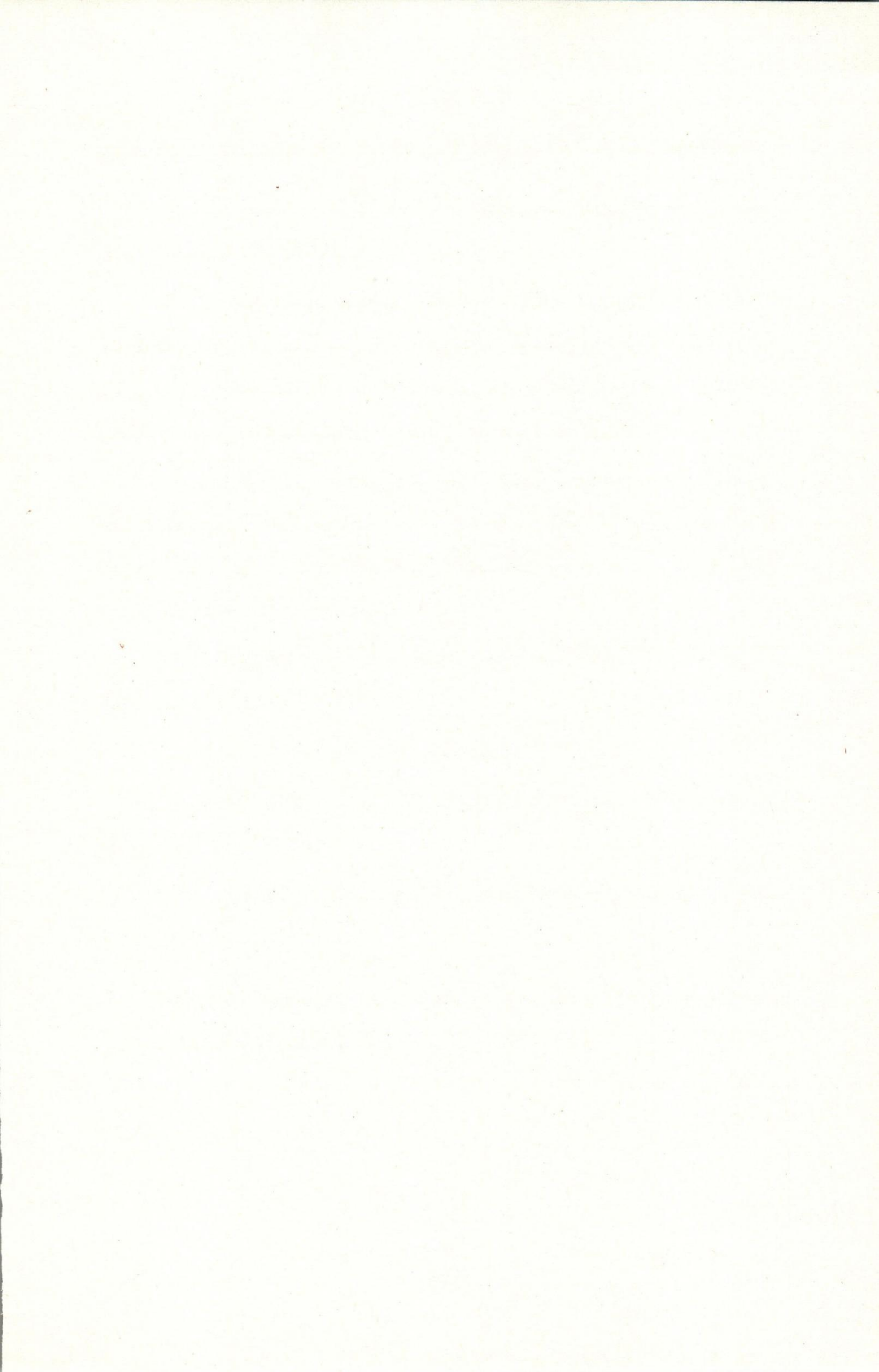
عندها قلت لها بعفوية، دون تفكير:

- هي الأرض التي طالما اعتنيت بها يا «آن»، وهي الأرض نفسها التي أنسَلَتْكِ!

أجابتني باسمة، والذبول يسفح ضوءه الأصفر على وجهها:

- «إنها الغرابة!

بعد بضعة أيام سوف آخذ مركبي، وحيدة دون رفيق، وسأبحر، سأبحر بعيداً حول هذه الغرابة..



الخاتمة

هناك أسطورة «هنديَّة» تحكي عن الزمان الذي كان البشر فيه آلهة خالدين، ولكنَّهم طغوا في الأرض ظلماً وجوراً، ما جعل كبيرهم، كبير الآلهة آنذاك أعني «براهما» يقرِّر نزع قدرتهم وقوَّتهم هذه، ومن ثمَّ يخلع عنهم صفة الألوهة التي تمنحهم الخلود والأبدية، ويخبؤوها في مكان لا يمكن الوصول إليه.

المشكلة عبر «براهما» كانت في هذا المكان بالذات! أين يضع هذه «الألوهيَّة» دون أن يجدها أحد؟

جمع حوله كبار مستشاريه لحلِّ هذه المعضلة. أحدهم اقترح عليه قائلاً: - «لندفن ألوهيَّة الإنسان في الأرض»!

أجاب «براهما» قائلاً:

- «لا، هذا ليس حلاً معقولاً، لأنَّ الإنسان سوف يحفر الأرض ذات يوم، وسيجدها»!

انبرى أحدهم وقال:

- «إذن لنلقِ بها في قاع المحيط العميق»! ولكن «براهما» اعترض بقوله: «كذلك هو حل غير معقول، لأنَّ الإنسان سوف يركب البحار، وسوف يجدها عاجلاً أم آجلاً»!

صمتَ الجميع بعد أن عجزوا عن الإجابة، وقالوا بيأس:

ـ «حقّاً، نحن لا نعرف أين نخبئ هذه الألوهيَّة عن الإنسان الذي يبدو أنَّه سيبحث عنها في كلِّ مكان»! عندها قال «براهما»:

ـ «اسمعوا ما أقوله: سوف نخبؤوها في أعمق أعماق الإنسان هذا، لأنَّه المكان الوحيد الذي لا يمكن أن يخطر على باله».

ومنذ ذلك الحين، تتابع الأسطورة، والإنسان يحفر الأرض ويركب البحار والمحيطات، وهو يبحث عن شيء هو فيه بالذات.

كي يتوصَّل الإنسان إلى ذاته، إلى «ألوهيته» هو، عليه أن يعبر صحراءه الممتدَّة أمامه! لقد كان «موسى» يعرف بعض الأشياء غداة خروجه من «مصر»، حين كان «أبناء إسرائيل» قد تعبوا من حريَّتهم الجديدة، تباكوا على خيرات العبوديَّة التي كان يرسفون بأغلالها: «من يعطينا اللَّحم لنأكل، ومن يقدِّم لنا السمك الذي كانوا يقدِّمونه لنا في «مصر» بالمجَّان!» فادع لنا ربَّك يخرج لنا ممَّا تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها[1]. إنَّ حياتنا تذوي، ولم نعد نملك شيئاً سوى المنَّ والسلوى، وقد مللناهما يا «موسى»!

لم يتنزَّل المنُّ السلوى في حوار «المسيحيين مع العلمانيين» من السماء. ولم يعد له الطعم الذي عرفه «أبناء إسرائيل»، ومع ذلك فهو يظلُّ معجزة كشجرة الطرفاء في الصحراء اللَّاهبة.

أتمنَّى من أعماقي أن يمتلك «المسيحيُّون» والعلمانيُّون بعضاً من شجاعة هذه الثقافة، وأن يعلموا كيف يزاوجوا بين اختلافاتهم، ويكتشفوا الطرق التي لم يسلكها أحد بعد، وأن يستقبلوا برحابة صدر أفضل ما قدَّمته البشرية.

---

(1) كما وردت في سورة البقرة.

في هذه الحالة نستطيع أن نثير الدعائم الأربع التي بنى عليها «أندريه كونت بونفيل[1]» منزله: [الوعيُّ اليونانيُّ، الشريعة اليهوديَّة، الحبُّ الإنجيليُّ، وأخيراً التسامح البوذيُّ].

بنى منزله هذا شريطة أن نبحث طريقة حضاريَّة للمواجهة، إذ لا يكفي أن نسكن بالقرب من جار حسن المعشر، رغم أن هذه ميِّزة لا تعوَّض في الجار، ولكن أيضاً أن نطمع في العمل معاً لتحسين شروط حياتنا في هذا الحيِّ المشترك، على المستويين الفكريِّ والروحيِّ معاً، وفي كلِّ ما يتعلَّق بديمومة الحياة معاً.

انظروا إلى السماء المرصَّعة بالنجوم. انظروا ما بين النقاط المشعَّة، والأزرق الذي يغطي القبَّة السماويَّة.. إنَّه ليس الفراغ بكلِّ بساطة، إذ إنَّ العلّم يؤكِّد لنا أنَّ هذا اللَّمعان يشير إلى اتِّصال النجوم ببعضها، وأنَّ طاقة تدور فيما بينها.

بلا شكَّ إنَّ هناك تداخل ديناميكي بين هذه الكواكب دون وجود نقاط مركزيَّة، هذا ما حاول أن يشرحه لنا الشاعر «جورج هيلداس» حين تكلَّم عن السماء الكامنة فينا: الذاكرة!

نحن مسكونون بالذكريات. بذكريات الطفولة والتي هي كالحبيبات، والنقاط المشعَّة، ولكنَّها ذكريات مترابطة فيما بينها، كالنجوم تماماً، في مهاوي النسيان!

---

(1) André Comte- Sponville, La Sagesse des Modernes. Dix questions pour notre temps, 1998, p. 263.

«أندريه كونت بونفيل»: حكمة المُحْدَثين، عشرة أسئلة حول زمننا 1998 — ص263.

إذا لم يكن هناك بصيص نور في الظلمة العميقة داخلنا، والتي تحتوي على ملايين المعلومات والذكريات وهي تشكّلنا، وتجعلنا نحيا، سوف لن نستطيع الانفلات أو اللّمعان كالنجوم.

يمكن أن نغوص أيضاً: إذ لا وجود لواحة دون صحراء، ولا وجود لكلام دون صمت، ولا لعقيدة أو إيمان دون شك!

إذن، في النهاية علينا أن نعرف أنّه لا وجود لحريّة دون وحدة!

يثير «ريكير» ضرورة الصحراء بصدد حديثه عن الدين، فيقول:

- «إذا أرادت الديانات أن تستمرّ في البقاء عليها أن تكتفي ببعض المطالب، وفي الدرجة الأولى عليها أن تتخلّى عن جميع أنواع السلطة، سوى الكلام المجرّد من السلاح، عليها أن تخفّف من حدّة ألفاظها، ووعورة الجمل التي تستخدمها، وبالتالي، وهذه هو المطلب الأصعب بالنسبة لها، عليها أن تبحث في أعماق تعاليمها عن الفائض الذي لم تقله، والذي بفضله يأمل كلُّ واحد منا أن يلتحق بالآخر!

الإيمان، أو عدم الإيمان... ليست هذه المسألة الحاسمة في الرهان غداً، بل هي الطريقة في الإيمان، وفي عدمه! إنّ الرهان الذي نعنيه يتعلّق بالقلق الروحيّ لأنّ الحدود لم تتجاوز منذ البداية مواقع القدماء والمحدثين، ولم تكن بين من يؤمن بالسماء أو الذين لا يؤمنون حتّى بأنفسهم - إنّ الحدود هي الطريقة التي تعبر كلّ واحد منّا!

رفض المغامرة ومخاطرها، أعني المغامرة الروحيّة، ليس حرق أو جلد الذات. تلك هي الخطيئة!

- لماذا نرى الكثيرين من المؤمنين بوجوه شاحبة كدرة؟

بلى، هم ذوو ضمير حي، أرثوذوكسيُّون، لا غبار عليهم، ولكنهم موتى من الداخل، موتى روحانيُّون! وهذا لا ينطبق على المؤمنين وحدهم.

ما أحاول قوله هو أنَّ هناك سعادة في النزول إلى دواخلنا، وسبر أغوار هذه البقعة التي لم نكتشفها من قبل، حيث نلتقي بالمجهول الذي يتراءى أمامنا دون أن ندركه:

لطالما رافقت الموت! ولطالما كنت مندهشاً أمام غرابة الراحل أو الراحلة إلى الأبد من هذا العالم.

ولكنَّني أيضاً كنت أحسُّ بمشاعر جيَّاشة أمام ولادة طفل!

إنَّ الإنسان بلد كبير علينا أن ندافع عنه، ذلك لأنَّ ولادة العصور القادمة ستكون صعبة للغاية.

حان الوقت لكي ينهض الرجل، والرجل الثاني بعده، وغيرهما أيضاً.. أعرف جيداً أنَّهم لن يكونوا كثيرين، ولكن لا قيمة للكثرة، تكفينا قبضة واحدة، وأخوَّة ظلٍّ واحدة، لبداية أعتقد أنَّها ستكون بداية حسنة! إنَّ رجلاً واحداً قد يكون كثيرين! لا أعني الرجل ـ البطل، كما قد يتصوَّر البعض، لا! بل أعني رجل جميع الأيام، الرجل الحاضر الآن وغداً. الرجل الكبير والمدعوُّ لئن يكون كبيراً!

هذا الرجل يعرف صديقته، حتَّى وهي وسط الغابة، وهو يحمل بعض التربة معه، لا لكي يبني على الرمال، ولا أقول أنَّه يبني أيضاً على الصخور! أعلم عن الوحدة الجافَّة الكثير.

إنه الرجل الذي لا يتنكَّر لإرثه، ولا يضع الوعيَّ مقابل العاطفة، ولا يشرب من ينبوع واحد، ولا يتذوَّق طعم حقيقة واحدة. هو رجل يرفض السهولة!

أراه قادراً على الخفّة والجاذبيّة! الجاذبيّة لأنَّ الساعة خطرة، والأرض تعاني الألم والعذاب، والغضب يتصاعد ويتصاعد.. إذن، لن نقول عنه:

ـ «إنَّه رجل بلا وزن»! إنه يتمتَّع بالخفَّة، لأنَّ الجاذبيَّة تعتمد عليها، وبدونها تصبح غير محتملة!

إذن ليس هو الرجل الذي وصفه «نيتشه» بقوله:

ـ «الرجل المتفوِّق»، والذي أراه يرقص على رأسه، بل أراه قادراً على الحكمة، إذا أردنا حقّاً استخدام هذه المفردة كما أراد «رولان بيرث» استخدامها في لحظة انتهائه من تدشين «المَجْمَع الفرنسيِّ» إذ يقول مخاطباً الحضور:

ـ «أتشبَّث بكلِّ قواي بما عندي من قوَّة حيَّة: النسيان!

كان قد مرَّ بنا زمن كنَّا نعلِّم فيه ما نعرفه. أعتقد أنَّ الزمن الآتي سوف يجعلنا نعلِّم ما لا نعلم، وهو ما نعنيه بالبحث. ربما يأتي زمن آخر. زمن تجربة أخرى: هي نسيان ما نحفظه.. هذه التجربة لها اسم مشهور، أجرؤ على استخدامه دون تعقيد: هو دون قدرة البتَّة، يتمتَّع بقليل من المعرفة، وقليل من الحكمة، وكثير من الرائحة التي تملأ الأرجاء. إنَّه رجل الوحدة! ولكنَّها ليست الوحدة التي تدعو إلى العزلة، بل هي ما تقرِّب بين البشر، وتضفي على علائقهم معاني الأخوَّة، لأنَّ في هذه الوحدة تتجلَّى صورة التعاضد والتكافل المشرفة.

أراه أيضاً رجل القلق!

ما باله القلق؟

هو حالة إنسانيَّة في نهاية الأمر!

أتذكّر أنّني تلقيت ذات يوم دعوة للقلق دون سابق إنذار. لقد كتب لي «أحدهم» الذي لم ألتقِ به أبداً، والذي يبعث لي من وقت لآخر بإشارات الصداقة يقول:

- «القلق طبع الروح الإنسانيَّة الذي يرافق نهاية اليقين القديم في الأشياء، وولادة يقين جديد غيره»!

إذا أردت أن تعطي للقلق مكانة الرفيق فاجعله بمثابة أختك، وسيكون لك أخت كتومة تحفظ أسرارك، ووفيَّة طيلة الحياة معك»!

ألا تعزّي هذه العلاقة مع القلق القلب المكلوم؟

قد يحدث أن نتّخذ مواقف متصلّبة إزاء القلق، وقد نتمنّى الراحة والهدوء لأنفسنا، وننسى أنَّ هاتين الحالتين للنفس تعكسان الحذر والخمول، وهما يجلسان في غرفة لانتظار الموت!

إذن، أختك هذه، عصيَّة على الطاعة، فهي تصفع وجهك أحياناً، وحين تراك في غيبوبة تقوم بتدليك وشحذ رئتيك بتنفُّس اصطناعي. بهذا المعنى يكوِّن الرجل القلق رجلاً غير منغلق على نفسه، بل رجل انتباه ويقظة، يستطيع الضحك، ما يجعل قلقه يأخذ شكل الصداقة والألفة.

أرى رجل القلق أيضاً شاعراً يسكن العالم، ويشكّله كما يريد، قادراً على العمل والخلق بمفرده، وهو يستكشف الآفاق والمهاوي معاً، أراه يبتسم حين يلتقي أخته العزيزة، وهي تحمل له صرَّة العشاء!

أراه رجل الصمت والذهول، وحين يتكلّم يظلُّ صامتاً، وحين يصمت ينساب الكلام من شفتيه دون أن يحرِّكهما!

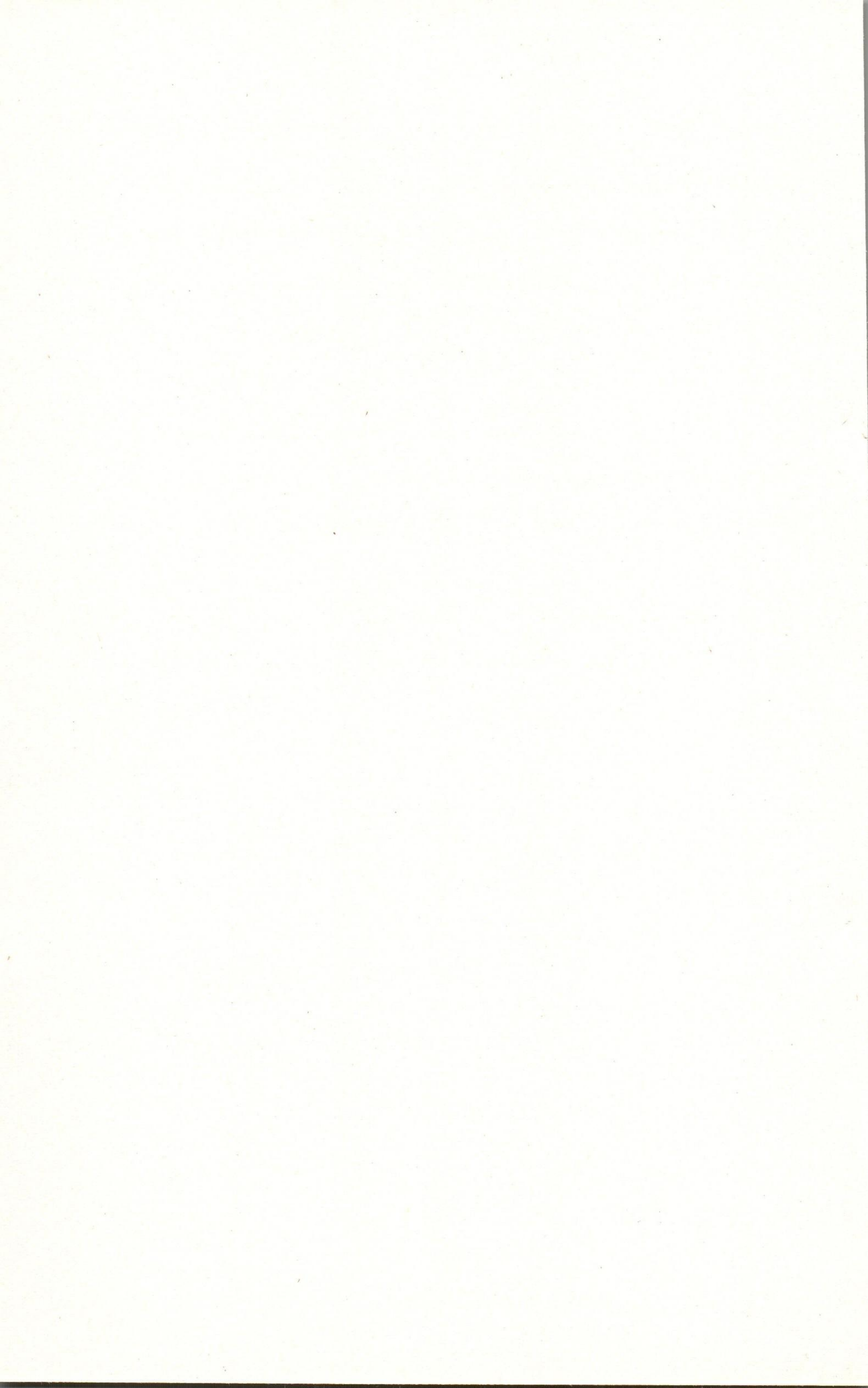
ها نحن في «باريس» جالسون على ضفة «السين» تحت أحد الجسور، والمراكب تمرُّ بهدوء وسكينة دون أن نحسَّ بوجودنا!

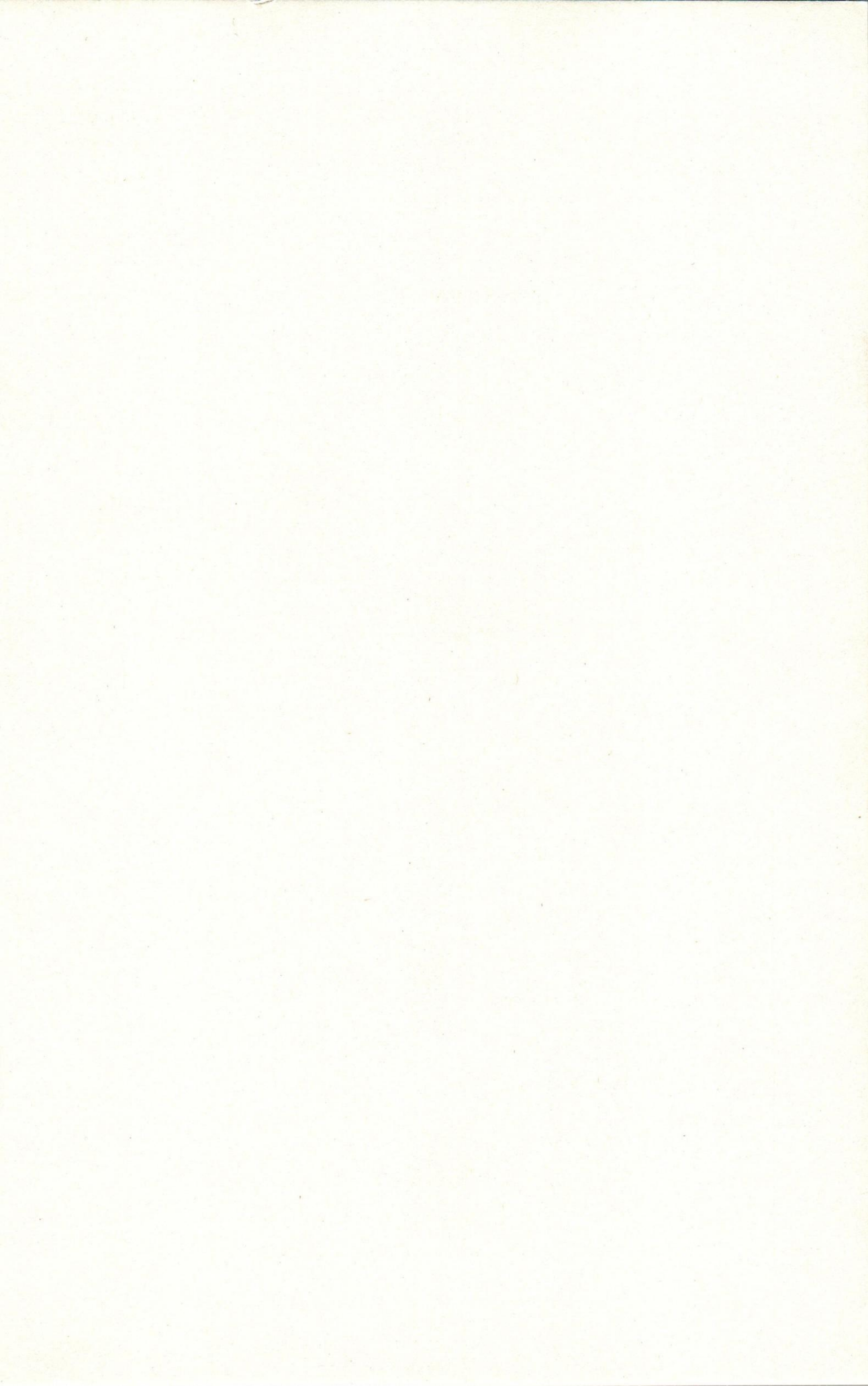
أنظر بعيداً، هناك، حيث يتزاحم البشر على لقمة العيش، وكأنَّ الحياة آلة جهنميَّة تحاول أن تلتهمهم جميعاً:

تكاتفوا أيُّها المُتْعَبُون إذن!

احلموا بمستقبل مشرق وصباحات نديَّة وأنتم ذاهبون إلى أعمالكم، واعلموا أنَّ السعادة التي تبحثون عنها ليست في سكينة الروح، بل في البحث عنها من خلال القلق الإنسانيِّ، مشروع الفكر الكبير!

هي ذي أصابع الحكمة تمتدُّ، فترسم وجهاً آخر للحياة، وجه بلا كلوم أو أخاديد، وجه باسم في ملامحه تبدو الفصول الأربعة زاهية بالربيع الطلق!





فكر

'إنجيل' و 'مفكّر حر' كلمتان أبوان قريبان افترقا منذ زمن بعيد بفعل استبسال تاريخ طويل ضدّ هذه الصداقة. يسعى الكتاب إلى فتح هاتين الكلمتين المغلقتين في محاولة من المؤلف لتقريب موقف كلّ من العلمانيّة والمسيحيّة على الرغم من المظهر العام للعلاقة السلبية بينهما، حيث يدعو أحدهما إلى الإيمان المطلق من دون تساؤل، والآخر يرفض كلّ ما هو ديني دون استثناء ومن دون نقاش، ولهذا نقتل بعضنا باسم الله.

يؤكّد الكتاب على وجود جانبي المعرفة هذين، فما الذي يمكن أن نصل إليه من دون العلمانيّة، وما الذي يمكن أن نصير إليه من دون الغنى الروحي؟ ولكنه يشترط على العلمانية أن تتحدّد بأنها رفضٌ للحقائق النهائية، ووضعٌ لحدود صارمة بين ما هو دنيوي وما هو مقدّس، بعبارة أخرى أن تكون إعادة تأسيس للمجتمع من خلال اعتراف الجميع بحقهم الطبيعي بتبني الوعي الذي يريدون دون أن يسلبوا من الآخر هذا الحق.

ISBN 978-9933-506-82-7







